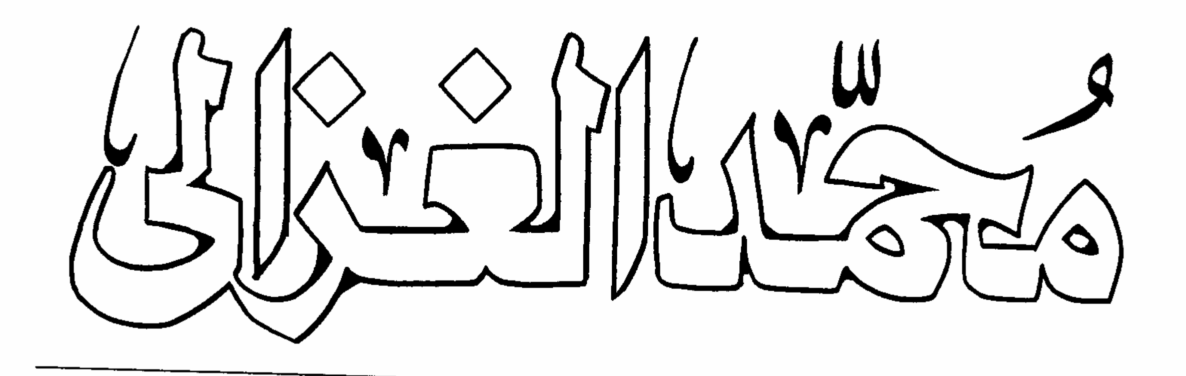
محمد الغزالي



الحق المر

«الجزء الثاني»





جرعات جديدة من

الحق المر



«الجزء الثانى»



اسـم الكتـاب: جرعات جديدة من الحق المر «الجزء الثانى».

المـؤلـف: الشيخ/ محـمـد الغـزالـى.

إشـراف عـام: داليـا محمـد إبراهيـم.

تاريـخ النشـر: الطبعـة الأولـى.. مايـو 2005م.

رقـم الإيـداع: 2004 / 8684

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3043-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) ـ فـاكـس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى ـ الفجالة ـ القاهرة ـ ص. ب : 96 الفجالة ـ القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فـاكـس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمة الناشر

هذه مقالات قيمة كتبها الشيخ محمد الغزالى من سلسلة مقالات «الحق المر» على امتداد فترة زمنية ليست بالقصيرة، هبَّ فيها للدفاع عن الإسلام والمسلمين والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأسلوبه الذى يتميز بالعمق والبساطة فى آنٍ واحد.

هذه صفحات جهاد ونضال كتبها الشيخ الغزالى لمواجهة عدو من أشد أعداء الأمة العربية والإسلامية، والذى استطاع أن يغزو هذه الأمة فى عقر دارها، وأن يستلب منها أرضًا غالية هى أرض فلسطين. إن الاستعمار الغربى الصليبى والصهيونية زحفا إلى ديار الإسلام منذ بداية القرن العشرين وأقاما دولة إسرائيل فوق الأرض العربية المقدسة.

إن من يقرأ هذه الصفحات يشعر بأنها قد كتبت لتوها ويتقبلها القارئ ويتفاعل معها، والسبب صحتها وصدقها الشديد، إن كل يوم يمر يؤكد صحة ما كتبه الشيخ محمد الغزالى عن اليهود ودولتهم العنصرية إسرائيل، وعن الغرب الصليبى الحقود على الإسلام والمسلمين، بل لا يخامرنا شك فى أن الأجيال القادمة التى سوف تقرؤها ستستشعر صدقها وصحتها كما فعلت الأجيال التى سبقتها! والسبب أن الرجل قدم للناس حقائق عن اليهود تعلمها من كتاب الله وسنة رسوله ونظرة ثاقبة للتاريخ ووقائع الأحداث القريبة والبعيدة، مع تحليل صحيح لها.

لم يكن يبغى إلا وجه الله وحده ـ لا نوال شكر أو إرضاء بشر.

الناشر

الجـــهـــاد

فى أواسط القرن الرابع عشر الهجرى تحركت اليهودية وتذكرت بغتة أن لها صلة بفلسطين، وبدأ الهجوم الصهيونى على مراحل وفرض على العرب أن يستسلموا، فإذا وجدت رصاصة فى البيت نسفت جدرانه وسوى بالركام، كم يبلغ قتلانا فى فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألوف وألوف!

ومطلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لاتزال قلوبهم مغلقة بالضغائن، ولايزالون يبيتون الشر لمحمد، وتراثه.

والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان، وهم الذين اسودت قلوبهم وصحائفهم بالمنكر من الأقوال والأفعال، هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الذليل؟ لقد أمر المسلمون أن يعتمدوا على الله، ويقاوموا هذا العنف، وقيل لهم: لا تقبلوا الضيم، ولا ترخصوا الحق:

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾.

إن السلام هنا يعنى الضياع المادى والضياع الأدبى، ولا يتقبلهما إلا جبان خاسر الدين والدنيا.. وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التى أوصت بالجهاد، وهو جهاد - كما علمت - فى سبيل الله لا إشباعًا لغرور، ولا تمشيًا مع طمع، ولا جريًا وراء جاه، ولا عصبية لجنس، ولا دعمًا لباطل فى هذه الحياة، إنه منع للشرك أن يقهر التوحيد، ومنع للظلم أن يجتاح الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل!

فى جو من التوقير والتهيب نرمق رجالاً صنعهم محمد المحب لربه، الراضى عنه، الفانى فيه، نفخ فيهم من روحه فإذا هم ليوث بالنهار، رهبان بالليل، يؤثرون الله على أنفسهم، وينشدون قبوله بالنفس والنفيس.

هم مجاهدون أتقياء، أشداء على الكفار رحماء بينهم، من قتل منهم مات شهيدًا فى سبيل الله، ومن عاش منهم بقى حارسًا يقظًا لكلمات الله.

كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه؛ ليلقى - فى سبيل الله -

حتفه، وهو سعيد، كان الواحد منهم يزهد عن الأهل والعشيرة - فى مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة - ويتغرب بعقيدته مستبدلاً أهلاً بأهل، وعشيرة بعشيرة. وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وقالوا كلمات الكفر؛ حرصًا على منصب أو تطلعًا إلى آخر، أو تركوا الحق يموت مستوحشًا؛ لأن إيناسه يغضب بعض الكبراء!

أين هؤلاء الصغار من الرجال الذين رباهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطاردًا، وعرفت الآخرة فى سيرتهم وكانت مجهولة؟

فى المجتمع العالمى الآن يقال: إن خطتنا بناء دار لكل شاب، وتمليك سيارة لكل أسرة وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية، ثم ماذا؟ لاشىء، الحديث عن الله والآخرة شىء مضحك.

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشدًا مع البناة المتطوعين من صحبه: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة!

قد بدأ يبنى جيش الحق بكلمات من نور، أو من نار، يقول: «**لغدوة فى سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»، وفى رواية: «**غدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس**».

«**ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست فى سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله**».

«**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**».

«**رباط شهر خير من صيام دهر**».

«**من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير؛ فقد غزا**».

«**ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - فى سبيل الله إلا حرم عليه النار**».

«**من بلغ العدو بسهم رفع الله له درجة، ما بين الدرجتين مائة عام**».

«**مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة**».

«**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يضمن الله لمن خرج فى سبيله - لا يخرجه إلا فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديق برسلى - فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر، أو غنيمة.**

والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين: ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى.

والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

هذه الكلمات إلى جانب آيات الكتاب العزيز، إلى الجانب التطبيقى العملى لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة - دءوبًا منتظمًا فى نصرة ربه كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شرود، ذلك كله صنع الجيل الذى ثبّت أركان الحق، وأرسى قواعده إلى آخر الدهر.

هل سيعود العرب إلى الإسلام؟

لم يصور العهد القديم شيئًا من الفضائل والمثل. إن الأسفار الخمسة التى تمثل التوراة، وهى دستور الحكم فى إسرائيل، أو دستور القيم الموجود الآن دوليًا ومحليًا لبنى إسرائيل، إن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها شىء يعنى الإنسانية ويشبع جوعها الروحى، كل ما فى الأسفار الخمسة أن هناك شعبًا مختارًا مقدسًا أوذى ويجب أن يملك وأن يحكم العالم بامتيازه الشخصى، بقداسته الذاتية، بكبريائه العنصرية.

هذا شىء غريب، ليس هناك فى أسفار التوراة ما يحكم العالم حكمًا راشدًا، إن حاجة العالم إلى القرآن، والقرآن كتاب شرف الله العرب فأنزله بلغتهم، وجعلهم لهذا الميراث السماوى قادرين على أن ينقلوا هداية الله إلى الناس، هل يعرف العرب أن شرفهم بالإسلام؟ وأن كرامتهم بالقرآن؟ وأن عظمتهم فى الانضواء تحت لواء النبى العربى محمد ﷺ؟ يوم يعرف العرب فى هذه المنطقة - فى مصر وسورية والأردن والجزيرة وكل من ينطق باللغة العربية - يوم يعرف العرب أن فخرهم وتاريخهم ويومهم وغدهم فى الإسلام، ويوم يقررون بجد أن يعودوا للإسلام، قوانين وتقاليد، وتعليمًا وتربية، موضوعًا وعنوانًا، تاريخًا قديمًا وحضارة معاصرة، يوم يعرف العرب هذا، ثم يديرون المعركة مع اليهود ومن وراءهم - لو قررنا هذا مساء اليوم - فإن صبيحة الغد ستشهد يوم النصر.

الأمر كله فى النزاع القائم بين إسرائيل والعرب مرتبط بجواب واحد: هل سيعود العرب إلى الإسلام؟ هل ستكون قضية فلسطين إسلامية؟ هل سيركل العرب بأقدامهم التشريع الوافد - القانون الاستعمارى - ويجيئون بدله بقوانين الإسلام وتعاليم الإسلام؟ هل سيحترمون لغتهم العربية ويجعلونها لغة التخاطب، ولغة العلم، ولغة الكتابة، ولغة التأليف، ولغة عالمية؛ لأنها لغة رسالة عالمية؟ هل سيعرف العرب أن قدرهم ليس من عروبتهم، العروبة وحدها لا تنشئ شرفًا، ولا تكون جاهًا، ولا تحبو أصحابها قدرًا، بل على العكس ستهبط بهم أسفل سافلين، إذا لم يعد العرب إلى الإسلام، ويبدأ نزاعهم مع إسرائيل بأخذ هذا الطابع الدينى المقابل للطابع الدينى الإسرائيلى، فإن المعركة لن تكون لنا.

إن الله عز وجل قد تفضل على العرب بالإسلام هدية اجتباهم بها واختارهم لها، فإن رفضوا الهدية عوقبوا وذلوا، وإن قبلوا الهدية استراحوا وأراحوا.

لما تحدثت سورة الجمعة عن الرسالة الخاتمة: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤]. بعد هذا بينت السورة أن قيادة العالم لا تملك بالادعاء، إن أى سيارة تفقد الوقود لابد أن تقف فى الطريق؛ لأنها ما تسير إلا بوقودها، والأمم إنما تسير بقوى تمدها بالطاقة والحماسة، وتغريها بالانطلاق واجتياح العقبات، والأمة التى تفقد مؤهلات الزعامة تنحى ـ يقينًا ـ عن الزعامة، لأن الله قال ـ مبينًا لِمَ نحّى بنى إسرائيل ـ:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[الجمعة ٥]

والقوم ـ أعنى بنى إسرائيل ـ الذين لم يهذبوا أنفسهم لا يؤتمنون على تهذيب الناس، الذين لم يرتفع مستواهم لا يكلفون برفع مستوى الخلق، الذين قيل فيهم: إنهم لم يفقهوا التوراة، ولم يحسنوا الأخذ بها، بل هم قد أصبحوا كالدواب الناقلة للكتب، والدواب الناقلة للكتب لا تتغير طبائعها؛ لأنها حملت كتبًا، إن الكتب تغير طباع الناس يوم يقرءونها، ويدرسونها، ويقفون أنفسهم بها، ويحسنون أخلاقهم بآدابها، ويحكمون غرائزهم بقيودها، هذه طبيعة الكتب عندما تنشئ حضارة وتجعل أمة ما قديرة على القيادة.

فليسأل العرب أنفسهم: هل زكوا أنفسهم بالقرآن؟ هل شرفوا سريرتهم وعلانيتهم بآداب الإسلام؟ هل نقوا بيوتهم وشرائعهم بتقاليد الوحى وقوانين السماء؟ لا.. إذن يوم يتقهقرون فالعيب عيبهم، والذنب ذنبهم: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء ٧]، ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام ١٠٤].

إننا يجب أن نصحوا من نومنا، لايزال هناك نفر - هم فى نظرى - تماثيل للغباوة، هذا النفر تمتلئ به وسائل الإعلام، لا تنقصه الجهالة ولا الحماقة، هؤلاء لا يعرفون عن الصراع العربى اليهودى شيئًا؛ لأنهم فارغون، كل امرئ يقول لكم: إن الصهيونية شىء واليهودية شىء، اعلموا أنه شخص جهول، ما قرأ العهد القديم، ولا قرأ كتب القوم ولا آمالهم، ويريد أن يفرض جهله علينا.

فلسطين قضية دينية

إن الكوارث العسكرية التى أصابتنا خلال معظم معاركنا مع اليهود مزقت الملاءة المسدلة على جسم ممدد معتل، تسرح الجراثيم القاتلة فى أوصاله طولاً وعرضًا، وأظنه ظهر لكل ذى عينين أن الأمة الرائعة، الفارعة، التى طوفت بالإسلام فى المشارق والمغارب، قد استحالت أمة واهية الخلق، معوجة السلوك، ضعيفة الأخذ لربها ولنفسها، يفكر شبابها فى الملذات العاجلة، ويتسابق نساؤها وراء الزينات الفاضحة، ويذهب حكامها عن شرائع الله وحدوده المقررة، وتتقطع علاقاتهم الروحية والاجتماعية به، فما يصطفون له فى الصلوات الجامعة والعبادة الخاشعة.

أفهذه مؤهلات النصر المرتقب، ومستنزلات التأييد الأعلى من المعز المذل؟ وزاد الطين بلة أن الأمة التى استرخت قبضتها على تعاليم السماء عجزت كذلك أن تمسك بأسباب النجاح الدنيوى المعتاد، فظلال فشلها الدينى امتدت إلى شئونها السياسية والاقتصادية والفنية والإدارية، فأصبح العمل الإنسانى الميسور للآخرين يخرج من بين يديها كما يخرج السقط من بطن الأم لا تُعرف له ملامح، ولا يُرجى له بقاء.

وقد تذكرت ببصر دامع وقلب مكلوم هزيمة ١٩٦٧، كان قائد الأعداء واسع الخبرة والحيلة، وصل إلى منصب القيادة بعدما دمى بدنه، وهو يصعد من السفح إلى القمة، وكان كما ظهر من سيرته محدود الشهوة، ممدود الفكرة، خدومًا لعقيدته، معتزًا بدينه وكتابه، يقود جيشًا على غراره إيمانًا ونظامًا.

أما نحن فقد اجتمعت فى قياداتنا نقائص كل الصفات التى توفرت لدى عدونا، فهل كان الحكيم الخبير يُلغى سننه الكونية وقوانينه الأزلية الأبدية، فيجعل الفوضى تهزم النظام، والهوى يغلب العقيدة؟

لقد انتهى العرب إلى النتيجة التى صنعوا مقدماتها، دينًا ودنيا، وسيبقون على خط الهزيمة ما بقيت تلك المقدمات موطدة لديهم.

ولقد كشفت هذه الهزائم - خلال السنوات التى مضت على قيام إسرائيل، بل منذ وعد بلفور ١٩١٧ - أن الأدوية التى وصفها الزعماء السياسيون للأمة المريضة لم



تكن أدوية شافية، بل كانت سمومًا كاوية، فإن أغلب هؤلاء الزعماء تشابهت قلوبهم فى مخاصمة الدين ونبذ شرائعه وفضائله، ثم اختلفوا، فمنهم من أعلن كفره بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة وتقاليد وأخلاقًا، ومنهم من طوى هذا الكفر فى صدره، من باب السياسة والكياسة وخداع الجماهير ثم مضى فى طريقه يبعد الأمة عن دينها عمليًّا، فلا يرى نورًا للإسلام إلا أطفأه ولا نشاطًا إلا عوقه، وخلال هذه المدة المتطاولة من ١٩١٧ إلى الآن استطاع اليهود ـ باسم الدين ـ أن يحولوا وعدًا خياليًّا إلى حقيقة واقعة.

أما نحن الذين أبعدنا الإسلام عن المعركة، فقد ظللنا نتدحرج حتى بلغنا الوهدة التى سقطنا فيها، وها نحن أولاء نحاول جاهدين أن نخلص منها، وأن نقف على أقدامنا مرة أخرى، ومن العجز أن نولول فى آثار نكبة لحقتنا، إلا أنه من العقل أن نحول دون تكرار هذه النكبات، ومن العقل أن ننصح المخطئين، وأن نصدهم عن المضى فى طريق الخطأ القديم، وإذا كانوا لايحسنون إلا السير فى هذا الطريق؛ فليذهبوا إلى حيث ألقت، وليتركوا الأمة لتعود إلى دينها، وتعالج قضاياها بمنطق العقيدة والجهاد، ألا فليعلموا أنه عُرض على اليهود وطن قومى لهم في أوغندة، وفى مهاجر أخرى، فأبوا إلا فلسطين! لماذا؟ قالوا: هناك نداء الإيمان والذكريات والتاريخ الأول، وانقاد الاستعمار لهم، ومنحهم أرضنا.

فلنتدبر هذا المنطق اليهودى، ولنقس به مقررات أحد المؤتمرات العربية التى انعقدت من بضع سنين ورأت أن قضية فلسطين قضية عربية بحتة، وقالت للمسلمين فى كل مكان: لا شأن لكم بها، أى لغو وأى إفك؟! إن قضية فلسطين طول أدوار التاريخ قضية دينية، الغزاة الجدد هجموا ـ كما زعموا ـ ملبين نداء الدين، فلحساب من توصف قضية فلسطين بأنها عربية من شأن العرب؟

إن الذين فعلوا ذلك لم يحرفوا مفهوم القضية فقط، ولم يحرموها تأييد جماهير المسلمين فقط، بل فعلوا ذلك ليمسخوا معناها الحقيقى عند العرب أنفسهم، ولينفسوا عن حقد ضد الإسلام تعلموه من زبانية الغزو الثقافى المسيطرين على تيارات الفكر فى بلادنا، إن عاطفة التدين تشد زناد النشاط الإنسانى بقوة، وتبلغ به أبعد الآماد.

وعندما يفقد المسلمون هذه العاطفة بتأثير الاستعمار الثقافى، وهم يقاتلون إسرائيل؛ فإنه يساوى حصول إسرائيل على الانتصار الكامل علينا.

على أننا لانطالب بالعودة إلى الإسلام لتكون هذه العودة إنقاذًا لسمعة العرب السياسية والعسكرية، واستردادًا لخسائر لم ينقطع إلى اليوم سيلها.

لا، إن هذه النتيجة المحققة سوف تجيء من تلقاء نفسها.

ولكننا نطلب العودة إلى الإسلام؛ لأن الإسلام حياتنا ورسالتنا، ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا.

كيـــف النـجـاة؟

يجب أن يعلم اليهود أن ما يدَّعون من حق فى أرض فلسطين لا يقوم على سند دينى محترم، فهم لم يغيروا شيئًا من خلائقهم التى أحلت بهم سخط الله فى الدنيا والآخرة.

هم يعلمون أن لعنة الله تبعتهم وهم يفرون من بلد إلى بلد، فماذا صنعوا للخلاص منها؟

لاشىء، إنهم وراء جميع الأزمات الروحية والمادية التى تدوخ الجنس البشرى، وتميل به عن الصراط المستقيم.

والذين يختبئون وراء إسرائيل يعلمون أن الوجه الدينى لربيبتهم يخفى وراءه نيات سوداء للبشرية جمعاء.

والحق أن إسرائيل تجسيد لكل الأحقاد التى طفحت ضد العروبة والإسلام، وأن الأساس الوحيد لقيامها لا يُلتمس فى المشارق والمغارب، وإنما يُلتمس فى منطقة الشرق الأوسط هذه، أعنى قلب الأمة العربية.

إن تفريط العرب فى الإسلام، ونسيانهم لرسالتهم العظمى، وتحولهم إلى شعوب متعطلة متبلدة هو الذى خلق هذه المأساة.

إننا لم نخف الله فخوفنا الله بذباب الأرض.

وجعل الأقربين والأبعدين ينظرون بشماتة وازدراء إلى جراحاتنا التى لا ينقطع لها نزيف.

إن عشرات الدول الكبرى والصغرى نظرت إلى اللص يسطو على البيت، فانضمت إليه ضد رب البيت الذى شرع يدافع بدهشة ولهفة عن مسكنه.

إنه يدافع منتظرًا أى عون إنسانى من أولئك المتفرجين على المعركة.. وهيهات.

ولو تسللت إلى ضمائر هؤلاء المشاركين فى الهيئة الدولية؛ لوجدتهم يقولون: هذا اللص أولى من هذا المتخلف الذى يقطن الدار، إنها داره ولكنه لا يستحقها.

تلك هى سريرة عدد كبير من الدول التى تسخر من ضعفنا، وبالتالى تحكم علينا لا لنا.

والسبب؟

السبب نحن لا غيرنا، وذاك أرفق عقاب ينزله الله بأمة تخلت عن دينه، وأدارت ظهرها لتعاليمه.

وسوف يبقى الوضع كذلك حتى نذَّكَّر أننا مسلمون.

وأن الإسلام يفرض علينا تشكيل أوضاعنا السياسية والاقتصادية والخلقية والفكرية والاجتماعية والتشريعية على نحو آخر.

إننا نطلب العودة إلى الإسلام؛ لأن الإسلام حياتنا ورسالتنا، ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا.

فكيف نرتد على أعقابنا وننسى الرسالة العظمى التى آثر الله بها جنسنا ولغتنا، ورفع بها قدرنا وتاريخنا؟

ثم ماذا أفدنا من جحد الإسلام؟

الهزائم التى تسود بها الوجوه، والتى جعلت البغاث يستنسر بأرضنا، والتى حقرتنا عند أنفسنا وعند الناس.

ألا إنه لا يعترض العودة إلى الإسلام إلا أحد رجلين:

مرتد يكره هذا الدين، ويميل بهواه مع أعدائه الكثيرين فى الشرق والغرب.

أو جاهل يظن التمسك بالإسلام رجعية توصم بالتعصب، ويرى فى القومية المجردة طريقًا لبناء الدولة الحديثة بعيدًا عن الطائفية وشتى التهم.

فها نحن أولاء، ندور فى عاصفة تريد اقتلاع جذورنا، ومحو أوطاننا، فماذا كسبنا من هذه القومية الكافرة؟

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، لا نجاة للعرب إلا إذا ألقوا أنفسهم فى أحضان الإسلام.

عندئذ تطلع الشمس وتختفى الأشباح.

مخططــون .. وغـافلــون

كان اليهود ومَن وراءهم يرون أن تكون قوة إسرائيل معادلة لقوى العرب أجمعين، أى قوى عشرين دولة أخرى، وذلك لضمان بقائها على تغير الأحداث، ولكن هذا التفوق الساحق أخذ طابعًا أقسى عندما تقرر أن تكون إسرائيل وحدها هى المالكة للقنبلة الذرية فى المنطقة كلها، إن ذلك لا يعنى التقدم اليهودى فقط، بل يعنى فرض صغار أبدى على العرب، يجعل أرضهم ورسالتهم ومستقبلهم تحت أقدام الصهيونية العالمية، ويجعل إسرائيل الكبرى قضاء مبرمًا لا فرار منه.

يقول «موشى ديان» أمام الغرفة التجارية الإسرائيلية ـ الأمريكية: على إسرائيل أن تؤمن نفسها بامتلاك السلاح النووى، وأن تنتج وحدها صواريخ أرض ـ أرض بعيدة المدى، إننا نملك الآن القدرة على تفجير الذرة، وذاك لابد منه لدولة صغيرة، ولنعلم أن الولايات المتحدة ليست شرطى العالم الذى يُستَنجد به، فلنعتمد على أنفسنا وحدها.

وقال أيضًا: على إسرائيل امتلاك الخيار الذرى حتى يعرف العرب أننا نستطيع تدميرهم إذا نشأ وضع أحسسنا معه أن دولتنا معرضة للخطر.

وفى لقاء لشارون مع الشيخ الأمريكى جون جلين والسفير الأمريكى صموئيل لويس سنة ١٩٨٢ قال شارون: إذا أقيم مفاعل نووى جديد فى العراق فسوف نهاجمه وندمره، ولن نسمح بوجود سلاح ذرى لدى جيراننا العرب، ولن ننتظر هذه المرة حتى يصبح المفاعل النووى العربى فى وضعه الساخن، ثم قال: لقد رسمت إسرائيل خطا أحمر للأسلحة التى تسمح للعرب بحيازتها، هذا أمننا، ولن نسمح لأى بلد عربى أن يعكره بامتلاك القنبلة الذرية.

إن اليهود ـ انبعاثًا من عقيدة توراتية راسخة ـ ماضون فى إقامة إسرائيل الكبرى بالسلاح الذى يفنى العرب كلهم إذا اقتضى الأمر، ولست متجافيًا عن الحق إذا قلت: إننى وسائر المسلمين نؤثر الموت المجهز على ترك إسرائيل تفعل ذلك، ونحن نرفض هذا المصير، وليكن ما يكون.

لقد نجح العراق فى بناء مفاعل نووى من عشر سنين، ثم استطاعت إسرائيل تحطيمه فى غارة جوية ضحك العالم بعد وقوعها، ولم يصنع شيئًا، وكان بين

العراق وبين صنع قنبلة جديدة عام ونصف كما يقول المحققون، ولكن حرب الخليج أجهزت على هذا السلاح قبل اكتماله.

ولست آسى على شىء كما آسى لما يصنع العرب بأنفسهم، إنهم ينتحرون قبل أن يشتبك العدو معهم، من قال من أهل الأرض: إن اليمن هى الطريق إلى القدس حتى يرسل الجيش المصرى إليها ليفقد خيرة قواته، فإذا وقعت حرب سنة ١٩٦٧ انهزمنا فى ست ساعات، وضاعفنا مساحة إسرائيل ثلاث مرات؟!

ومن قال: إن الكويت هى الطريق إلى القدس حتى يُستَدرج الجيش العراقى إلى غزوها والفناء فيها، ثم ترك تقدمه الذرى نهبًا فى أيدى الحلفاء؟!

إن مؤتمر السلام الحالى هو معالجة يائسة لآثار هذه الهزيمة المخزية.. إننى أتحدث وقلبى ينفطر، وعلى لسانى قول الشاعر القديم:

كفى حزنًا ألا أزال أرى القنا
تمج نجيعًا من ذراعى ومن عضدى
وإنى وإن عاديتهم.. وجفوتهم
لتألم مما عض أكبادهم كبدى

إن العرب يستطيعون أن يفعلوا الكثير، وأن يمحوا الغرور اليهودى، وأن يؤمِّنوا المسجد الأقصى، وأن يغيثوا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين أكلهم الذل داخل سجون إسرائيل، إنهم يستطيعون ذلك يوم يغيرون خططهم القديمة، ويفتحون صدورهم لمبادئ الإسلام وتوجيهاته، ويستهدون بالله فى حربهم وسلامهم.

ماذا يصنع العرب الآن؟ يقولون لليهود: نترك لكم ما أخذتم سنة ١٩٤٨ وتردون لنا ما أخذتم سنة ١٩٦٧، ويجيب اليهود: لا لن نترك من «أرضنا» شيئًا!

إن تفاوضنا حين يدور مع اليهود على هذا المحور، إن دل على شىء فعلى أن العرب منهزمون نفسيًا، وأنهم يجهلون طبيعة المعركة القائمة، وأنهم لاينبعثون عن صلة بالله الذى اصطفاهم لرسالته، واختار لهم الإسلام دينًا.

هم بنو إسرائيل، فبنو مَن نحن؟

أصغيت بانتباه إلى إذاعات عربية كثيرة شاركت فى الاحتفال بـ«يوم الأرض» وهو يوم حزين يخرج فيه عرب فلسطين المحتلة ليحيوا ذكرى شهدائهم الذين قاوموا الاغتصاب اليهودى لترابهم الوطنى، هذا الاغتصاب الذى تحول إلى اجتياح مسعور بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م، وشعرت بالسخط وأنا أسمع ما قيل من شعر ونثر، إذ كان المتحدثون يؤكدون عروبة فلسطين؛ لأن الكنعانيين هم أصحابها الأوائل، والكنعانيون والعدنانيون والقحطانيون جميعًا عرب، أما بنو إسرائيل فهم طارئون غرباء، وحاولت أن أتسمع معنى آخر يربطنا بأرضنا فلم أرجع بطائل، ما تحدث أحد عن الله ورسوله ﷺ، ما تحدث أحد عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتسلمه الأرض من النصارى لا من اليهود، ما تحدث أحد عن أصلنا الدينى وتاريخنا الإسلامى، ما تحدث أحد عن انتهاء الدور الروحى والحضارى لليهود وبزوغ رسالة أخرى بعيدة عن الأثرة والحقد، ما تحدث أحد عن أن وظيفة الهيكل وكونه مسكنًا للرب قد ألغيت وأن الوظيفة الجديدة هى لمسجد يصيح فى أرجاء العالمين: الله أكبر.. كان التنادى بالعودة إلى الأرض وحق أبناء كنعان فى وراثتها، إن دوران المعركة على هذا المحور هدف استعمارى انزلق إليه العرب فى محنتهم النفسية والعسكرية، ولن ينالوا من ورائه خيرًا، فاليهود يديرون المعركة على أساس دينى بحت، ويستقدمون أتباع التوراة من المشرق والمغرب قائلين: تعالوا إلى أرض الميعاد، تعالوا إلى الأرض التى كتبها الله لأبيكم إبراهيم كما أكد العهد القديم.

فى تقرير لـ «فرانس برس» نشرته صحيفة «الراية القطرية» ١٩٨٢/٥/٢م تحت عنوان «مستوطنون باسم التوراة» التقى الكاتب بنفر من اليهود فى المستعمرات التى أنشأوها، وتحدث معهم ليستكشف سرائرهم وأسباب مجيئهم، ومدى حرصهم على البقاء مع المقاومة العربية المتصلة، قال «هارون» الذى يقيم فى مستعمرة «أوفرا» من خمس سنين: «إننى أمتلك ما لدى باسم التوراة، واعتراضات العرب لاوزن لها» ويبلغ هارون من العمر ٤٠ سنة، وهو يضع مسدسًا فى حزامه، ويوالى حركة «جوش أمونيم» كتلة الإيمان الدينية المتطرفة،

والواقع أن الاتجاه الذى يمثله هو الغالب على جمهور المستوطنين الإسرائيليين، وفى «كريات أربع» وهى مستعمرة بجوار مدينة الخليل يؤكد «شالوم» - عمره ٣٣ عامًا - ما ينتويه فيقول: «إن اهتمامى الرئيسى منصب على عودة الشعب اليهودى للإقامة بأرضه، وإذا كان العرب يرون أن نصوص التوراة ليست سببًا كافيًا لحق الملكية فليست هذه مشكلتى»، وتقول «مريم لوينجر» وهى قرينة حاخام يهودى مشهور: «إن علينا أن نطيع أوامر الله الذى طلب منا العودة إلى الأرض المقدسة، وهى تقيم مع أحد عشر ابنًا لها وسط مدينة الخليل العربية على أنقاض معبد قديم». ويقول هارون وشالوم ومريم جميعًا: «إن أمام العرب الفلسطينيين متسعًا فى الدول العربية المجاورة، فليهاجروا إليها»، ويقول كاتب التقرير: «إن حدود إسرائيل - كما يرسمها هؤلاء - أبعد من الحدود الحالية، فإسرائيل المذكورة فى التوراة تشمل جانبًا كبيرًا من لبنان، ودولة الأردن كلها، وشبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس.. والمستوطنون مسلحون جميعًا بالمسدسات أو المدافع الرشاشة، ولهم فرق حراسة تدور حول المستعمرات ليلاً ونهارًا».. وختم الكاتب تقريره بهذه العبارات على لسان «هارون»: «لقد صاح وهو يطل من النافذة ويشير إلى مزارع الفاكهة: هذا البلد ملك لنا، عندما وصلنا هنا لم تكن توجد إلا تلال وحجارة، لقد خضرنا الصحراء، ولقد ساعدنا الله منذ ألفى عام ولن يمتنع عن ذلك فجأة، بل سوف يساعدنا على حل مشكلاتنا مع العرب».

أرأيت أيها الأخ فلسفة القادمين الجدد، وأحاديثهم السرية والعلنية؟ الله ومواعيده لشعبه المختار، التوراة والحدود التى رسمتها، حق التملك للأرض باسم الدين اليهودى، وجهود البناء والتعمير، ليكن العرب أبناء كنعان أو قحطان، فليعيشوا بعيدًا عنا، وما يقوله رجل الشارع العادى هو ما يردده رئيس الوزراء المسئول، فكيف برب الأرض والسماء يصرخ القوم بانتمائهم وننسلخ نحن من هذا الانتماء مؤثرين عليه انتماء عرق لايقدم ولا يؤخر؟! وعندما يتكلم السياسى اليهودى رافعًا بيمينه كتابه المقدس، فهل يسكته سياسى عربى يستحى من كتابه، ولا يذكره فى محراب ولا فى ميدان؟!

الزحف اليهودى لايوقفه إلا الإسلام

نريد أن نلقى الضوء على بنى إسرائيل أو اليهود، والحديث عن بنى إسرائيل له مصادر كثيرة، ولكن المصدر الذى نأنس إليه، ونعتمد عليه، ونعتقد أنه تضمن جملة الحقائق الأولى والأخيرة فى هذا الموضوع هو القرآن الكريم، فإن هذا القرآن حكى عن ماضى بنى إسرائيل ومستقبلهم ما يكفى ويغنى، وفى هذا يقول الله جل شأنه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨ ﴾.

والنزاع بين العرب والمسلمين وبين اليهود قد يطول سنين عددًا لا نعرف مداها، ولاندرك بالضبط متى تنتهى الحرب بيننا وبينهم، لكننا ندرك عن يقين جازم أن هذه الحرب تتوقف بقدر ما يثوب المسلمون إلى رشدهم ويعودون إلى دينهم، فإذا رجع المسلمون مساء اليوم إلى دينهم؛ فإن هذه الحرب تنطفئ صباح الغد، وإذا رفض المسلمون اعتبار قضية فلسطين إسلامية، وإذا خجلوا من الانتساب إلى الدين، وإذا بعدت الشقة بينهم وبين الإسلام، وإذا استمرأ الشيطان إنامتهم والضحك منهم؛ فإن هذه الحرب لن تنتهى، بل ربما قامت لإسرائيل إمبراطورية من الفرات إلى النيل كما يأملون، والسر أن الحرب الدائرة الآن يديرها الطرفان بعقلية تستحق الدراسة والتأمل، فأما عقلية اليهود فى إدارة هذه الحرب فواضحة، هم يعتقدون أن الكون والشمس والقمر خلق من أجل الأرض، وأن الأرض خلقت من أجل بنى آدم، وأن بنى آدم خلقوا من أجل اليهود، وأن اليهود هم الجنس المقدس، والشعب المختار، والأمة السيدة الموهوبة التى ينبغى أن يحنو الناس لها، وأن يخضعوا لسلطانها، وبناء على هذا الفكر فإنهم يعتبرون عودتهم إلى فلسطين وصلاً للماضى الذى انقطع، وإحياء للتاريخ الذى تجمد أو توقف، وهم يريدون أن يقيموا ـ كما يقولون ـ: «مملكة يهوه» التى يحكمون بها الناس لحساب رب إسرائيل وبنى إسرائيل. فالحرب فى وهمهم وعزمهم وحركاتهم وسكناتهم حرب دينية تمدها أفكار واضحة فى أدمغة القوم، ومشاعر مرتبة فى أنفسهم وأفئدتهم، وهم ماضون فى هذا الطريق إلى نهايته، بداهة استطاعوا بما

يعطيه الدين من تعصب، وما يعطيه من رغبة فى النفقة، ورغبة فى البذل، وقدرة على التحمل، استطاعوا بهذا كله أن يكسبوا كل المعارك التى خاضوها ضدنا، وبديهى أن ينضم إليهم الحاقدون على الإسلام من المستعمرين الذين هاجموا الأمة الإسلامية فى الحروب الصليبية الأولى، انضموا إليهم أخيرًا وتشابكت أذرع الجميع فى كيل اللطمات لنا ونيل ما يبتغون منا.

العقلية التى أدارت الحرب ضدنا هذا وصفها، أما نحن فإن عددًا كبيرًا من الناس رفض رفضًا باتًا أن يصف الهجوم اليهودى على أرضنا بأنه هجوم دينى، وقال: إنه هجوم سياسى، وهذا الكلام كلام غريب؛ لأنه يعتمد على جهل مطلق، هؤلاء الذين أقاموا بعض القيادات الفكرية فى بلادنا صوروا الحرب - عن عمد - أنها حرب سياسية، وأن الدين لا دخل له فى هذه الحرب، فإذا سألتهم: أتعرفون شيئًا عن اليهودية؟ قالوا: نعم نعرف، درستم العهد القديم وقرأتم فيه كيف وضعت خريطة إسرائيل الممتدة من الفرات إلى النيل، وكيف قيل لبنى إسرائيل: إن هذه أرضكم ويجب أن تأخذوها؟ درستم هذا؟ لا. قرأتم بعد العهد القديم التلمود؟ لا.. قرأتم تاريخ اليهود أولاً فى العهود القديمة، ثم فى العهود الوسيطة؟! لا. فإذا كنتم جهالاً فما الذى يجعلكم تفرضون على الناس جهلكم؟.. تصور رجلاً يقول لك: أنا عالم بالإسلام، فإذا قلت له: تعرف القرآن؟ قال: لا. تعرف السنة؟ قال: لا. تعرف الفقه الإسلامى؟ قال: لا.. فما علمك بالإسلام؟.. لكن القيادات الفكرية الغبية فى العالم العربى فرضت نفسها وأقنعت ولاتزال تقنع العرب أن الحرب التى يواجهونها حرب سياسية أو استعمارية أو ما إلى ذلك من عناوين مكذوبة، وهم قد عرفوا الآن كيف كانوا أغبياء، وأدركوا - وأرجو ألا يفوت الوقت ليدركوا - أن الحرب الدينية التى أدارها أعداؤنا بروح دينية يجب أن يقف بإزائها الإسلام يحتل الجبهة المقابلة ويبدأ يقاوم ويفرض نفسه.

شىء آخر قاله بعض الصغار من المرتزقة فى ميدان الإعلام، قالوا: إن إسرائيل ألعوبة فى أيدى الاستعمار؛ ليضرب النظم التقدمية فى العالم العربى، وهذا أسخف، فإن إسرائيل قسمت المملكة الأردنية وأخذت نصفها، كما أخذت سيناء، وهى ضعف مساحة الوجه البحرى، وأخذت مرتفعات الجولان، وكان النسر يتعب لكى يصل إلى هذه المرتفعات، أخذ اليهود كل هذا دون مقاومة تذكر، ودون بذل أو تضحية تسند المدافعين وتعلى شأنهم.

إن النظم العلمانية يوم تُطَلِّق الإسلام وترفض مبادئ العلم والإيمان؛ فإن هذه النظم فى الحقيقة تكون عميلة لإسرائيل، بل إن إسرائيل إنما أقامها «وعد بلفور» وبعض الزعماء العرب الذين كرهوا الإسلام هم الذين شاركوا فى إقامة ملك إسرائيل العريض الآن.

لابد أن تعرف الأمور.

هـدف العـدوان اليهـودى

إن النصرانية تؤيد قيام إسرائيل، وترى عودة اليهود إلى فلسطين معجزة للكتاب المقدس وآية تشهد بصدقه، وقد نبه «وايزمان» فى مذكراته إلى هذا، وقال: «إن لورد بلفور وغيره من الوزراء الإنجليز كانوا يعبدون الله حين أصدروا إعلان الوطن القوى، وكانوا يمثلون الإيمان المسيحى».

هل أقول: إن العرب لا يقرأون، وإنهم يجهلون ذلك حقًا؟ ما أظن.. الواقع أن العرب فتنهم الغزو الثقافى وحسبوا أن الوطنيات أو القوميات الحديثة تخلت عن عقائدها الأولى، فتزحزحوا عن قواعدهم، وفرطوا فى دينهم، على حين بقى خصومهم بمشاعر القرون الأولى، ولو حدث بالفعل أن غيرنا نسى دينه أو تناساه، فهل ذلك عذر للكفر والفسوق والعصيان؟ إن قضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدها من طابعها الدينى، والقول بأنه يجب طرد المستعمرين اليهود من بلادنا، كما يجب طرد المستعمرين البيض من جنوب إفريقيا، وأن كلا النظامين يقوم على نزعة عنصرية، هذا الكلام تغطية سخيفة لحقائق مرة.

إن العدوان اليهودى المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة هى: إبادة أمة وإزالة دين، هى الإجهاز على الأمة العربية التى حملت الإسلام أربعة عشر قرنًا، وتريد أن تظل عليه شكلاً إن تركته موضوعًا، والذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين يشاركون فى تحقيق هذه الغاية؛ لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامى زائلة، والعرب من بعدها زائلون، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون، وهذه هى الخطة.

إن ذهاب العرب بأنفسهم وشموخهم بجنسهم وحديثهم عن حضارة كنعان وقحطان وعدنان - إن كانت لهم حضارة - إن ذلك يطعن الأخوة الإسلامية طعنة نافذة، فإذا انضم إلى هذا الغرور نسيان لفضل الإسلام وبعض لنشاط عصرى جديد يقود العروبة فيه الشيوعيون والنصارى والمسلمون، فذاك هو الارتداد الذى ينتهى بالعرب إلى مصارعهم، ويحولهم أجمعين لاجئين لا وطن ولا دين.

إننى مسلم عربى تخيلت أن واحدًا من إخوتنا التركستانيين جاء يعاتبنى

قائلاً: يا أخا العرب لقد نجدناكم فى محنتكم باسم الإسلام وحده، تدرى متى وقع ذلك؟ عندما سقطت بغداد تحت أقدام التتار، وقتلت الخلافة والخليفة معًا، وأطبق الظلام على كل أفق، وانطلق التتار وأمامهم إشاعة أن جيشهم لايقهر.. عندئذ تحرك رجلنا «قطز» ووقّف الفارين وثبَّت المذعورين، وتحت صيحاته المخلصة الجريئة «وا إسلاماه» دحر التتار فى «عين جالوت»، وظل يطاردهم حتى بدد جموعهم، فلم تقم لهم بعد قائمة.. ألا تذكر ذلك؟

قلت: أذكر ذلك ولا أنساه.

قال: لا أحدثك عن خدماتنا الثقافية للكتاب والسنة، إن أئمة الحديث منا، وعلى قمتهم أميرهم أبوعبدالله البخارى، وأئمة المفسرين منا وفى طليعتهم الرازى والزمخشرى.

قلت: ما ننكر فضلكم على العلوم الإسلامية.

قال: بل نسيتمونا كل النسيان، وتركتمونا وحدنا نقاتل روسيا القيصرية حتى احتل الصليبيون أرضنا، وعندما نجحنا فى الخلاص من القياصرة تركتمونا نقاتل روسيا الشيوعية حتى قهرتنا، وكسرت شوكتنا، واعتبرت أرضنا جزءًا لايتجزأ من الاتحاد السوفيتى، ما بكيتم قتلانا، وما أيدتم مجاهدينا، ولا تحدثتم عن قضايانا، وأظلكم صمت عجيب، لم هذا العقوق؟ لم هذا الكنود؟ ماذا أقول؟ وبم أجيب؟ إن احتباس العرب فى نطاق مآربهم الخاصة رذيلة منكورة، واهتمامهم بقضاياهم وحدها أنانية مرذولة. فى الحرب العالمية الأولى انضمت الثورة العربية الكبرى إلى الإنجليز، وقاتلت الأتراك، وتسببت فى هزيمتهم، فماذا جنى العرب؟ أعطى الإنجليز فلسطين وطنًا لليهود، وسقطت الخلافة التى رفضت أيام عبدالحميد بيع فلسطين بالقناطير المقنطرة من الذهب، ووقعت وحشة هائلة بين الترك والعرب انتهت بارتداد الحكم التركى عن الإسلام، أما نتقى الله فى ديننا ورسالتنا بعد هذه النتائج الرهيبة ونستمسك بالإسلام الذى شرفنا الله به، ونجعل الولاء له بعد ما تبين شؤم ما عداه؟

فى حمى اعتزاز العرب بقوميتهم وقع تزوير مثير فى دراسة التاريخ فسمى البطل الكردى المسلم «صلاح الدين الأيوبى» بحامى القومية العربية، والرجل الضخم لم يكن يعرف قومية لا عربية ولا كردية، كان مسلمًا فقط، وفى حفل تم منذ فترة وقعت مشادة بينى وبين أحد السفراء العرب لأنه يريد جعل

«صلاح الدين» بطلاً عربيًا.. ولولا تدخل العقلاء لوقع مالا نحمد عقباه، ومن ربع قرن اعتلى شيخ كبير منبر المسجد الأقصى، وخطب الناس قائلا: أيها العرب.

وغضب المصلون لهذا النداء، فما كانوا يرتقبون إلا النداء التقليدى العظيم: أيها المسلمون.

إن إبعاد العرب عن الإسلام خيانة وطنية، إلى جانب أنها ردة دينية، والذين يمضون فى هذا الطريق يخدمون الصهيونية والصليبية والشيوعية:

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

مهزلة الفصل بين العروبة والإسلام

إن اليهود يعرفون كما نعرف أن فلسطين لم تكن خالية من سكانها يوم دخلوها فاتحين باسم التوراة، كان الكنعانيون يحيون فى هذه الربوع التى فاضت عليهم سمنًا وعسلاً، وكانوا أصحاب تفوق مدنى وعسكرى أغراهم بالترف والعبث والجبروت، وكانوا مرهوبين يخشى الناس بطشهم، أو التعرض لهم.

فلما خرج موسى - عليه السلام - وقومه من مصر واحتوتهم سيناء، قيل لهم: ادخلوا فلسطين فسيناء معبر إليها، ففزع اليهود من هذا التكليف وخشوا مقاتلة أهلها يومئذ، وقالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة ٢٢]، وهذا الرد يقطر جبنًا، فإن الكلاب والقطط تدخل بلدًا خرج منه أهله، أى شجاعة فى هذا الموقف؟

وحاول موسى وبعض الصالحين تشجيع بنى إسرائيل على الهجوم، فقالوا فى إصرار: ﴿ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة ٢٤].

وغمت الأقدار على بنى إسرائيل أرض سيناء، فظلوا يتيهون فيها أربعين سنة، هلكت خلالها الأجيال الجبانة، ونبت جيل أنظف، ولكن بعدما مات موسى، وقاد القوم يوشع الذى دخل فلسطين بعد قتال شديد مع جبابرتها الأولين، وتحكى الكتب القديمة أن يوشع فى إحدى معاركه طلب من الله أن يتم له النصر قبل غروب الشمس فأخر الله الغروب، وكانت الشمس أذنت به حتى تم له ما أراد.

ودخل اليهود فلسطين، وأقاموا لهم دولة مكثت قرابة قرنين، فماذا فعلوا؟ أضحوا شرًا من سلفهم الذاهب، وملأوا الأرجاء خبثًا وسفكًا وفتكًا، وقتلوا الأنبياء المختارين، والأئمة المقسطين، فحكم الله عليهم بالطرد والذل، وتوارث الأقوياء نبذهم وتشريدهم.

فلما دخل المسلمون بيت المقدس فى الشروق الإسلامى الأول كانت العاصمة العتيقة فى أيدى الرومان، وكان دخولها محرمًا على اليهود، وأقبل أمير المؤمنين

عمر - رضى الله عنه - من جوف الصحراء يتألق جبينه شعاع الوحى الخاتم، وتمشى فى خطاه معالم التوحيد الحق.

قال التاريخ: كان التواضع المذهل يكسو موكبه البسيط، وكان الرجل الذى قوض صرح الدولتين العظيمتين فى العالم يتحرك مطرق الطرف خاشعًا لله فوق رحل رث وبين حاشية مستكينة، يقول بصوت رهيف: كنا نحن العرب أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العز فى غيره أذلنا الله، ولم يقل عمر - رضى الله عنه - : الويل للمغلوب.. بل أمّن النصارى على كنيستهم، وقرر حرية العبادة، ثم شرع يرسى قواعد الدولة الجديدة على التقوى والعدالة والمرحمة. شرف العروبة فى هذه الدولة ذوبانها فى إعلاء كلمة الله، حتى جاءت هذه الأيام النحسات، فإذا ناس من العرب ينسون عمر والإسلام، والتاريخ كله، ويقولون: نحن أبناء كنعان، مسحورين بالاستعمار العالمى الذى ألغى الدين وجعل مكانه الوطنية أو القومية، وبقى أن يقول بعض العرب: نحن أبناء عاد، وأن يقول بعضهم: ونحن أبناء ثمود، وفى الوقت الذى يتعرى العرب فيه عن دينهم ويحيون مكشوفى السوأة يتسربل اليهود بعقيدتهم ويصرخون بحماس هائل: نحن أبناء التوراة وأولاد الأنبياء، نحن بنو إسرائيل.

هل نعى الدرس؟

القرآن الكريم يوضح بجلاء دعاوى اليهود وموقف المسلمين منهم، إن اليهود ادعوا أنهم شعب مختار وأنهم جنس مقدس، الله جل شأنه خلق الناس قاطبة، ولم ينشئ علاقة خاصة بينه وبين جنس من الأجناس.. «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب» فإذا كان قد شرف شعبًا فى بعض العصور أو رفع قدر أمة فى بعض الأزمنة، فإن ذلك لما تمثل من حقائق الإيمان، ولما تبذل فى الدفاع عن العقائد الصحيحة والفضائل الواجبة.

إذا كان القرآن قد حمد لبنى إسرائيل - قديمًا - بعض مواقف الخير وقال فيهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فإنهم اختيروا أو فضلوا على عالم زمانهم، والسبب: أنهم دعوا إلى التوحيد فى دنيا مليئة بالوثنية، وتحملوا فى سبيل ذلك تضحيات شتى.. ولكنهم لما جحدوا رسالتهم، وفجرت مسالكهم، وفشا عدوانهم سقطوا من عين الله ووقع لهم ما وقع، وهذا كلام يحتاج إلى تفصيل.

عندما كانوا قديمًا فى هذا الوادى ووقع عليهم من العذاب ما وقع يحكى القرآن الكريم هذا الحوار: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ماذا كان رد بنى إسرائيل على موسى - عليه السلام - لما قال لهم هذه الكلمة: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾؟ كان الرد هكذا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾ فكان جواب موسى: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾، فإذا أهلك الله عدوًا واستخلف بعده من شاء من الشعوب فإنه لا يستخلف هذه الشعوب لتفعل ما تريد، لا بل لينظر ما تفعل، فإن كان خيرًا باركها، وإن كان شرًا لعنها.

هذا الكلام يقال لبنى إسرائيل فى وضوح كما يحكيه القرآن الكريم - أوثق الصحائف التى امتلأت بالوحى الإلهى وظلت معصومة من الانحراف والخطأ حتى هذا القرن وما بين السماوات والأرض، ولم يوجد كتاب فى القارات الخمس يمكن أن تقول وأنت واثق موقن: إن هذا وحى الله إلا هذا القرآن - هذا الكلام منصف: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

هذا الكلام الذى حكاه رب العالمين فى صدد بنى إسرائيل تسمع نظيرًا له بالنسبة إلى الأمة الإسلامية، فإن الله يقول للمسلمين: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ نفس الكلام الذى قيل لبنى إسرائيل قيل للمسلمين، إن الله لا يحابى ولا يظلم، وهو ينظر للشعوب ماذا تصنع؟ ثم يصنع بها ما تستحق: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ماذا فعل بنو إسرائيل؟.. نذكر نماذج قليلة مما فعلوا، لنرى على ضوء هذه النماذج ماذا فعلنا نحن؟ ثم ندرك أبعاد النزاع القائم بيننا وبين غيرنا، إن الله يحب لعباده أن يعيشوا آمنين مكفولى الحرية، مصونى الدماء والأعراض والأموال، حقوقهم فى ضمانات موثقة لا يجرؤ أحد على العدوان عليها.. تستوى فى هذا جميع الأمم. عندما أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل - رضى الله عنه - حاكمًا قال له: «**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»، قال العلماء: والمظلوم هنا ناس ليسوا بمسلمين.. فدعوة المظلوم ولو كان كافرًا يستمع الله لها، فكيف إذا كان المظلوم مؤمنًا؟ لذلك فإن الله جل شأنه أخذ المواثيق على الأمم القديمة والحديثة ألا تظلم، ألا تسجن أحدًا دون سبب، ألا تخرج أحدًا من داره وتنتزعه من بين أهله دون علة واضحة، يقول الله بالنسبة إلى بنى إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه المواثيق أخذت على من قبلنا وتؤخذ علينا؛ لأن الله يقول لنا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

لكن بنى إسرائيل فى تاريخهم أكل بعضهم بعضًا، ظلم بعضهم بعضًا، اعتقل بعضهم بعضًا، أسر بعضهم بعضًا، سجن بعضهم بعضًا، فعوقبوا، والأمة العربية تعاقب الآن؛ لأنها خرجت على مواثيق السماء، وابتعدت عن هدايات الله، عوقبت بمثل ما عوقب به بنو إسرائيل، فهل نعى الدرس ونثوب إلى رشدنا ونعود إلى ديننا قبل فوات الأوان؟

لا عروبــة بــدون إســلام

لابد أن ندرك أن الله لا يحابى شعبًا، هذه حقيقة، وعندما قال اليهود والنصارى: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ رفض القرآن هذا: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ ونحن المسلمين بشر ممن خلق، إن ظلمنا عوقبنا، إن أسأنا ابتعد الإحسان عنا، يجب أن نعقل: الأمة اليهودية أخذ عليها أنها ظنت أنها شعب مختار، لماذا؟ لا اختيار هنالك، الاختيار أن ترشحك مواهبك لعمل، فإن قمت به كنت أهلاً للتكريم والتبجيل، وإن سقطت عنه كنت أهلاً للطرد والإبعاد، هذه سنة الله، فعندما ظن اليهود أنهم أولاد يعقوب، وأن هذا النسب فخر ذاتى، رفض الله هذا منهم.

وعجب من فعلهم عندما قال لنا نحن المسلمين وهو يحكى ما فعل هؤلاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، رفضوا أن يحكم الله فى خلقه! رفضوا أن يحكم الوحى فى شئون الناس، رفضوا أن تكون شرائع السماء أساسًا لإصلاح الأرض! ماذا تريدون؟!

نختلق نحن أحكامًا، نبتدع نحن قوانين، نشرع من عندنا قضاء، أما ما فعل الله وشرع فإن هذا لا خير فيه، لا أثر له، هذا شىء رجعى ينبغى الخلاص منه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، هل هذا صحيح؟ إن هذا الذى قاله اليهود قال مثله المسلمون، فهم يعتقدون أن أمة محمد بخير، وأن أمة محمد لا تعذب، وأن أمة محمد من حقها أن تهمل قرآن محمد وسنة محمد ﷺ، ثم تنال الجنة؟ لماذا؟ وبأى حق؟!

هذا غير صحيح: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

كلمة «نفس» تعنى البشر عرايا من كل نسبة، عرايا من كل زعم ولون، الناس يعودون إلى ربهم بشرًا، نفوسًا، وبقدر ما زكى الإنسان نفسه بالتقوى ينجو، وبقدر ما أهانها يكبو، لكن الشعب المختار الذى ظن أن انتسابه للأنبياء يعطيه حقا سقط من عين الله ولعِن، وجاء بعده الآن من يقولون: نحن عرب، ويملأ فمه بكلمة «عرب» و«نحن دعاة القومية العربية».

فمن أنتم؟ إن كنتم مسلمين فذا كتاب الله وتلك سنة رسوله ﷺ، وكما قال القائل:

أبـــــى الإســـــلام لا أب لى ســـــواه

إذا افـــتـــخـــروا بـــقـــيس أو تميـــم

ما معنى أن أنتسب لعروبة ترفض الإسلام، وتكره الإيمان، وتحقد على رسول الله محمد ﷺ وتأبى العودة إلى سنته، وتأبى التشرف برسالته؟ بداهة هذا الذى صنعه بعض الناس بيننا فى الأمة العربية الكبرى هو الذى صنعه اليهود عندما غضب الله عليهم وقال فيهم ما قال.. ماذا قال؟.. قال: إن هناك أذكياء أو علماء تغلبهم الشهوات والأهواء ويتدلون فى طلبها، فهم بالنسبة إلى الأقذار التى يرعونها، والمآرب الخسيسة التى يحتبسون فى إطارها أشبه بالخنازير التى تحيا على القمامة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

إن اليهود عادوا إلى فلسطين، الحقيقة أنهم لم يعودوا بقواهم الذاتية قدر ما عادوا؛ لأن المسلمين شحبت وجوههم، وغاضت منابع الإيمان فى تربتهم، وانقطع تيار الإيمان الذى يمدهم بالقوة، فلما جاء اليهود وانتصروا، لم يكن انتصارهم فخرًا لهم بقدر ما كان هذا الانتصار خزيًا لنا.

إن اليهود فى كتابهم الذى يدرسونه الآن - وهو العهد القديم - لايمثلون شيئًا إطلاقًا مما تشتاق إليه الإنسانية، ما الذى تشتاق إليه الإنسانية؟

تشتاق الإنسانية إلى محراب واسع تلتقى فيه ألوان البشر أمام رب واحد تسبح بحمده، وتهتف بمجده، وتركع وتسجد فى ساحته، وتستمد الهدى منه، ويعلم كل إنسان أن الله هو الذى يدينه يوم الدين، وأن البر لايبلى، وأن الذنب لا ينسى، وأن الديان لا يموت.

نـظـــرة جــديـــدة

هناك عظماء كثيرون، يقرأ الناس قصص حياتهم؛ ليتأملوا عناصر النبوغ فيها، وليتابعوا بإعجاب مسالكهم فى الحياة، ومواقفهم إزاء ما يعرض لهم من مشكلات وصعاب، وقد تكون هذه القراءة المجردة هى الرباط الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة، وأبادر إلى القول بأنى أنظر إلى صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، وفى نفسى هذا المعنى المحدود، فأنا رجل مسلم عن علم، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين، ولماذا صدقت بنبوة محمد ﷺ، ولماذا تبعت الكتاب الذى جاء به، بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله، وقد سبق لى أن كتبت فى السيرة فصولاً منوعة، وهل ابتعدت عنها فى شىء مما كتبته؟ إن الرسائل التى عالجت فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبى الكريم فى كيانها وسياقها.

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورًا خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم، وهم يعظمون النبى وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، أو بما قلت مؤونته من عمل، ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها، إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة، ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض فى أكفان الموتى، إن حياة محمد ﷺ ليست بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد، كلا كلا، إنها مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيها، ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بها، فأى حيف فى عرض هذه السيرة، وأى خلط فى سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه، ومحمد ﷺ ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن. ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، فرباط المسلم برسوله الكريم ﷺ أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير

فى الإبانة عن تعلقهم به إلا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال، ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام، فقد افتتنوا فى اختلاق صور أخرى، ولا عليهم، فهى لم تكفهم جهدًا ينكصون عنه، إن الجهد الذى يتطلب العزمات هو فى الاستمساك باللباب المهجور، والعودة إلى جوهر الدين ذاته، فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه، حتى يكون قريبًا من سنن محمد ﷺ فى معاشه ومعاده، وحربه وسلمه، وعلمه وعمله وعاداته وعباداته، إن المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره، ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره، لا يغنى عنه أبدًا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة، وأريد هنا أن أنوه إلى ضرورة الفصل بين الجد والهزل فى حياتنا، ولا بأس أن نجعل للهو واللعب وقتًا لا يعدوه، وللجد والإنتاج وقتًا لا يقصر عنه، أما تحويل الإسلام إلى غناء، فيصبح القرآن ألحانًا عذبة، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح، فهذا ما لا مساغ له وما لا يقبله إلا الصغار الغافلون، وقد تم هذا التحويل على حساب الإسلام، فانسحب الدين من ميدان السلوك، والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب، وحق فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب، يستمع إليها عشاق الطرب، هو الذى جعل اليهود والنصارى يذيعونه فى الآفاق وهم واثقون أنه لن يحيى موتًا، وتحول السيرة إلى قصص وقصائد غزل! وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها كذلك ضربًا من الخلل النفسى الناشئ - فى نظرى - من اضطراب الغرائز وفساد المجتمع، وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب، فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيب طلبوه من مصادره المصفاة، قرآنًا يأمر وينهى، ليفعل أمره ويترك نهيه، وسنة تفصل وتوضح، ليسار فى هديها وينتفع من حكمتها، وسيرة تنفح روادها بالأدب الزكى، والقواعد الحصيفة، والسياسة الراشدة، وذلك هو الإسلام.

إن أعداء الإسلام تمكنوا فى غفلة أهله أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضًا، فكيف يترك تراث محمد نهبًا للعوادى، وكيف يمهد للجاهلية الأولى أن تعود، وكيف يقع هذا التبدل الخطير فى سكون، بل فى مظهر من الحب لرسول الله ﷺ؟ ليفقه المسلمون سيرة رسولهم، وهيهات أن يتم ذلك إلا بالفقه فى الرسالة نفسها، والإدراك الحق لحياة صاحبها، والالتزام الدقيق لما جاء به، ألا ما أرخص الحب

إذا كان كلامًا، وأغلاه عندما يكون قدوة وزمامًا، والظلام الذى ران على الأفئدة والعقول فى غيبة أنوار التوحيد طوى فى سواده أيضًا تقاليد الجماعة، وأنظمة الحكم، فكانت الأرض مذأبة يسودها الفتك والاغتيال، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة، وأى خير يرجى فى أحضان وثنية كفرت بالعقل، ونسيت الله، ولانت فى أيدى الدجالين، لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء فى الحديث: «إن **الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»، هذه البقايا هى التى ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذى طم البقاع والتلاع، لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد ﷺ حيرة وبؤس، ناءت بهما الكواهل.

أتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بِهِمْ
إلا علَى صنمٍ قد هام فى صنمِ
فعاهلُ الروم يَطْغَى فى رعيّتِه
وعاهلُ الفُرسِ مِن كِبْرٍ أصمُّ عَمِي

حتى تأذّن الله ليَحْسُنَّ هذه الآثام، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام، فأرسل إلى الأمة محمدًا عليه الصلاة والسلام.

الوثنيــة تســود الحضــارات

إن تاريخ الحياة مؤسف.. منذ هبط آدم - عليه السلام - وبنوه إلى الأرض، ثم بعد أن شب بهم الزمن، واطرد العمران، وتشعبت الحضارات، وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون، لا تستقيم بهم السبل يومًا إلا شردت أيامًا، ولا يشيمون بوارق الحق حينًا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانًا.

ولو تقصينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه - لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه، أو بمحموم غاب عنه رشده فهو يهذى ولا يدرى.

وقد كان فى تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزع عن الشر ويرد إلى الخير، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة.

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد ﷺ؟ لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علمًا كثيرًا، ووعت تجارب خطيرة، ونمت آداب وفنون، وشاعت فلسفات وأفكار.

ومع ذلك فقد غلب الطيش، واستحكم، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها، فماذا كان مصير الحضارات فى مصر واليونان، وفى الهند والصين، وفى فارس وروما؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم، بل من ناحية العاطفة والعقل.

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها، وفرضت عليها السقوط فى هذه الوهدة الزرية، فأمسى الإنسان الذى استخلفه الله ليكون ملكًا فى السماوات والأرض أمسى عبدًا مسخرًا لأدنى شىء فى السماوات والأرض، وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار، وتعبد الأخشاب والأحجار وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة؟

إن الوثنية هوان يأتى من داخل النفس لا من خارج الحياة، فكما يفرض المحزون كآبته على من حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحًا



جاثمة، كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى يحيا فيها، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء.

ويوم ينفسح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة، فإن هذه الانعكاسات الوثنية، تنزاح من تلقاء نفسها.

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه، فلو ذبحت العجول المقدسة، ونكست الأصنام المرموقة، وبقيت النفس على ظلامها القديم، ما أجدى ذلك شيئًا فى حرب الوثنية، سيبحث العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا، يفدون إليها من جديد، وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفوا حول نصب! وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق، وربه الأعلىٰ، والجرى وراء وَهْمٍ بعيد.

والخرافة لا تأخذ مجراها فى الحياة وهى تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها، كلا، إنها تدارى مجونها بثوب الجد، وتستعير من الحق لبوسه المقبول، وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين.. وكذلك فعلت الوثنية، لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع، بل كما تغير الديدان وأسراب الجراد على الحدائق الغناء، فتحيلها قاعًا بلقعًا.. وهى إذ أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت، ولئن كان ما أخذته خيرًا قبل أن تتصل به، لقد أصبح شرًّا بعدما تحول فى جوفها إلى سموم، وهذا هو السر فى أن الوثنية التى لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغى مرضاته.. جزء من الحق، فى أجزاء من الباطل فى سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله، ويبعدهم عن ساحته.

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروع رد نهارها ليلاً، وسلامها ويلاً، وجعل الوحدة شركة، وانتكس بالإنسان، فعلق همته بالقرابين، وفكره بالألغاز المعماة.

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعدما أفلحت الوثنية الأولى فى إقحامها إقحامًا على النصرانية الجديدة، وبذلك انتصرت الوثنية مرتين، الأولى فى تدعيم نفسها، والأخرى فى تضليل غيرها، فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى - عليه السلام - كانت منارات الهدى قد انطفأت فى مشارق الأرض ومغاربها، وكذلك الشيطان يذرع الأقطار الفسيحة، فيرى ما غرس من أشواك قد

نما وامتد.. فالمجوسية فى فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشى فى الهند والصين، وبلاد العرب وسائل المجاهيل.. والنصرانية التى تناوئ هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهند والمصريين القدامى، فهى تجعل لله صاحبة وولدًا، وتغرى أتباعها فى روما ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان.

شرك مشوب بتوحيد يحارب شركًا محضًا.. ولكن ما قيمة هذه النقائض التى جمعت النصرانية بين شتاتها: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هى التى حملت هذه الأحزاب على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق، وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام، ومن أهل الكتاب فى آن، ووصاها أن تتذرع بالصبر أمام هذا التحامل:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ صدق الله العظيم.

يهـوديـــة وصهيـونيـــة

سمعته يقول: اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر، اليهودية دين سماوى كالنصرانية والإسلام، أما الصهيونية فنزعة سياسية متطرفة استغلها الاستعمار الغربى لبلوغ مآربه.

اليهودية دين قديم له مصادره المقدسة، أما الصهيونية فحركة حديثة ولدت فى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وغذتها ونمتها ظروف عنصرية ودولية طارئة.

قلت له: تعنى أن اليهودية لا أطماع لها فى فلسطين، وأنها لم تبيت عدوانًا على العرب الآمنين، وأن التوراة والتلمود وسائر الأسفار المقدسة بريئة مما تفعله دولة إسرائيل، وأن الحرب المعلنة علينا من خمسين سنة ليست دينية؟

قال: نعم هذا بدقة ما أريد أن أذكره.

قلت: أو لو قرأت عليك من نصوص الكتب المقدسة ما يدحض هذه الأوهام؟

قال: كيف؟ يستحيل أن تتضمن هذه الكتب استباحة أرضنا وجنسنا، والاستهانة بحقوقنا المؤكدة؟

قلت: بل سأقرأ عليك من الكتب المقدسة المتداولة بين أيدى القوم ما يزيح هذه الغشاوة عن الأعين، وما يشرح أن فلسطين كانت ملكًا لبنى إسرائيل خاصًا بهم، وأنهم أخذوا عنها عقابًا إلهيًا للآثام التى ارتكبوها، وأن الإله الذى عاقبهم تجاوز بَعْدُ عن سيئاتهم، وقرر إعادتهم إلى أرضهم الأولى؛ كى تفيض عليهم سمنًا وعسلاً وخمرًا، وأن هذا الإله ندم على ما فعل بشعبه المختار، ورد إليه مجده، ووطنه؛ كى تتوطد سلطته وسيادته على أنقاض غيره من الأمم.

هكذا تقول صحائف التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم التى يتعبد اليهود فى المشرق والمغرب بتلاوتها، والتى يستوحون منها سياستهم فى القديم والحديث على سواء.

وعلى ضوء هذه السطور المقدسة، بل على نارها المحرقة أكلت حقوق العرب، وتواصى الأوروبيون والأمريكيون باجتياحها.

ثم جاء اليهود فى الوقت المناسب ليتسلموا أرض الميعاد التى حدثتهم كتبهم عنها، وباشروا حرب الإبادة التى لابد منها ليسود جنسهم، وتقوم مملكتهم.

وقد كانوا فى إقبالهم من شتى القارات إلى فلسطين معبئين بشعور دينى عارم تعمل من ورائه هذه النصوص، كما أنهم فى بنائهم دولة إسرائيل ومقاتلتهم العرب أصحاب الأرض، كانوا مفعمين بهذه العاطفة الدينية المرتكزة على كلمات التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم.

قال الرجل: أين هى تلك النصوص التى تشير إليها؟

نحن نجزم بأن الله لعن بنى إسرائيل لعصيانهم وعدوانهم، ونستفيد هذه الحقيقة من كتابنا الوثيق قبل استفادتها من أى شىء آخر، فهل تغير من خلائق اليهود ما استحقوا من أجله اللعنة؟ لقد مرت آلاف السنين على هذا الشعب المطارد، قاتل الأنبياء، المتمرد على وحى السماء، وبعث الله عيسى - عليه السلام - إليهم فكذبوه وحاولوا قتله، وبعث إليهم محمدًا ﷺ من بعده فكذبوه وحاولوا قتله، وتتابعت الأعصار وهم حيث حلوا فى أرض الله نماذج للأثرة والقسوة وأكل الربا وإشاعة الخنا.

بيد أن كاتب العهد القديم وعد اليهود بأنهم سيعودون إلى فلسطين التى نفوا منها، وتوارث القوم هذا الأمل، وأحسوا كأن هذا القطر إرث لابد أن يؤول إليهم، وأن غيرهم طارئ عليه يجب أن يزول، وعلى هذا الأساس عومل العرب، وعولج وجودهم التاريخى والدينى.

ولنقرأ هذه الكلمات من العهد القديم: «برائحة سروركم أرضى عنكم، حين أخرجكم من بين الشعوب، وأجمعكم من الأراضى التى تفرقتم فيها، وأتقدس فيكم أمام عيون الأمم، فتعلمون أنى أنا الرب حين آتى بكم أرض فلسطين، إلى الأرض التى رفعت يدى لأعطى آباءكم إياها» (٤١ - ٤٢ من الإصحاح العشرين، حزقيال).

أى نشوة دينية عارمة تغمر اليهود وهم قادمون من كل فج وصوب إلى أرض فلسطين؟ وهذا النص الدينى يسوقهم!

إن اليهود لم يحدثوا توبة يستحقون بها الرحمة العليا، فهم تائهون عن الحق فى مجال الاعتقاد والعمل، وهم وراء أزمات الإيمان والأخلاق التى تزلزل الكيان البشرى، وتهددهم بالدمار الشامل.

وعودتهم الجزئية إلى فلسطين ترجع أولاً إلى طبيعة الجبهة المناوئة لهم، أو إلى أصول الأمة التى ورثت الدعوة من بعدهم.

إن العرب تخلوا عن قيادة الدعوة العالمية للإسلام.

بل تجردوا من جملة فضائله وعزائمه.

بل تسلمت السلطة فى بعض أقطارهم حكومات ترفض الإسلام دولة وتكرهه نظامًا.

فى هذا الليل المعتكر من الفتن المتلاحقة قد يأذن الله لليهود بعودة لا قرار لها، لأن اليهود لا يحملون بذور رسالة إنسانية صالحة، ولأن حملة الرسالة الإسلامية الباقية سوف يستفيقون من غفلتهم أو يتغلبون على هزائمهم، ويستأنفون مقاتلة اليهود حتى يجهزوا عليهم.

أليس من تعاجيب الليالى أن تتخلى الأمة العربية عن الإسلام؟! عن الحق الذى رفع الله به قدرها؟! وتزعم وسائل الإعلام فيها أن قضية فلسطين ليست إسلامية، وذلك فى الوقت الذى يتشبث اليهود فيه بتوراتهم ويعدون فيه فلسطين قسمة إلهية لهم؟!

بـــل حـــربًا دينيـــة

حاخامات اليهود مزجوا فى حياة المجتمع اليهودى بين أمرين متناقضين: أولهما: الحرص على مخاصمة الرسالات السماوية الصادقة، ومجافاة أهدافها الإنسانية الرفيعة، والآخر: التشبث بالانتساب إلى أسرة الدعوة الإلهية، والزعم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، ويتبع ذلك بداهة أملهم فى عودة مجدهم القديم ومملكتهم الأولى.

والحاخامات الذين كتبوا العهد القديم من عند أنفسهم نضحت آمالهم على ما دونوا، فكانت هذه البشائر التى تسلى بها اليهود دهرًا، ثم حولوها فى هذا العصر إلى أمر واقع، ونحن لا نستغرب الانتصار المبدئى الذى أحرزه اليهود، ولكنا نقول: إنه لم يتم لخير فيهم بل لشر فى غيرهم.

إن رجالهم ونساءهم وشيبهم وشبابهم جاءوا رافعين عقائرهم بنداء التوراة، ملتفين حول إيمان زائف، على حين كان العرب المثقفون يستحون من الانتساب للقرآن، وينسحبون من مواطن التدين الحقيقى، فترادفت النكبات والنكسات وكان ما ندى له جبين الحر!

وضاعف من هزائم العرب أن الحقد الصليبى الذى لم تخب جذوته يومًا كان يشد أزر المعتدى، ويعينه إذا ضعف، ويسدد رميته إذا طاشت.

ولو أن اليهود وحدهم كانوا فى المعركة لكانت فلول العرب على ما بها من تمزق مادى ومعنوى قديرة على كسر إخوان القردة، إلا أن العرب ووجهوا بالعبء مضاعفًا، لقدر شاءه الله، فكان ما كان، وما دمنا فى سياق البشارات الدينية والوعود الإلهية، فإن لدينا فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكمل آمال اليهود فى أرض الميعاد.

إنهم سيعودون فعلاً، ولكن ليفنوا لا ليحيوا، ولتنتهى رسالتهم فى هذه الدنيا لا لتتجدد، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين واليهود، فيقتل المسلمون اليهود، حتى إذا اختفى اليهودى خلف حجر نادى الحجر: يا مسلم، هذا يهودى تعال فاقتله.

أجل.. إن اليهود سيتجمعون بعد شتات، ولكن ليتحقق فيهم قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

على أن ما يبيته القدر لبنى إسرائيل من بلاء ماحق لن يوقعه بهم العرب - من حيث هم عرب - ولكن يوقعه بهم العرب بعدما يعودون إلى الإسلام ظاهرًا وباطنًا، ويُعرفون به حكومات وشعوبًا، ويكون النداء المعهود المتداول: يا مسلم هذا يهودى تعال فاقتله.

نعم، يا مسلم، لا أى نداء آخر.

إن حرب الإبادة قد وضعت خطتها لإفناء الجنس العربى وإحلال بنى إسرائيل مكانه، والحقيقة أن الإسلام بالنسبة للعرب ليس فقط الهداية العليا لعباد الله، ولكنه طوق النجاة العاصم من الغرق بالنسبة إلى هؤلاء العرب، والخيط الباقى ليظلوا على قيد الحياة إن أرادوا الحياة.

فهم - رضوا أم سخطوا - يواجهون حربًا دينية تشنها مشاعر مخلوطة بشغاف القلوب، وليس كما يحكى لهم الكذبة يواجهون حربًا استعمارية عادية.

وأريد - بوصفى إنسانًا مسلمًا - أن أذكر رأيى فى الحروب الدينية، إنها صورة بشعة أن يقتل امرؤ آخر ليجعل من دمه طريقًا إلى الجنة، إنها صورة بشعة أن أقول لآخر: اعتقد ما أقول، وإلا افترستك وأنا أشعر بلذة الولوغ فى دمك!

إن الإسلام عدو مبين لهذا النوع من الحروب، بل إن رسالة محمد كانت القاضية على كل قتال من هذا اللون القاسى.

فهل كذلك فكر واضعو هذا العهد القديم؟ يستطيع أى قارئ أن يطالع فى الأسفار المقدسة (أوامر الله) باستئصال الأعداء رجالاً ونساءً وأطفالاً، واستئصال ما يملكون من حيوان ونبات، ونشر الخراب فوق كل شبر من أرض لأعداء إسرائيل.

وعندما كنت أقرأ أخبار القرى العربية التى اختفت من الوجود، والبيوت التى دمرت بعدما فر أصحابها مروعين، كنت أعلم أن اليهود إنما نفذوا أحكام التوراة فيما يزعمون.

وأن واضعى هذه الأسفار كانوا جزارين فى ثياب متدينين، وكان ضحاياهم فى هذا العصر الأشأم من العرب المسلمين.

وقد قام اليهود بمذبحة «دير ياسين» وغيرها من المجازر استجابة دينية حرفية للتعاليم التى يتدارسونها ويتوارثونها.

وهى تعاليم ـ فيما نرى نحن المسلمين ـ مبتوتة الصلة بأنبياء الله، وإن زعمها هؤلاء وحيًا من السماء.

صلـــح مــع اللـــــه

إن سخط الله على بنى إسرائيل لم تنقص أسبابه، ولعلها لن تنقضى أبدًا ماداموا على طبائع الملعونين من أسلافهم: قسوة فؤاد، وشره نفس، وأكل سحت، وفساد معتقد، وبغيًا فى الأرض، واستطالة على الخلق.. وإذا كان الله قد ضرب بهم بعض الشعوب التى فرطت فى جنبه؛ فليس ذلك رضى، ولا تقريبًا بعد إبعاد، فإن الهيكل الأول هدمه الوثنيون، وقد تسلط على بنى إسرائيل قديمًا من هم شر منهم، ومسلمو اليوم يتعرضون لبلاء طويل بغير شك، ومن يدرى؟ قد يكون ذلك باعثًا لهم على صلح مع الله وعودة إلى الإسلام الذى هجروه، وعندئذ تكون هذه المحنة منحة، وتكون الضارة النافعة، ومهما ساءت الأمور؛ فإن حلم إسرائيل بحكم العالم من أورشليم لن يتحقق، فإن الحجب بدأت تتمزق عن آثار اليهود الرهيبة فى أرجاء الأرض، خصوصًا وسط العالم المسيحى.

إن سلطة الكنائس المسيحية على الضمير والسلوك فى أوربا وأمريكا اسمية للأسف، وقد تمكن بنو إسرائيل بوسائلهم الجلية والخفية من نشر الفتن الجنسية والعنصرية والفلسفات المادية والإلحادية فى جنبات القارتين الكبيرتين، فهل هذه رسالة السماء التى حملها أنبياء بنى إسرائيل قديمًا ويريد ذراريهم بها أن يكونوا شعب الله المختار؟!

فى محاضرة للدكتور أحمد خليفة وزير الأوقاف الأسبق سمعت منه أن اليهود يسيطرون على الولايات المتحدة سيطرة كاملة وعلى أوروبا الغربية سيطرة شبه كاملة، وأن الميادين التى أحكموا قبضتهم عليها هى: المصارف المالية والجامعات الكبرى ووسائل الإعلام، ومن يضع قبضته على هذه الثلاث ضمن أن يصوغ الفكر كما شاء، وأن ينشر ما يرضيه ويحجب ما يرفضه، وأن يبسط يديه حيث تجدى النفقة، ويمسك متى أراد.

قال: ومن يتابع تاريخ الفكر البشرى ويتعرف دور اليهود فيه يتبين أنهم يصطنعون الفلسفات التى تحطم كل المقدسات، وتحطم احترام الإنسان لنفسه، وتحرمه من الإيمان وسكينة النفس، واليهودية العالمية تعلم أن الشباب هو مستقبل الأمم وعتادها وذخرها، إذن لابد أن يفسد الشباب، وتختل أمامه الموازين،

وتضطرب القيم، ومن هنا سيطروا على أسواق الخمر والقمار والمخدرات، كما أن باعهم طويل فى عالم الخلاعة والتهتك، والذى يزور السجون والإصلاحيات فى الولايات المتحدة يجد نزلاءها الملونين المسيحيين، ولا يجد بها يهوديًا!

إنهم يقودون حملة التخريب والإفساد مع الاحتفاظ بكيانهم وتماسكهم.

قال المحاضر: إنك فى أمريكا تقرأ ما يريد اليهود لك أن تقرأه، وتفتح الراديو لتسمع ما يريد اليهود أن يذاع، وتفتح التليفزيون لترى ما يريد اليهود أن ترى، ويذهب الأبناء إلى الجامعة لتعبأ عقولهم بما يريد اليهود أن يتعلموه، وفى كل أسبوع تقبض المرتبات من خزائن اليهود، هذا هو الأخطبوط الذى يسيطر على الغرب، هذه هى الطفيليات التى تمتص دماء العالم.

نقول: وهذه هى وظيفة شعب الله المختار التى يبلغ بها رسالة السماء إلى الأرض، ويعلم البشر الصلاة والزكاة والتقوى والأدب، ويذكرهم بيوم الحساب وما وراءه من خلود طويل، إن اليهودى ذكى كالشيطان، وله أن يزعم ما يشاء إلا أنه صاحب دين يهدى إلى البر والرشد، ويستحق من أجله ميراث الأقطار والأجناس، ومن هنا فإن مصير اليهودية العالمية إلى بوار، لكن متى؟ عندما يثوب المسلمون إلى رشدهم، ويعودون إلى رسالتهم، ويتركون الترهات التى لعبت بزمامهم وأضلت سعيهم، وذلك يحتاج منا إلى همسات وصرخات، والمؤسف أن وسائل الإعلام فى الأمة العربية حريصة أشد الحرص على أن تفرق بين اليهودية والصهيونية، وعلى أن تجعل القارئ أو المستمع العربى يقصى الدين إقصاءً عن الصراع الدائر اليوم على اغتصاب فلسطين وما حولها، وقد رأيت - من النصوص التى سقناها - ضلال هذا المسلك، وبعده عن التاريخ والواقع، وتخيله لوسائل الدفاع التى ينبغى توفيرها فى وجه هجوم دينى حاقد.

إن الصهيونية ليست وليدة بحث اليهود عن وطن لهم بعدما أحسوا وحشة الغربة فى أرض الله الواسعة، كلا، فقد وسعتهم بلدان شتى، وعاشوا فيها جزءًا من أبنائها الأصلاء، ووصلوا إلى درجة فاحشة من الثراء، ومناصب كبيرة فى الحكم، ولكنهم رجحوا نداء دينهم على علاقاتهم بأوطانهم، وآثروا التجاوب مع توراتهم وتلمودهم على الذوبان فى الوطنية الأمريكية أو الألمانية أو الروسية أو المصرية أو العراقية.

سيرتهم فى مختلف القارات واحدة، ونزوعهم إلى خدمة عنصرهم، وحسبهم دينهم فى كل مكان وزمان.

إقصـــاء متـعـمـد

عندما يبحث عاقل عن سر هزائم العرب من اليهود فى العصر الحاضر يجد الإجابة فى هذا التفاوت الهائل فى الروح المحركة لكلا الفريقين، إن نصوص التوراة لم يكتبها «موشى ديان» فى هذا القرن، ولم يكتبها «هرتزل» فى القرن الماضى، ولم تتمخض عنها مؤتمرات الصهيونية المنعقدة فى سويسرا أو فى فرنسا، إنها - عند ذويها - آيات وحى يتلى، ومعالم دين يتبع، وليس اليهود وحدهم الذين يؤمنون بهذه الوعود السماوية لبنى إسرائيل، بل كثير من النصارى الذين يجعلون إصحاحات العهد القديم أجزاء من الكتاب المقدس، خصوصًا الكنائس الإنجيلية «البروتستانت» الذين يمثلون أكثر شعوب إنجلترا والولايات المتحدة، ولكن عصابة من الكتاب العرب أخذت على عاتقها تغطية هذه الحقائق الدينية، والزعم بأن «إسرائيل» تمثل الصهيونية ولا تمثل اليهودية، وأن الدين لا علاقة له بهذه الحرب الناشبة لإبادة العرب وتهويد فلسطين، أهو الجهل الأعمى؟ ربما، ومن البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره، أهو الإقصاء المتعمد لدور الإسلام فى المعركة؟ ذلكم أغلب الظن، بل هو جملة اليقين، وعمل أولئك الكتاب هو تسميم الفكر العربى حتى يدخل العرب معركتهم الحاسمة بلا روح، أى بلا إيمان دينى واضح دافع.

ونعود إلى كلمات العهد القديم التى دونا بعضها هنا، فنقرأ عن أرض الميعاد لا كما يتحدث كتاب الصهيونية، بل كما يتحدث العهد القديم نفسه، لنقرأ هذا النص الطويل:

«لذلك فقل لبيت إسرائيل - هكذا قال السيد الرب - ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل، بل لأجل اسمى القدوس الذى نجستموه فى الأمم حيث جئتم، فأقدس اسمى العظيم المنجس فى الأمم والذى نجستموه فى وسطهم، فتعلم الأمم أنى أنا الرب.

يقول السيد الرب: حين أتقدس فيكم قدام أعينهم، وآخذكم من بين الأمم، وأجمعكم من جميع الأراضى، وآتى بكم إلى أرضكم، وأرش عليكم ماء طاهرًا فتطهرون من كل نجاساتكم، من كل أصنامكم، أطهركم، وأعطيكم قلبًا جديدًا،

وأجعل روحًا جديدة فى داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم، وأجعل روحى فى داخلكم، وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى وتعملون بها، وتسكنون الأرض التى أعطيت آباءكم إياها، وتكونون لى شعبًا، وأنا أكون لكم إلهًا، وأخلصكم من كل نجاساتكم.

وأدعو الحنطة وأُكْثِرُها ولا أضع عليكم جوعًا، وأُكْثِر ثمر الشجر وغلة الحقل لكيلا تنالوا بعد عار الجوع بين الأمم، فتذكرون طرقكم الرديئة وأعمالكم غير الصالحة، وتمقتون أنفسكم أمام وجوهكم من أجل آثامكم وعلى رجاساتكم، لا من أجلكم أنا صانع - يقول السيد الرب - فليكن معلومًا لكم، فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا بيت إسرائيل - هكذا يقول السيد الرب».

(٢٢ - ٣٨ الإصحاح السادس والثلاثون، حزقيال)

ونختم بهذا النص:

هكذا قال رب الجنود: هأنذا أخلص شعبى من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس، وآتى بهم فيسكنون فى وسط أورشليم، ويكونون له شعبًا وأنا أكون لهم إلهًا بالحق والبر» (الأصحاح الثامن، زكريا).

إن موسى - عليه السلام - لا صلة له بهذه الوعود، وتوراته لم تتضمن إشارة ولا عبارة عن عودة اليهود إلى فلسطين، ثم إن احتلال أى بقعة من الأرض لا يعطى المحتل الحق الأبدى فى امتلاكها، وبنو إسرائيل دخلوا فلسطين محتلين، ومكثوا بها أقل مدة مكثها جنس آخر عمر هذه الأرض، فوجودهم التاريخى بها لا يمنحهم أى حق للبقاء فيها أو العودة إليها، نعم، نحن نؤمن أن أسرة يعقوب حملت راية الدعوة إلى الله، وتنقلت بها بين وادى النيل وربوع فلسطين، لكن أولاد يعقوب نكّسوا هذه الراية فيما بعد، وتنكبت كثرتهم سبيل الحق، وجارت على الوحى ورسله، فعزلهم الله إلى الأبد عن هذا المنصب، وآثر به أمة أخرى كانت فيها الرسالة الخاتمة، تلك أمة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

العمـــل الحقيقـى

أفلح الاستعمار فى خلق جيل يستحى من الانتماء لدينه، ويرفض العمل تحت لوائه، وهذا الجيل الذى صنعه الغزو الثقافى هو الطابور الأول لا الطابور الخامس الذى ألحق بنا الهزائم، ونكس رءوسنا فى كل ميدان.

وأعرف أن هناك من يعترض تفكيرى هذا ويستنكره، إنه الصنف المسكين الذى تخرج وفق البرامج الدراسية التى خلفها الاستعمار فى بلادنا.

قال لى أحد هؤلاء: تريد حربًا دينية؟ إن هذا اللون من الحرب انتهى مع العصور الوسطى، سيروا مع الزمن واطلبوا حربًا تحريرية معقولة.

وقلت لمحدثى: إننى لا أطلب حربًا دينية، إنه قد فرضت علىّ حرب دينية أتسمع؟ إن الدولة التى تسمت باسم نبى قديم وألغت كل القوميات الحديثة، وصهرت يهود اليمن مع يهود نيويورك فى أخوة دينية شاملة، وألهبت المشاعر الدينية عند النصارى المؤمنين بالعهد القديم، وحركت ذكرياتهم الصليبية الدفينة؛ ليهجموا على المسلمين معها، هذه الدولة تعلن علينا أى نوع من الحروب أيها الإنسان الذكى؟ حرب أكل وشرب؟ حرب رياضة وتسلية؟ حرب مجد شخصى لملك مغرور؟ إنها حرب دينية فرضت علينا وما بد من أن نواجهها راضين أو كارهين، وإقصاء الدين - وهو فى جبهتنا الإسلام - معناه هلاك الأبد.

فقال لى: لكن الحرب الدينية عنوان مثير، وهو يجر علينا متاعب لا نستطيعها.

فقلت له: إن الحرب الدينية عنوان كريه بالمفهوم الذى تعارف عليه الغربيون؛ لأن هذه الحرب فى تفكيرهم وفى تاريخهم كانت تشن لفتنة ناس عن معتقداتهم بقوة السلاح، أو لتغليب مذهب على آخر وإدخال الناس فيه كرهًا، وهذا المفهوم السيئ للحروب الدينية لانعرفه فى ماضينا ولا فى حاضرنا، ومع هذا كله فلماذا يوصف دفاعنا عن ديننا وأرضنا وتاريخنا ومقدساتنا بأنه حرب دينية رجعية؟ ولماذا سكتت أبواق الدعاية الغربية والشرقية عن هجوم إسرائيل علينا، ووجهها الدينى ليس موضع جدال؟ هل يباح لليهودية أن تعلن حربًا دينية علينا، ولا يباح للإسلام ذلك؟ وهو يدافع وهى تهجم؟ أم أن القضاء على الإسلام هدف مشروع؟ وصياح أهله وهم يدفعون عنه عمل مستهجن؟

ومن هنا يبدأ العمل الحقيقى للدعاة المسلمين، من هذا الخط تبدأ الجهود المضنية لإنقاذ أمة أمكن أعداؤها أن يوجهوها ضد نفسها ورسالتها، من هذا الخط ينبغى أن تبدأ حركة إحياء مستوعبة مستغرقة تصل حاضرنا بماضينا، وتعرفنا من نحن؟ وما وظيفتنا فى الدنيا؟ وماذا يراد بنا؟ وماذا يراد منا؟ إن العمل بالإسلام ليس كفالة لآخرتنا فقط، بل هو ضمانة حياتنا الآن، وإنها لحماقة كبرى أن نجهل رسالتنا التى اصطفانا الله لأدائها، فنفقد مكانتنا الأدبية والمادية، ونخسر الأولى والآخرة جميعًا، ماذا يعنى قيام إسرائيل على أنقاضنا؟ يقول المؤرخ الإنجليزى «ويلز»: إن اليهود اتخذوا الرب كنزًا وادخروه لجنسهم.

واليهود الذين فعلوا ذلك من عشرات القرون لم يتغير فسادهم النفسى ولا غرورهم الجنسى، لقد كذبوا عيسى ومحمدًا - ومازالوا يكذبونهما - لأنهما حاولا إصلاح هذا الفساد وقمع ذلك الغرور.

واستئناف اليهود أداء رسالتهم الأولى يعنى توطيد أركان الربا، والخنا، والتفرقة العنصرية، واستغلال الشعب، كما يعنى تقطيع حبال الإنسانية مع الله، ونسيان اليوم الآخر، وإهمال الجوانب الروحية.

وذلك بداهة غير الإتيان على الرسالة الإسلامية من القواعد وتمزيق الشعب العربى كل ممزق.

ونحن - شئنا أم أبينا - سندخل مع اليهود فى حرب بقاء أو فناء، فإما انتصرنا عليهم وإما أتم أبناؤنا ما عجزنا عنه.

فإن نجح أبناؤنا فبها ونعمت، وإلا فعلى الأحفاد استئناف النضال إلى آخر الدهر.

ومع استعار هذه الحرب إلى ما شاء الله نريد أن نقول للمسلمين كلامًا طويلاً منه حقيقة رسالتهم، وسر نكبتهم.

وهو كلام يعيدهم إلى الصراط المستقيم، ويقربهم من يوم النصر، ويشرح لهم سنن الله التى تنطبق عليهم وعلى غيرهم.

فإنه من المستحيل أن يرعانا الله إذا استبطنًا نحن المسلمين خلائق اليهود الأقدمين الذين مسخهم الله بمعاصيهم قردة وخنازير.

يستحيل أن يفعل الله هذا، والذى سيقع أن يلتقى اليهود بأشباههم ثم تعمل القوانين الطبيعية عملها، فينتصر الأذكى على الأغبى، والأدهى على الأجهل، وذاك ما كان.

صـــراع بـين رسـالتـين

كان بنو إسرائيل أول أمرهم ممثلين لعقيدة التوحيد وسط شعوب قلما تعرف حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.

والانفراد بعقيدة صحيحة بين أمم ضالة يتطلب غير قليل من العناء والمصابرة، فقد يسأم الإنسان تكاليف الغربة الروحية، وقد يبتلى بمن يضيق به وبعقيدته ويحاول فتنته عنها.

ومن هنا رأينا يعقوب يجمع أبناءه قبيل موته، ويريد أن يطمئن على مسيرتهم بعد أن يغادر الحياة، ترى أيظلون على الإيمان الذى شرفوا به، أم يتبعون غيرهم على الشرك والفساد؟

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

وكلمة الإسلام قديمًا وحديثًا هى العنوان الفذ للدين الأثير عند الله، بما يتضمنه هذا الدين من توحيد للخالق، واستقامة على أمره، وإنفاذ لوصاياه وإقامة لأحكامه.

وقد كان يوسف الصديق - عليه السلام - أشرف رجال هذه الأسرة، وأصلح أولاد يعقوب - عليه السلام - وأرعاهم لتعاليم أبيه فى حياته وبعد مماته.

وكان يقدر نعمة الاختيار الإلهى لبيت يعقوب كى يحرس التوحيد ويرفع لواءه.

ولذلك رأيناه فى السجن ينتهز الفرص فيدعو المسجونين إلى الله، وينفرهم من الوثنية، ويشرح لهم معالم الإيمان الحق.

وكان السجناء قد لحظوا قدرته على استنباط الغيوب من خلال تعبير الرؤيا، فقال لهم يوسف - عليه السلام -: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ويوسف ـ عليه السلام ـ بهذه الكلمات ينوه بمكانة أسرته، ووظيفتها الرفيعة في قيادة الناس إلى الله الواحد، ونبذ الوثنية السائدة على عهده.

ولذلك يتابع نصحه لرفقاء السجن قائلاً: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ومن الإنصاف أن نقول: إن أبناء يعقوب في تاريخهم المتقدم وفوا بعهدهم لأبيهم، وقاوموا أمواج الوثنية التي حاولت أن تجرفهم، ولعلهم تحملوا في ذلك آلامًا رهيبة.

وأي آلام أبشع من تذبيح الأبناء واستحياء النساء؟! لكنهم مع تلك المحن لم يفقدوا شخصيتهم، ولم يذوبوا في غيرهم، ولم ينسوا أصل رسالتهم.

وفي ذلك يقول الله في القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

لكن بني إسرائيل مع سير الزمان واختلاف الليل والنهار أخذوا يبددون أمجادهم، ويغاضبون ربهم، ويتنكرون لمواريثهم، ولم ينشأ هذا الانحراف من غلبة عدو عليهم وتأثيره فيهم، بل نشأ من اغترارهم بالله، وجرأتهم عليه، وابتذالهم لنعمه، وأضحوا كالولد المدلل لا ينتظر منه أدب، ولا تثمر في تقويمه عظة.

وتطرق هذا العوج إلى المبادئ التي اختيروا لإعلاء منارها وتمهيد سبلها؛ فإذا هم يخلطون التوحيد بالشرك، ويذهلون ذهولاً مطلقًا عن اليوم الآخر، ويرتكبون المعاصي دون حذر، وينسون قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينطلقون على ظهر الأرض ما تسيرهم إلا غرائزهم الدنيا مقترنة بدعاوى عريضة ومزاعم مكذوبة.

فكانوا بهذا المسلك الجديد شرًّا من الأمم التي كلفوا قديمًا بتعليمها وتأديبها وفضلوا تفضيلاً عليها!

حقــــد يهــــودى صليبــى

اليهود الذين كذبوا عيسى - عليه السلام - منذ عشرين قرنًا، وكذبوا بعده محمدًا ﷺ مضوا فى الطريق التى اختطوها لأنفسهم، وعاشوا فى حدود ما لديهم من تعاليم وما توارثوا من تقاليد، وتحملوا غضب الله عليهم بجلادة تثير الدهشة، إنهم على امتداد الزمان والمكان لم يتخلوا عن رأيهم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار، ولقد تقاذفتهم الأقطار والفلوات، فما نسى بعضهم بعضًا، ولا تلاشوا فى الأمم التى ضاقت بهم ونظرت إليهم شزرًا، ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود قتلة عيسى - عليه السلام - وسبب بلائه، فإن الأمم النصرانية تقربت إلى الله بإذلال اليهود حيث كانوا، واستباحة دمائهم لأتفه التهم، حتى قيل: لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية من على ظهر الأرض! ولم يتورع شعب مسيحى فى طول أوروبا وعرضها عن إلحاق الأذى باليهود جهد ما يستطيع.

ومع هذا كله فإن اليهود شقوا مستقبلهم وسط هذه الصعاب، موقنين أنهم شعب الله المختار، ومؤملين فى مستقبل أفضل، مستقبل يفرضون فيه مشيئتهم على العالم، وتتوج السلطة العليا فيه رأس إسرائيل.

واستطاع علماء اليهود وأغنياؤهم أن يملأوا ثغرات واسعة فى علاقة المسيحية بأتباعها، وأن يكملوا قصورها فى تغطية حاجات الخاصة والعامة الأدبية والمادية على السواء، فما كاد يقبل عصر النهضة مع القرن السادس عشر الميلادى حتى شرع اليهود يبنون لجنسهم دعائم مكينة، وواصلوا البناء فى صمت ومكر حتى أمكنهم خلال القرن العشرين أن يُكَوِّنوا فى مختلف القوميات الأوروبية والأمريكية طائفة ظاهرة اليسار والارتقاء، وهنا شرع اليهود يلبون دواعى الحنين فى دمهم لبناء دولتهم الدينية وتحقيق حلمهم القديم فى حكم العالم.

وسنحت الفرصة بسقوط الخلافة الإسلامية، وغيبوبة العرب عن رشدهم، وذهولهم الهائل عن رسالتهم، فضرب اليهود ضربتهم، واحتلوا فلسطين، وبديهى أن اليهود وحدهم ما كانوا ليقدروا على ما فعلوا، إن الحقد المشترك على الإسلام وأمته وجد فى العدوان اليهودى أداة ترضيه، وتنفذ ما يبتغيه، ولذلك رحب به وأعانه - ولا يزال - على بلوغ أهدافه.

أول أولئك الحاقدين: الصليبيون الجدد، فإن بعض الساسة الأمريكيين والأوروبيين المبغضين للإسلام وأمته يرون فى إقامة دولة لليهود على هذه البقعة من أرضنا خطوة لها بُعدها فى زلزلة الكيان الإسلامى كله، ومن ثم حرصوا على خذلاننا فى كل ميدان، وتخييب آمالنا فى كل سعى، ولم نر من خمسين سنة - أى مذ بدأ احتلال اليهود لفلسطين - سياسيًا مسيحيًا كبيرًا يعارض اليهود أو يرثى للعرب المنكوبين! حتى الجنرال ديجول رئيس حكومة فرنسا الذى يشاع أنه نصير للحق العربى، لم يفكر قط فى أن فلسطين للعرب وأن اليهود مغتصبون لها، غاية ما صنع أنه - لأمر ما - وقف ضد التوسع اليهودى الحالى، وأيد ما يسمى: «محو آثار العدوان».

أما بقاء إسرائيل فى موقعها المرسوم المحدود فليس موضع جدل فى العالم الغربى.

وإلى جانب الصهيونية والصليبية عملت الشيوعية العالمية عملها فى إقامة إسرائيل، وساندتها فى المجال الدولى مساندة مكشوفة، ولا ريب أن الشيوعيين يسرهم أن ينقسم العرب قسمين واهيين إثر قيام إسرائيل فى مكانها الموجع الذى تحتله الآن، فإن ضعف الإسلام - بضعف العرب - يساعد على نشر الشيوعية وإزاحة سدود ضخمة من أمامها، وموقفها الحالى من التوسع اليهودى تمليه ظروف سياسية معقدة.

وسط هذه الفتن والمحن أقبلت اليهودية العالمية تريد استعادة نشاطها الأول، معتقدة أن الإسلام أكذوبة يجب أن تنتهى، وأن أمته خرافة آن أن تزول، أى أن الهدف المخطط هو إزالة دين، ومحو أمة!

وإسرائيل الكبرى تمتد شرقًا وغربًا من الفرات إلى النيل، وتهبط جنوبًا حتى تشمل الحجاز، وتستوعب مكة والمدينة! وحجتهم أنه فى هذه البقاع تجول أسلافهم وانتشروا، وأن الظروف التى شردتهم قد انتهت، وأن العرب الذين يستوطنون هذه الأرض ليسوا أهلاً للبقاء فيها، وأن المقدسات الإسلامية إنما تستمد مكانتها الروحية من تعلق أصحابها بها وقدرتهم على حمايتها، ولكن «محمدًا مات وترك بنات»!!

هكذا كانت مظاهرات اليهودية تجأر بالهتاف فى مدينة القدس حيث المسجد الأقصى، وقد رأيت بعينى صور الجنود اليهود يحملون التوراة فى اليد اليمنى

والمسدسات فى اليد اليسرى وهم على صهوات دباباتهم المنطلقة بهم فى ربوعنا المقفرة وأرضنا الذليلة الموحشة.

إن الأمانى التى دفنت فى تراب الذل نحو ثلاثين قرنًا انتفضت بالحياة بغتة، وجرت معها عداء الصليبية لرسالة التوحيد، وعداء المادية لرسالات السماء، ولوحى الله جملة وتفصيلاً، ثم هجمت على العرب المنقسمين على أنفسهم، الزائغين عن رسالتهم، واستطاعت أن تكسو وجوههم بالقار، وأن تملأ ديارهم بالعار.

صـراع المطـرودين والتائهــين

صاحب القلب القاسي لا يجدر به أن يحمل عناصر الرحمة لغيره، وصاحب الذهن المغلق ليس أهلاً لتوعية الآخرين، وفاقد الشيء لا يعطيه، وحامل الكتب الذى لا يدرى ما فيها لايصلح تلميذًا، فكيف يكون أستاذًا؟

لهذا صرف الله رسالته عن اليهود إلى العرب؛ لعل الآخرين يحسنون الوصاية عليها والسير بها.

وإن كان اليهود بعد ما رأوا هذا التحول المباغت فى ابتعاث الأنبياء قد استماتوا فى تكذيب الرسالة الجديدة والعدوان على صاحبها، فقال الله جل شأنه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ صدق الله العظيم.

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم سجلت هذه المقارنة بين اليهود والعرب تسجيلاً يحمل فى أطوائه مسالك يجب أن تدرس وفرائض يجب أن تعرف، لأنها تعرفنا بما وقع من غيرنا، وما ينبغى أن يقع منا.

فى سورة آل عمران وصفنا الله بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ لماذا؟ أهو امتياز عنصرى أو تفضيل جغرافى؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، إنما هو لخصائص خلقية وفكرية تنفع الإنسانية جمعاء بعدما تنفع أصحابها أولاً، هذه الخصائص هى قوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

وهذه الخصائص هى التى فقدها أصحاب الرسالة السابقة فعزلوا عن منصب القيادة العامة للناس، لذلك قال مباشـرة: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

والأمم تؤاخذ بما يسود كثرتها الكبرى من عوج ورذيلة، ووجود قلة صالحة لا يغنى عنها ولا يجنبها المصير المحتوم.

وظاهر من تعبير القرآن الكريم أن قدر الأمة مرتبط بمدى إيمانها، وأن سبقها لغيرها، وترجيحها عليها، منوطان بحرصها على فضائلها.

وإلا فسوف يصيبها ما أصاب غيرها.

ومن أخطاء أهل الكتاب الأولين أنهم ظنوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وأنهم قادرون على فضله يمنحونه من شاءوا، وقادرون على مغفرته يبيعونها صكوكًا لمن يدفع الثمن، وهذا كله تطاول بالباطل، فإن الأفراد والأمم تعلو إذا قدرت على التحليق، وتهبط إذا فترت منها الهمم، وغلب عليها الكسل.

وليس لأحد قط أن يتدخل فى هذه القوانين الصارمة: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

ولذلك عندما رسم القرآن الكريم الطريق أمام الأمة الجديدة بين أن الله يختار من يشاء من خلقه؛ ليحمله ما يشاء من أمره، فقال جل جلاله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

ثم شرح بعد ذلك الرسالة التى آذن العرب بحملها، والأعباء الشريفة التى تقترن بها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وظاهر من هذا السرد التاريخى أنه كان هناك شعب مختار فَسَدَ فَعُزِل. وأن هناك شعبًا آخر وقع عليه الاختيار، ليبلغ رسالات الله ويضيء الطريق أمام الأحياء.

نعم هناك شعب آخر مكلف أن يتصدر الركب الإنسانى المنطلق يحدوه باسم الله، ويعطيه الأسوة الحسنة من تمسكه بهداه، شعب يتعلم من محمد ثم يعلم

الآخرين، ويطبق تعاليمه على نفسه ثم يجعل منها نماذج لغيره: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

تلك هي الحقيقة التي تاه عنها جمهور كثيف من العرب، فتخطفته زبانية الأرض، ثم هوت به في مكان سحيق!

والصراع الدائر الآن هو بين المطرودين من أصحاب الرسالة الأولى، وبين التائهين من أصحاب الرسالة الخاتمة.

انتقال حاسم

من رحمة الله بعباده أنه يقيل عثراتهم، ويغفر زلاتهم، ولا يؤاخذهم لأول ما يفرط منهم، وقد أمهل بنى إسرائيل طويلاً كيما يثوبوا لرشدهم، ويعتذروا عن أخطائهم، وبعث فيهم أنبياء كثيرين يذكرونهم بالله ويخوفونهم نقمته، لكن القوم لم يرعووا ويدعوا ماهم فيه، بل تأدت بهم الشراسة الجامحة أن يعتدوا على أنبياء الله فيقتلوا من ضاقوا بنصحه منهم: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾، وكان آخر اختبار سقطوا فيه موقفهم من عيسى ـ عليه السلام ـ فقد جاءهم هذا الإنسان الصالح يبغى ترقيق قلوبهم، وتهذيب طباعهم، وإلزامهم حدود الله وتعاليم الوحى الأعلى، واعتناق حقيقة الدين بدل الاستمساك بقشوره والخروج على جوهره، ولكنهم سخروا منه أقبح سخرية، ورموه وأمه بأغلظ الإفك، ثم ابتغوا قتله كشأنهم مع من سبقه، بيد أن الله نجاه منهم ووقاه شرهم، وكان هذا كما قلنا آخر اختبار لبنى إسرائيل، فقد كانت النبوات وقفًا عليهم، وهدايات السماء تنبعث من أرضهم.

وطالما سطعت أشعة الوحى فى ساحات المسجد الأقصى على أيدى رسل كرام، غير أن هذه الأشعة ضاعت بين غيوم كثيفة من الشهوات، ومحا أثرها شعب عز على العلاج بعد أن تغلغل الفساد الخلقى والاجتماعى فى أعماقه، وقررت العناية العليا أن تنقل قيادة الإنسانية من جنس إلى جنس، أو من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل أو من اليهود إلى العرب، كان عيسى ـ عليه السلام ـ آخر إسرائيلى يرسل إلى قومه، وكان تكذيبهم له آخر جرم يختم به

تاريخهم الدينى، ثم يجىء دور العرب بعدئذ ليفتتحوا صفحة جديدة فى الحياة، بعدما ملأ اليهود الصفحات السابقة بمخازيهم ومآسيهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ ﴾.

وفى تسويغ هذا الانتقال الحاسم، وسرد أسبابه وملابساته، وفى تعريف العرب بمكانتهم الإنسانية الجديدة، ودورهم القيادى الخطير، وفى تقرير الواجبات الثقيلة التى تفرضها هذه الرسالة العظمى على العرب، فى هذا كله نزلت آيات شتى نريد أن نتدبرها ونتدارس دلالاتها وأبعادها: يقول الله لنا ـ نحن العرب ـ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ويقول للنبى الخاتم ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾، ويقول عن منازل الناس فى خدمة هذه الرسالة والوفاء لها:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم بين الله للعرب لماذا ملكهم زمام الوحى بعد أن انتزعه من اليهود، وكيف يتقاضاهم ذلك الإخلاص لله وحراسة رسالته والسهر على أدائها، فلننظر إلى سورة الجمعة، وكان يوم الجمعة فى الجاهلية يسمى يوم العروبة، حتى غلبت التسمية الشرعية نظرًا للصلاة الجامعة التى تحشد الناس فيه، بدأت هذه السورة بتسبيح الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم شرعت تتحدث عن العرب، وكيف اختار الله منهم نبيًا يربيهم ليربى بهم العالم ويعلمهم ليعلم بهم الآخرين:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾،

نعم كان العرب قبل الإسلام فى جاهلية طامسة وتأخر ظاهر، ثم أحيا الإسلام

مواتهم، وأعلى ذكرهم، ونقلهم بتعاليمه من السفوح إلى القمم، ومن ذيل القافلة البشرية إلى طليعتها: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، ثم يذكر الله جل شأنه فى هذه السورة لماذا آثر العرب بهذه المنزلة بعد أن كانت قديمًا لغيرهم، فيقول:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وهذه الآية واضحة فى أن اليهود فقدوا صلاحيتهم لحمل رسالات السماء فقدانًا أبديًا لأنهم فقدوا القدرة على الانتفاع بالوحى الإلهى ولم يستطيعوا تهذيب أنفسهم به، فكيف يقدرون على تهذيب غيرهم؟

ظهــــر خطـئـى

ظننت لأول وهلة أن حديث القرآن الكريم على بنى إسرائيل إنما كثر واستفاض بعد الهجرة النبوية، أى بعد أن جمع اليهود والمسلمين وطن مشترك وجوار قريب.

ثم تبينت خطئى بعد أن تدبرت الوحى النازل فى مكة، فقد ظهر لى أنه تكرر ذكر بنى إسرائيل فى القرآن المكى تكرارًا يشمل أغلب السور.

ولا عجب، فقد ذكر اسم موسى - عليه السلام - فى القرآن نحو مائة وعشرين مرة، فما ذكر اسم نبى ولا ملك بهذه الكثرة، ولاتحدث الوحى عن أمة من الأمم الأولى كما تحدث عن اليهود.

لقد جاء ذكرهم فى الأنعام والأعراف والإسراء وطه ويونس وجميع الحواميم والطواسين وسور أخرى كثيرة.

والســور التى أحصيناها هنا مكية كلها، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ آية من سورة النمل المكية.

وعجيب أن اليهود فى مكة نفر لا يؤبه لهم أن يعنى القرآن بقصصهم كل هذه العناية!

ولقد ساءلت نفسى: ما السبب فى هذا السرد المفصل لتاريخ بنى إسرائيل فى مكة قبل المدينة؟

أهو تعريف المسلمين بحقيقة القوم الذين سيخالطونهم فيما بعد؟

إن هذه إجابة غير مقنعة.

وبعد تأمل غير قليل وجدت أن هذا التاريخ يحوى فى طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها بأمورها، وازدهار حضارتها، كما يحوى العناصر الحقيقية لانهيار الأمم، وذهاب ريحها، واضمحلال أمرها.

والقصص القرآنية من أبرز الوسائل لتربية الأفراد والجماعات، وقد كان المسلمون المستضعفون فى مكة بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الأوائل من ذل هائل إلى تحرر وتمكين، وما هى الفضائل التى لابد من استجماعها كى تبلغ الأمم هذه الغاية الكريمة، وقد تولت السور المكية هذا الشرح، ورأت القلة

المستضعفة كيف تحول شعب تذبح صبيته، وتستحيا نسوته، إلى شعب مكين فى الأرض سيد على ظهرها!

وقد سئل ابن القيم: أَيُمكَّن للرجل أولاً ثم يبتلى، أم يبتلى ثم يُمَكَّن له؟ فقال: يبتلى أولاً ثم يمكن له، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

والآية من سورة السجدة المكية، وهى تنبه إلى أن الصبر واليقين أسس الكفاح الطويل الذى يصل بالأمم المناضلة إلى هدفها.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية فى سورة الأعراف:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾.

وهكذا تفاوتت مصاير أقوام كانت بداية أمرهم متفاوتة أبعد التفاوت، فالفراعنة يصدرون الأوامر بالقتل والسبى، وحملة التوحيد يمضون فى الطريق المضرجة بالدماء والأحزان.

فأما الأولون فقد جنوا عاقبة جبروتهم صغارًا وانهيارًا:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله، المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى، فقد ظفروا وعمروا: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾.

إلا أن البشر كثيرًا ما ينجحون فى امتحانات البأساء والضراء، حتى إذا وسع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد.

وما أكثر الذين حولتهم السلطة إلى جبابرة متسلطين وحولتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.

أسباب ونتائج

اشتبك العرب مع اليهود أربع مرات: سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦، سنة ١٩٦٧، سنة ١٩٧٣، وانهزمت دولهم فى أغلب هذه المعارك هزائم شائنة، وطالما بقيت الروح الدينية والأساليب الخلقية لدى العرب على المستوى المعهود فى معاركهم السابقة، فلن يكسبوا معركة أبدًا، بل سيخسرون وجودهم كله، ويذهبون فى خبر كان.

إن اليهود يقاتلون بدافع من إيمان، ويعملون كما شرحنا آنفًا لتحقيق رسالة دينية ومدنية معًا، أما العرب فإن ساستهم خلال خمسين سنة كانوا ينفذون مخططًا استعماريًا لإبعاد الدين عن آفاق الحياة الخاصة والعامة! ويوم يلتقى رجل ملتهب المشاعر بعقيدة ما، مع رجل لم يستنر فؤاده بحقيقة دينه، بل لا يدرى من حقائق هذا الدين قليلاً ولا كثيرًا، فماذا تكون النتيجة؟ إنها الهزائم التى ذقناها، إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقف أمام معتدين باسم الدين إلا مدافعون باسم الدين، إن اليهودى يأبى أن يأكل لحم الخنزير مثلاً، لأنه يحترم دينه، ولديه ضمير دينى يمنعه من هذا الطعام بقوة، أما المسلم الذى أمامه فهو يشرب الخمر المحرمة فى دينه دون ضمير رادع! ولست أتهم كل أحد بهذا الاتهام، ولكن عددًا من القادة والضباط يشربون الخمر جهرة فى شتى الجيوش العربية، واليهودى يتعبد يوم السبت، ويصوم الأيام المقررة عنده.

وعندنا لفيف ضخم من الرجال لا يصلون الجمعة، ولا يصومون رمضان، بل إن الصلاة متروكة فى بعض الجيوش فى كل الأوقات.

فإذا طوينا هذه الصفحة من المخالفات لأمر الله، فلنلفت النظر قبل طيها إلى أننا لا نبكى لمعاصٍ فردية تقع من هذا أو ذاك، أو أننا نرد نتائج ضخمة إلى سيئات محدودة، كلا، كلا، إننا نميط اللثام عن حقيقة مخيفة، وهى أن الدين أُبعِد إبعادًا متعمدًا عن ميادين الحرب والسلام جميعًا، وأنه حظر على صوت الإسلام أن يخترق الآذان بالتوجيه الواجب، بينما كانت اليهودية تعمل عملها فى جبهة القتال ووراء الجبهة، فهل نلام إذا تصورنا أن إبعاد الإسلام عن هذه الميادين ليس إلا عملاً لحساب إسرائيل، أو لحساب القوى التى تساندها كليًا أو جزئيًا؟ كل الدلائل تشير إلى صدق هذا الاتهام، والغريب أن العرب فى تفلتهم من قيود الدين وآدابه ظهرت عليهم

أعراض طفولة عقلية ونفسية مزرية، فلم يتصرفوا مع عدو أو صديق تصرف الرجولة الناضجة والسيرة الواثقة الجادة، بل على العكس، كانت خططهم الحربية هزيلة وكانت مع هزالها مفضوحة، وكانت خطبهم ذات رنين عالٍ ولهجة مفزعة، فلما التقى الجمعان تكشف اللقاء عن مهزلة، بل إننا انهزمنا من غير قتال، وانتحرنا دون أن نلحق بخصومنا ضرًا يذكر، والمرتقب من كل عاقل أن يدرس هزيمته، ويحدد عللها؛ حتى يتجنبها مستقبلاً، فهل فعلت الدول العربية ذلك؟ وهل رسمت سياستها التربوية والدعائية والعسكرية على ضوء ما مسها من كروب؟ لم يقع شيء من هذا، وأذكر أنى كنت أتحدث مع مقاتل شهد معركة الصبحة فى الخمسينات، فقال لى: والله لقد قاتلنا بشدة وعزم، فقلت له: لكن اليهود استولوا على الموقع! فقال: إننا والله كبدناهم خسائر جسيمة، غير أننا ما كنا نحصد منهم صفًا بمدافعنا حتى ينبت مكانه صف آخر وهو يرتل الأناشيد الدينية، وهززت رأسى عجبًا وأنا أسمع هذا الكلام، ثم تساءلت بينى وبين نفسى: كم نشيدًا دينيًا يحفظه شبابنا؟ كم آية قرآنية تغرى بالاستشهاد، أو حكمة نبوية توحى بالثبات والتحمل يعيها ضباطنا وجنودنا، ويرددونها فى ساعات الهول؟ إذا كانت الحاجة أم الاختراع فالإيمان أبو الاختراع وأمه، إن المؤمن يؤرقه طلب النصر، ويفتق له وجوه الحيل، ويبصره بأنواع الخدع، ويبعثه على التنقيب فى فجاج الأرض وآفاق السماء، راصدًا العدو، مستعدًا لمواجهته، أفذلك ما فعله العرب؟ لا، لأن بناءهم النفسى والاجتماعى لم ينهض على قواعد الإسلام، ثم اعترتهم الطفولة الفكرية والخلقية التى ذكرناها، فإذا هم ينكرون هزائمهم ويزعمون أنها انتصارات، وقد قرأت مقالات شتى تريد لتقنعنا بأن الهزيمة ليست فقدان الأرض، وضياع المعدات، وخسارة الرجال!! لا، إن الهزيمة عند هؤلاء شيء آخر لا تعرفه قواميس اللغة ولا مفاهيم الناس، وهكذا.

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

وأحقر ما سمعته فى أعقاب هذه الهزائم تعليل الهزيمة بأى شيء إلا ضعف العقيدة والخلق، وما ينشأ عن ضعف العقيدة والخلق من فوضى فى وضع الخطط، وترتيب الرجال، ونسيان الله، والحرمان من توفيقه وتأييده، ويوم يقع قياد العرب فى أيدى ساسة من هذا الطراز، فهيهات أن ينجح لهم قصد، أو تعلو لهم راية، ولله فى خلقه شئون!

صـــورة غـيـر صحيحـــة

نحَّى الله أبناء إسرائيل عن المنصب الذى لم يقدروه قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية، حيث عجز أبناء عمومتهم، كان من المنتظر من بنى إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم فى نصرة دينه وإسعاد عباده، إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة؛ فلم يفلتوا من الجزاء المعد لأمثالهم:

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وقد بين الله للمسلمين مراحل هذا التبديل لنعمة الله، وأوضح مظاهره فى أخلاق القوم ومسالكهم، وما فعل جل شأنه ذلك إلا ليتجنب المسلمون المزالق التى هوت بغيرهم، فإن الأمم لا تنكب جزافًا، ولا تساق إليها المصائب خبط عشواء، ولكنها قوانين الله التى يخضع لها الأولون والآخرون، ولا تقبل فيها شفاعة، ولا يقف حكمها استثناء. والغريب أن التوجيه الذى قيل لهؤلاء قيل لأولئك على تباعد الزمان بين الفريقين. ففى لذعة من لذعات الألم صرخ بنو إسرائيل بنبيهم موسى قائلين: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

ترى! إذا تحررتم وسدتم تحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟ وبعد أعصار طوال جيء بالأمة الإسلامية بعد إقصاء بنى إسرائيل الذين أساءوا وظلموا، فماذا قال الله للأمة الجديدة؟ قال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

ذات القول الذى قيل لبنى إسرائيل من قرون سحيقة! فلنقارن بين تاريخ

وتاريخ، وعوج وعوج؛ لنعرف ما لنا وما علينا. وهل وفينا أم غدرنا؟ وهل ما أصابنا كان جور الليالى علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟ إذا كلف الله أمة برسالة ما فيجب أن تكون أحوالها الظاهرة والباطنة، ومعاملاتها الداخلية والخارجية صورة دقيقة لهذه الرسالة، صورة تجذب الآخرين لها، وتغريهم باعتناقها. أما أن ينفر الدعاة غيرهم من قبول الدعوة، فهذه هى الخيانة الكبرى. وحملة الدعوة المخلصون يخشون أن يقع لهم أو يقع منهم ما يكون حجابًا للآخرين أو عائقًا عن تصديق دعوتهم.

وبهذا فسر العلماء قول المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟

قال المفسرون: تصيبهم هزائم بسبب تقصيرهم، فينظر الكفار إلى هذه الهزائم ويقولون: لو كانوا على حق ما مستهم تلك المصائب. إن الدعاة الصادقين يخشون أشد الخشية أن يكونوا عبئًا على رسالتهم أو سببًا للتحول عنها. ولعل هذا سر قول النبى ﷺ: «**من آذى ذميًا كنت خصمه**». لماذا؟ لأن إيذاء الذمى ليس ظلمًا عاديًّا لواحد من الناس، كلا، إن الذمى المظلوم سوف يعتقد أن مصدر متاعبه هو دين المؤذى لا شخصه. وبذلك يكره الدين وصاحبه وينصرف عن الدخول فيه، فتكون مساءة فردية سببًا فى كفر أفراد وجماعات.

واليهود عاملوا الأمم الأخرى بأسلوب حافل بالدناءة والشر، وتواضعوا على أكل أموالهم، واستباحة حقوقهم، وافتروا على الله تعاليم يزعمون فيها أنه ليس عليهم من حرج فى هذا اللون من السلب والاختطاف:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾.

ولن تنكب أمة رسالتها بأسوأ من صرف الناس عنها بهذه الطريقة الخسيسة. ومن المؤسف أن المسلمين أثاروا فى أفق الدعوة الإسلامية ضبابًا لا آخر له بقولهم وعملهم على سواء. فتخلفهم العلمى مزعج، وهبوطهم الخلقى شديد، وهذا

وذاك صدود عن سبيل الله وفتنة كبرى! وربما كان المسلمون فى معاملاتهم للأجانب عن دينهم وبلادهم أدنى إلى الشرف والكرم، بل ربما كانوا هم المغبونين المرجوحين. بيد أن المسلمين - بيقين - لا يعطون صورة صحيحة ولا مقاربة للإسلام. والشعوب المتطلعة إلى التفوق العلمى، والكرامة السياسية، والرفاهية الاجتماعية، والإنتاج الواسع، وغير ذلك من مظاهر الارتقاء الأدبى والمادى، فى قنوط تام من أن يكون المسلمون نماذج لهذا أو لشىء منه. وهذه الشعوب المتطلعة ترد الأمية الشاملة بين جماهير المسلمين إلى الدين الذى توارثوه لا غير. فإذا كانت تعاليم الإسلام فى الأوج وكانت حال المسلمين فى الحضيض، فإن هذا التناقض سيظل أبدًا مثار ارتداد عن الإسلام، أو اتهام له.

ألقـاب

كتب السلطان سليمان القانونى ـ خليفة المسلمين فى عهده ـ إلى ملك فرنسا الرسالة الآتية، وكان الملك الفرنسى قد أرسل يستنجد به لهزائم أصابته فى حروبه، ونحن نورد مقتطفات من نص الرسالة، ثم نعقب عليها ببيان وجهة نظر الدين فيما جاء فيها، لنطهر الدين من لوثات بعض من حكموا باسمه، فإن الشرق ـ وأغلب نهضاته على الدين ـ بحاجة إلى دروس متتابعة فى فقه الحكم وإلزام الحكام حدودهم المشروعة، وهذا بعض ما جاء فى هذه الرسالة:

«سلطان السلاطين، وملك الملوك، ومانح الأكاليل لملوك العالم، ظل الله على الأرض، باشاده سلطان البحر الأبيض والأسود، وبلاد الروملل والأناضول وقرصان وأرزوم وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وسائر بلاد العرب واليمن وإيالات شتى، فتحها سلفاؤنا العظام وأجدادنا الفخام بقواتهم الظافرة، وكثير من البلاد التى أخضعتها عظمتى الملوكية بسيفى الساطع، أنا ابن السلطان سليم بن السلطان بايزيد شاه، السلطان سليمان خان أكتب إليك يا فرنسيس حاكم بلاد فرنسا: إن الكتاب الذى طرحته أمام سدتى الملوكية ملجأ الملوك على يد فرنكيان المستحق لثقتك، والألفاظ الشفاهية التى حملها إلىَّ قد علمت منها أن العدو مستحكم من مملكتك حتى صرت له أسيرًا، وتطلب إنقاذك، فجميع ما قلته عرض على أعتاب كرسى عظمتى التى هى ملجأ العالم وقد فهمت شرحه وأحاط علمى الشريف به... إلخ».

هذا مطلع الرسالة التى نريد التعليق عليها، أرأيت إلى ما تضمنته من ألقاب الجلال والرفعة والتسامى، إنه هو الذى سنقف عنده لنقول حكم الله فيه، فإننا إذا أبصرنا مواضع الخطأ فى الماضى عرفنا كيف نتجنب الانزلاق إليها فى المستقبل. هذه الرسالة لم تملها روح الإسلام، بل سطرت حروفها مظاهر الجبروت التى أحاطت بالحكام فى القرون الأولى، وبذل الإسلام جهود الجبابرة ليجرد أدوات الحكم منها، ويعلم الأمم كيف تتمرد بين الحين والحين عليها.

وليس للسلطان سليمان ولا لغيره من الحكام أن يضيفوا إلى أسمائهم هذه

المجموعة الفريدة من الألقاب المفتعلة والأوصاف التى أخذ أكثرها من الصفات الإلهية المقدسة، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه لما بلغته ألقاب كسرى ملك فارس وصف صاحبها بأنه أخنع رجل عند الله، وعندما كانت سلطة الحق الإلهى المزعوم تسند الحكام شرقًا وغربًا، كان أبو بكر رضى الله عنه ـ الخليفة الأول للإسلام ـ يقول: «أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتم خيرًا فأعينونى، وإن رأيتم شرًا فقومونى». هذه الديموقراطية الواضحة جعلت عمر رضى الله عنه ـ مقوض الإمبراطوريات الشامخة ـ يسمى نفسه أمير المؤمنين فقط ويرغب عن كل إضافة أخرى تعطى اسمه فضل جبروت على الناس، وهذا التجرد من ألقاب القداسة ومظاهر الأبهة قصد به الإسلام أن يجعل من الحاكم رجلاً يؤخذ منه ويرد عليه، وتنقد تصرفاته كلها فما كان منها صوابًا أقر، وما كان منها خطأ رد عليه ولا كرامة، أما وصف أى إنسان من البشر بأنه «ظل الله فى أرضه» فوصف عجيب حقًا، إن كان يراد به تمثيل العدالة الإلهية فى الأرض، فإن الرجل فى أسرته والعمدة فى قريته، والمأمور فى مركزه، والمدير فى مدينته كلهم ظلال الله فى الأرض، وفى هذا التعبير ضرب من الشعر والخيال مقصود، أما إن كان ظل الله فى الأرض رجلاً يمثل الألوهية بين الناس، فهو يفعل ما يشاء، ويستعبد من يشاء، ويتخذ الحكم ذريعة لهذه السيادة السقيمة، فإن هذا الظل يجب أن يتقلص، فليس الناس عبيدًا إلا لرب واحد: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

وقد تلقب سلاطين الأتراك بما شاءوا من أمارات الجاه وشارات المجد ولم يخجلوا من الاتصاف بأنهم ظلال الله فى الأرض ـ كما ترى فى هذه الرسالة ـ مع أن تاريخ الاستبداد السياسى يحفظ فى طياته صورًا مخزية لهذه الظلال المريبة، ويوحى بأن هذه الظلال كانت لمردة وشياطين، إن صلة الحاكم بالله لا تزيد على صلته جل وعلا بأى عبد من عباده، وقد روى أن رجلاً جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه يناديه: يا خليفة الله، فغضب أبو بكر ولم ير نفسه أهلاً لهذه الإضافة الخطيرة، مع أن الخلافة عن الله أقرب إلى الحقيقة الإنسانية العامة من «ظل الله» التى ينحلها الحكام المستبدون لأنفسهم، إذ إن البشر جميعًا استخلفهم الله لعمارة الأرض وتنظيم شئونها.

وقد استكثر أبو بكر رضى الله عنه على نفسه هذه الصفة خشية أن ترمز إلى معنى من معانى القداسة المكذوبة، وهو أعرف الناس بأن الحاكم رجل من

الشعب، اختاره عن رضا ليتولى أمره، وأنه إذا شاء أبقاه وإذا شاء أقصاه، وأن الشعب يملك عليه كل شيء ولا يملك هو للشعب أى شيء.

أما نظرية العصور المظلمة فى فهم الحكم والحكام فقد رفضها الدين رفضًا حاسمًا، ولكن هذا لم يمنع بعض السلاطين أن يعيدوا خرافة الحكم الفردى، وأن ينعتوا أنفسهم بما قرأت من نعوت لا يقرها دين.

ضريبة الدم والمال

الرجل الذى يعيش لنفسه فقط. لا ينتفع به وطن، ولا تعتز به عقيدة ولا ينتصر به دين لا قيمة له، ولا قيمة لإنسان يكرس حياته لإشباع شهواته وقضاء لباناته فإذا فرغ منها لم يهتم لشىء ولم يبال بعدها بمفقود أو موجود.

مثل هذا المخلوق لا يساوى فى ميزان الإسلام شيئًا، ولا يستحق فى الدنيا نصرًا ولا فى الآخرة أجرًا.

لا قيمة للإنسان إلا إذا آمن بربه ودينه، ولا قيمة لهذا الإيمان إلا إذا أرخص الإنسان فى سبيله النفس والمال، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الرجل قد يحب أن يعيش آمنًا فى سربه، وادعًا بين ذويه وأهله، سعيدًا فى تجارته، أو مطمئنًا فى وظيفته، مستقرًا فى بيته، ومستريحًا بين أولاده وزوجته. بيد أنه إذا دعا الداعى إلى الحرب وقرعت الآذان صيحات الجهاد؛ فيجب أن ينسى الإنسان هذا كله، وأن يذهل عنه فلا يفكر إلا فى نصرة ربه وحماية دينه وإنقاذ آله ووطنه. وإلا فإن الإسلام منه برىء.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

والأمة التى تستثقل أعباء الكفاح وتتضايق من مطالب الجهاد إنما تحفر لنفسها قبرها وتكتب على بنيها ذلاً لا ينتهى آخر الدهر.

وما ساد المسلمون إلا يوم أن قهروا نوازع الخوف، وقتلوا بواعث القعود، وعرفتهم ميادين الموت أبطالاً يردون الغمرات ويركبون الصعاب.

وما طمع الطامعون فيهم إلا يوم أن أخلدوا إلى الأرض، وأحبوا معيشة السلم، كرهوا أن يدفعوا ضرائب الدم والمنال، وهى ضرائب لابد منها لحماية الحق وصيانة الشرف، ولابد منها لمنع الحرب وتأييد السلام.

إن كثيرًا من المسلمين يحبون أن يعيشوا معيشة الراحة والهدوء والاستكانة



برغم ما يهدد بلادهم من أخطار، وما يكتنف مستقبلهم من ظلمات، وحسبهم من الدنيا أن يبحثوا عن الطعام والكسوة، فإذا وجدوا من ذلك ما يسد المعدة ويوارى السوأة فقد وجدوا أصول الحياة واستغنوا عن فضولها.

وتلك لعمرى أحقر حياة وأذلها، وما يليق ذلك بأمة كريمة على نفسها، بله أمة كريمة على الله أورثها كتابه وكلفها أن تعمل به وأن تدعو الناس إليه.

ألم يسمع هؤلاء أنباء الحروب العظيمة التى دارت رحاها فى الغرب؟

ألم يروا ضرب البسالة وألوان التضحية التى كان يبذلها كل فريق؟

ألم يروا كيف أن جنودًا تنتحر ولا تستسلم للأسر، وأن فرقًا من الفدائيين كانت تقف حياتها على المهمات القاتلة، فهم يدفعون أرواحهم ثمنًا لها، فى غير وجل أو تردد؟

فأى حياة ترجوها الشعوب الخوارة والكسول إلى جانب هؤلاء؟ وأى نصر يطلبه أهل الحق إذا أغلوا حياتهم، على حين يرخص أهل الباطل أنفسهم فى سبيل ما يطلبون؟

وإذا ضننا على الله بضريبة الدم والمال. فما طمعنا فى نصرته أو أملنا فى جنته. وهو القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾؟!

إن الإسلام دين فداء ودين استشهاد. عرفه كذلك أسلافنا الأمجاد، فأحرقوا أعصابهم وعظامهم فى سبيل الله، لا يبالون بالموت، كيف وهو الذى يطلبون، وفيه يرغبون؟

فكان هذا الشعور المغامر هو الدعامة المكينة التى بنوا عليها تاريخهم، وسجلوا فيه صحائف خلودهم، فعاش من عاش سعيدًا ومات من مات شهيدًا.

بالنفس والنفيس

يخرج الجندى من وطنه، حيث يعيش هادئًا آمنًا، إلى ساحة الميدان حيث يحمل من الأعباء ويتحمل من المخاطر ما يحتاج إلى بأس شديد وعزم حديد.

وقد قدر الإسلام هذه المشقات حق قدرها، وتكفل الله عز وجل لها بأضعاف أجرها.

فى الميدان الرحيب، تهب الرياح السافية، وتهيج العواصف العاتية، وتمتلئ صدور المجاهدين بالغبار، وتتراكم على ملامحهم وملابسهم وأقدامهم سحب التراب. هذا كله يحفظه الله للمجاهد المخلص الصبور.

فقد جاء عن النبى ﷺ: «**لا يجتمعان فى جوف عبد: غبار فى سبيل الله ودخان جهنم**»، «**ما من رجل يغبر وجهه فى سبيل الله إلا آمنه دخان النار يوم القيامة، وما من رجل تغبر قدماه فى سبيل الله إلا آمن الله قدميه من النار يوم القيامة**».

وعندما يلقى الليل على الكون أستاره، وينتدب من الجند من يقوم بحراسة المعسكر، ومراقبة الأعداء. فإن يقظة الجندى الساهر على حياة إخوانه، والتفاته لكل حركة، واكتشافه لكل ريبة، إنما هو ضرب من العبادة والتهجد يزيد على الصوم والصلاة.

وتلك أيضًا حسنة تدخر للمؤمن عند الله: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله».

والجندى فى الميدان يتعرض للقتل، كما يعرض أعداء الله له، ويقع فى مآزق ضيقة، ويواجه أزمات معنتة، وتهيج فى نفسه مشاعر القلق، ويخاف تارة على نفسه، وتارة على من معه.

والذى يواجه الموت فى كل ساعة لا يستغرب منه أن تتوتر أعصابه وأن يقشعر إهابه، لكن حساب هذه العاطفة المتوجسة لا يضيع عند الله أبدًا، كما جاء على لسان رسوله ﷺ: «**ما خالط قلب امرئ رهج - وجل - فى سبيل الله إلا حرم الله عليه النار**».

وليست حياة المجاهد فى ميادين القتال هى الحياة الرتيبة التى ألفناها، ولا معيشته هى المعيشة السهلة المريحة التى عرفناها، فإن التعب عنصر مشترك فى كل ساعة من ساعاته.

أما الرجل الذى ينصرف إلى الدنيا ويترك دينه ينهزم فى كل ميدان؛ فلن ينال خير الدنيا، ولن يذوق حلاوة الإيمان، وقد قال النبى ﷺ: «**لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين**».

عن شداد بن الهاد: أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فآمن به ثم قال له: أهاجر معك؟ ـ وكان من الأعراب البدو ـ فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه وضمه إلى جنده.

فكانت غزوة انتصر فيها المسلمون وغنم النبى ﷺ فيها شيئًا، فقسمه على من معه وأرسل إلى الأعرابى نصيبه، فلما وصل إلى الأعرابى قال: ما هذا؟

قال ﷺ: **حظك من الغنيمة قسمته لك.**

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى بسهم ههنا ـ وأشار إلى حلقه بيده ـ فأموت، فأدخل الجنة.

فقال له الرسول ﷺ: **إن تصدق الله يصدقك.**

ثم نهضوا فى قتال العدو.. وما لبثوا إلا قليلاً حتى جيء بالأعرابى محمولاً، وقد أصابه سهم فى حلقه حيث أشار بيده.

قال النبى ﷺ: **أهو هو؟**

قالوا: نعم.

قال ﷺ: **صدق الله، فصدقه.**

ثم كفن فى جبة النبى ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه.

فكان مما ظهر من صلاته على الأعرابى القتيل: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا فى سبيلك. فقتل شهيدًا. وأنا على ذلك شهيد**».

ثمـــن واحـــــد.. لبضائـــع مختلفـــة

إن الشجاعة قد تكلف صاحبها فقدان حياته، فهل الجبن يقى صاحبه شر المهالك؟

كلا. فالذين يموتون فى ميادين الحياة وهم يولون الأدبار أضعاف الذين يموتون وهم يقتحمون الأخطار..؟

وللمجد ثمنه الغالى الذى يتطوع الإنسان بدفعه، ولكن الهوان لا يعفى صاحبه من ضريبة يدفعها وهو كاره حقير. ومن ثم فالأمة التى تضن ببنيها فى ساحة الجهاد تفقدهم أيام السلم، والتى لا تقدم للحرية أبطالاً يقتلون وهم سادة كرام، تقدم للعبودية رجالاً يشنقون وهم سفلة لئام.

هكذا من لم يسهر نفسه للتعليم أيامًا، أسهره الجهل أعوامًا، ولو حسبنا ما فقده الشرق تحت وطأة الجهل والفقر والمرض؛ لوجدناه أضعاف ما فقده الغرب وهو يبحث عن العلم والغنى والصحة..

ومادام الشيء وضده يكلفان الكثير، فلماذا نرضى بالحقير ولا نطمع فى الخطير؟

ألا ما أجمل قول الشاعر:

إذا غـــامَـــرْتَ فـــى شـــرفٍ مَـــرُومِ

فـــلا تَـــقْـــنَـــعْ بما دونَ الـــنُّـــجـــومِ

فـــطـــعـــمُ الموتِ فـــى أمـــرٍ حـــقيرٍ

كـــطـــعـــمِ الموتِ فـــى أمـــرٍ عـــظـــيـــمِ

والذين يحسبون البذل فى سبيل الله مغرمًا يستحق الرثاء، والموت فى سبيل الله تضحية تستحق العزاء، هم قوم ليسوا من الدين فى شيء، ولا من الدنيا فى شيء، وحق على هؤلاء أن يدفنوا وهم أحياء، وأن يرقدوا فى مهاد الذل، لا ليستريحوا، ولكن لتستجاب فيهم دعوة خالد بن الوليد:

«لا نامت أعين الجبناء».

إن اللصوص عندما يقومون بمغامراتهم الجريئة للسلب والنهب لا يأخذون من الموت أمانًا، ولا ينالون من الحظ ضمانًا، بل يقدمون وهم يعرفون أن القتل



والعذاب لهم بالمرصاد، ومع ذلك لا يهابون، فكيف الحال إذا تشجع اللصوص وخاف أصحاب الحقوق المهددة وساورتهم الهواجس على أموالهم وأولادهم؟

كيف الحال إذا أقبلت الدول الضاربة الغاصبة، وأدبرت الدول المضروبة المغصوبة؟

كيف الحال إذا ضحى أصحاب العدوان ونكص أصحاب الإيمان؟

إن القرآن يخاطب المؤمنين فى صراحة مبينًا لهم أن المغارم قسمة عادلة بين المؤمنين والكافرين جميعًا فى ميادين الكفاح والبقاء.

أيما امرئ نكص على عقبيه مهزومًا فقد سقط من عين الله..

يقول القرآن لأصحاب الحق: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾.

ويقول: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾، فهل يفر من الألم والجرح والتعب، والكدح فى سبيل الله إلا مجرم دنىء.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

إن المسلمين ينفقون مئات الملايين من الجنيهات على الدخان. تلك الحماقة التى تحرق بين الأصابع والشفاه، على غير فائدة، فهل كلفنا ميدان الشرف نصف ما كلفنا ميدان الترف؟ كلا.

ذاك فى المال. أما فى الرجال فكم تقدم من الشهداء الأبرار فداء لعقيدتنا وكرامتنا؟ إن ضحايا هذا الجهاد النبيل ـ إن صحت تسميتهم ضحايا ـ لم يبلغوا أبدًا نصف ما قدمته هذه البلاد للأوبئة والأمراض الفتاكة، وشتان بين موت وموت..

فلنحمل مواثيق الكرامة بعزة وشمم، ولنأخذ سبيلنا الفذة فى طليعة الأمم.

ولندفع الثمن فى سبيل الله طوعًا وإلا دفعناه فى سبيل الشيطان على رغمنا، ثم لا أجر لنا.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

والعيب فينا

هل تحسب أن الله يكرم أمة من الأمم بدين عظيم فتأبى هى الكرامة، ثم تعكس هوانها على دينها، وبعد ذلك تفلت من العقاب الأعلى؟ كلا.. ومن هنا تتابعت السياط الكاوية على الأمة المفرطة، وتناولتها اللطمات من كل جانب. وبلغ من إيجاع القدر للمفرطين أن اليهود كانوا هم الأداة التى ضربوا بها، كأن المسلمين لن يضربوا بعصا حين أخطئوا، لقد ضربوا هذه المرة بإخوان القردة ونعال الأرض. وما من منكر ارتكبه أبناء إسرائيل قديمًا واستحقوا به غضب الله إلا فعل المسلمون فى العصور الأخيرة مثله. وكتابنا شاهد علينا، فلننظر: ما الذى نسب إلى هؤلاء؟ ولنقارن بين ما وقع منا، وما نسب إليهم، أخذت المواثيق على بنى إسرائيل ألا يسفكوا الدماء، وألا يروعوا الآمنين، وألا يشردوا رجلاً من بيته، ويخرجوه من أهله. ففعلوا ذلك كله، وفعلنا نحن مثله.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وهذا الميثاق يتضمن ـ بلغة عصرنا ـ ضمانات لحقن الدماء، وحفظ الحريات، وإشاعة الطمأنينة.

والواقع أن القيمة العليا، أو الميزة العظمى للمجتمع المتدين أن يكون الإيمان مصدر أمان لكل فرد فيه، وأن يكون الإسلام مبعث سلامة وعافية ورضى. أما أن يحيا الضعيف قلقًا على حرمانه، وأن يمشى فى البلاد خائفًا يترقب، أما أن ينتفخ القوى ويبسط يده بالأذى دون رادع، أما أن يستطيع ملاك السلطة اختطاف الناس من بيوتهم أو بتعبير القرآن الكريم إخراجهم من ديارهم، فهذا وضع لا يستقر معه إيمان.

ومن جوامع الكلم للنبى ﷺ: «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» أى أن الإيمان يغل اليد عن العدوان ويحجز عن الأذى.

وقد أخذ الله على بنى إسرائيل ـ قديمًا ـ أنه لما قامت لهم دولة، وملك بعضهم السلطة، هانت عليه أخوة الدين، فبغى، وأفسد، وقاتل وأسر.

وقد نظرت إلى تاريخ المسلمين - خصوصًا هذه الأعصار - فوجدته نسخة أخرى من خلال اليهود الذين قبح الشارع صنعهم، وأوهى بناءهم، حتى لقد خُيِّل إليَّ أن الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط دون غيرها - من شعوب الأرض - أقل استمتاعًا بالحقوق الطبيعية للإنسان.

ولقد رأيت بعض المعارضين يفرون من وجه الحكام إلى أوروبا، فإذا وراءهم من يقتلهم حيث لجأوا.

فماذا يقول الأوروبيون الذين لا يدينون ديننا فى مثل هذه التصرفات؟ وكيف يكون رأيهم فى الإسلام وأهله؟

أذكر أنى منذ ربع قرن كتبت خاطرة بعنوان «حرب الحزازات وحرب العصابات» قارنت فيها بين ضحايانا من القتلى فى الخصومات العائلية، وبين ضحايا الشعوب التى تقاتل من أجل حرياتها، فوجدت ضحايانا أكثر فى هذا الشقاق العائلى أو هذا النزاع الداخلى بين المسلمين.

كأن فينا نزل قوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾، والأمة التى يعتدى بعضها على بعض، تحرم عناية الله وبركاته فى الأولى والآخرة، وقد عرفنا كيف كرم الله بنى آدم، وكيف نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة ثم قال: «**ما أطيبك وأطيب رائحتك.. وما أعظمك وأعظم حرمتك. والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، حرمة دمه وعرضه وماله**». إن هذه مقدسات، ومع ذلك فإن الجور استباحها. لما كان الإسلام كلاً لا يتجزأ؛ فإن الله عدّ استباحة بعض محارمه إضاعة لها كلها، كما عد الكفر ببعض أنبيائه كفرًا بهم جميعًا: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

والتلويح بعدم النصر إشارة إلى أن وسائل القسوة والبطش لا تكسب ذويها عزًا فى الدنيا، كما لا تكسبهم كرامة فى الدار الآخرة. ومن خيانة الأمة لرسالتها أن تبرد عاطفتها تجاه حقوق الله، وأن تجعل حبها وبغضها مرتبطًا بمصالحها

لا بمبادئها. ولو أنك رأيت امرأ ينظر إلى علم بلاده وهو يُمزِّق مثلاً ثم لا يبالى، ما ترددت فى الحكم عليه بأنه خائن، كذلك عندما ترى تابعًا لدين ما يستهين بشعائر دينه فما يعنيه حلالها ولا حرامها، فإنك ما تتردد فى اتهام عقيدته. ويوجد ناس ما يسوؤهم أبدًا أن تعطل الصلاة، ولا أن تذبح الأعراض. أهؤلاء بينهم وبين الله علاقة حسنة؟ مستحيل. فإذا رأيتهم يصادقون تاركى الفرائض، وفاعلى المناكر، فهل يحسبون مع ذلك فى عداد المؤمنين؟ كلا.

عندما تحلل اليهود من دينهم على هذا النحو قال فيهم: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

صدق الله العظيم.

شــروط أولــــى

من الظاهر أن تقاليد الخير تذبل وتتلاشى مع ضعف الحماس لها، وأن تقاليد الشر تنمو وترسو مع ضعف النكير عليها.

من أجل ذلك كانتْ الخصائص الأولى للأمة التى تحمل رسالة الإسلام: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكانت الشروط الأولى لانتصارها أن يكون هذا النصر طريقًا لتكوين بيئة تزدهر فيها العبادة، ويسودها التراحم، وتستحكم فيها الرقابة على السلوك العام، وتظهر العلامات الحمراء والخضراء باستمرار فى طريق المبادئ والأخلاق، فما كان معروفًا سمح له بالمرور، وإلا وقف فى مكانه وأغلقت فى وجهه كل الطرق، ذلك معنى قوله جل جلاله فى سرد مؤهلات النصر: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

فهل أرض الإسلام الآن على هذا المستوى الشريف الغيور اليقظ؟ أم أن العلل الخلقية والاجتماعية استوطنت بلادنا، وغفا الحراس عنها أو غطوا فى نوم عميق؟

فى اليهود الذين وبخهم الوحى الإلهى، وورد لعنهم على لسان المرسلين تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

فهل هذا الوصف للمجتمع اليهودى اللعين وحده؟ أم تراه صادقًا على مجتمعات شتى فى العواصم الإسلامية الصاخبة بالعصيان ودواعيه، الطافحة بجراءة الفساق، وجبن العلماء؟ أيحسب عاقل أن هذه أسباب النصر والتحرر؟

إن فى بلادنا من يدافع عن حرية الإلحاد، والسكر، والزنى، بلسان طلق، فإذا حدث عن حرية الإيمان والعفاف واليقظة الفكرية والأدبية امتعض واشمأز، فهل يجر الهزيمة والعار إلا مثل هؤلاء؟ والله عز وجل ما أكرم أحدًا قط لصورة اللحم

والدم، إنما أكرم من عباده من زكت شمائلهم، وطهرت سرائرهم، وصلحت علانيتهم، وساروا فى أرضه دعاة له، يمجدون اسمه، وينفذون حكمه، ويرفعون علمه.

من استجمع هذه الخلال فهو سيد، وإن كان من الجنس الأبيض أو الأصفر أو الأسود، فما للون ولا للنسب وزن عند الله.

وقد ذكرنا أن بنى إسرائيل كرموا ونعموا يوم حملوا رسالة التوحيد، وتحملوا فى سبيلها العنت.

ثم زعموا بعد ذلك أن تكريمهم وتنعيمهم ليس لهذه الأسباب، إنما هو لأنه بينهم وبين الله صلة خاصة، جعلت جنسهم ممتازا على الخلق كافة.

بم هذا الامتياز؟ لقد قال الله لهم ولمن زعم زعمهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾.

والغريب أنه فى هذا العصر الأعجف فعل العرب مثل ما فعل اليهود الأقدمون، فقالوا: نحن عرب، عظمتنا ليست من رسالة الإسلام التى درسناها وطبقناها، لقد كنا أمة عريقة قبل أن يجيء الإسلام، ويمكن أن نكون أمة عريقة بعيدًا عن تعاليم الإسلام.

ومن ثم قامت فى بلاد العرب نهضات تؤخر الدين وتقدم الجنس.

وهذا كلام من أبطل الباطل، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمة نكرة، وبغير الإسلام سيكونون ذيلاً للبشرية.

إن نبذ الوحى الإلهى والافتخار بمكانة مفتعلة عند الله أو عند الناس أمر عابه على بنى إسرائيل، ويعيبه على العرب أبناء إسماعيل.

وفى هؤلاء وأولئك يمكن أن يساق قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ومما يندى له جبين المسلم المخلص فى هذه الأيام السود أن اليهودى الأمريكى طرح جنسيته وجاء فلسطين باسم الدين.

أما العرب فيقال لهم: انسوا الدين واعتصموا بجنسيتكم العربية وحدها.

فماذا كانت النتيجة؟

أضاعت القومية العربية فلسطين، وظفر بها اليهود وأقاموا بها إسرائيل.

حيـــاة المجـاهـد

ليست حياة المجاهد فى ميادين القتال هى الحياة الرتيبة التى ألفناها، ولا معيشته هى المعيشة السهلة المريحة التى عرفناها، فإن التعب عنصر مشترك فى كل ساعة من ساعاته.

عليه أن ينتظر تخلف ضروراته عن موعدها، وأن يتحمل فراغ البطن، وجفاف الحلق، وطول السهر، وكثرة السفر، وحدوث المفاجآت، ووقوع المضايقات.

غير أن شيئًا من هذا لا يجوز أن يخذل مؤمنًا عن الجهاد، ولا أن يؤخره عن أداء الواجب المكتوب عليه لنصرة الله ورسوله ﷺ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

والمغارم والمصارع والجروح الخفيفة أو الغائرة، أمور معتادة فى الحرب، فلا يجوز أن نجزع لها أو نتراجع تحت وطأتها. وما يصيبنا من هذه الأحداث هو شهادة نلقى الله بها، ووجوهنا نضرة، ونفوسنا مستبشرة.

من جرح جرحًا فى سبيل الله، أو نكب نكبة، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك.

وفى الوقت الذى تشهد فيه على الفجار جوارحهم بما اقترفوا من آثام تكون جروح المجاهدين دلائل ناطقة بما تحملوا فى ذات الله وما بذلوا فى سبيل الله.

إن الإسلام لا ينشئ الحرب إنشاء، إنما يلجأ إليها إلجاء، والمحرج يدفع عن نفسه كيف يشاء، ويثير الحفائظ، ويستصرخ الهمم، ويحشد الجهود، ويستنفد آخر ما لدى المؤمنين من طاقة وحول؛ ليمهد لنفسه ويزيح العقبات من طريقه.

ولذلك يقول الله لنبيه: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾.

فلا غرو أن يجعل الله فترة الجهاد كلها سلسلة حسنات لصاحبها؛ حتى يتعلم المسلمون الاستقتال فى رفع رايتهم وتدعيم مكانتهم؛ وحتى تكون حياتهم إعدادًا واستعدادًا، لا ينتهيان حتى ينتهى الليل والنهار، فلا يضن أحد بنفقة، أو يبخل بجهد، أو ينكل عن تضحية، وكل غال فى سبيل إعلاء الحق يهون.

ساروا مع رسول الله ﷺ ليلة ساهرة يوم حنين، فأطنبوا فى السير حتى كان عشية، فحضرت صلاة الظهر فجاء فارس، **وقال: يا رسول الله.. إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت فوق بعض الجبال، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم ـ بظعنهم ونسائهم ونعمهم ـ اجتمعوا إلى حنين. فتبسم الرسول ﷺ قائلاً: تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله، ثم قال ﷺ: من يحرسنا الليلة؟** فقال أحد الفرسان: أنا يا رسول الله. **قال** ﷺ: **اركب، فركب فرسه وجاء إلى الرسول مستعدًّا.**

فقال له الرسول ﷺ: **استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه، ولا تغرن من قبلك الليلة ـ أى لا يخدعك أحد من العدو ـ فلما أصبحنا خرج الرسول** ﷺ **إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: هل أحسستم بفارسكم؟ قالوا: لا، ما شعرنا به.. فثوب بالصلاة، فجعل الرسول** ﷺ **يصلى وهو يتلفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا فقد جاء فارسكم، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشعب الكثيف، فإذا به قد جاء حتى وقف بجوار الرسول** ﷺ، **فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرتنى يا رسول الله، فلما أصبحت استكشفت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحدًا.**

فقال له الرسول ﷺ: **هل نزلت الليلة؟ قال: لا.. إلا مصليًا أو قاضى حاجة، فقال له الرسول** ﷺ: **لقد أوجبت ـ أى لنفسك الجنة ـ فلا عليك ألا تعمل عملاً بعدها.**

زعـــم بـــاطـــل

كان إسرائيل رجلاً صالحًا يحيا مع أولاده فى بادية الشام، كان رب أسرة كبيرة من هذه الأسر التى تنتظر رزق الله فى أرضه الواسعة. لم يكن صاحب إقطاعيات ضخمة، ولا سلطة معروفة، وما يزيد عن غيره من البدو إلا بدعوة التوحيد التى حرص عليها. وكان أولاده ـ حاشا يوسف الصديق عليه السلام ـ أصحاب خلق ردىء، وغيرة ذميمة، وعندما أجدبت البادية، وتعرض سكانها للمجاعة، استضاف يوسف أباه وإخوته؛ ليجدوا فى مصر كهفًا يأوون إليه ويطعمون من خيره. وشكرًا لهذه النعمة، وتنويهًا بحقها، وتوديعًا للماضى المؤسف جاء على لسان يوسف لأبويه وإخوته: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، وقولــه كذلــك: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾.

فهل إذا استضافت مصر أسرة محرجة كان ذلك صك عبودية لمصر؟ أى ضيافة فى الدنيا تتبعها هذه المزاعم؟ ما كان إسرائيل صاحب حقوق فى بادية الشام، ولا كان صاحب حقوق فى وادى النيل. ثم نمت العائلة الضيفة ووقعت بينها وبين المصريين جفوة لم تتبين أسبابها بجلاء، هل ترجع إلى أن أفرادها كرهوا الاندماج فى الشعب المصرى؟ أو ترجع إلى أن أفرادها لم يشتركوا فى مقاومة الغزاة الذين هاجموا مصر؟ أم كلا الأمرين؟ إلا أن هذه الجفوة حوَّلها فرعون إلى حرب إبادة لا عدل فيها ولا رحمة. وقضت حكمة الله ألا يتجاور الشعبان فى أرض واحدة، فبعث موسى عليه السلام بطلب معقول، هو السماح لبنى إسرائيل بمغادرة البلاد، فناشد موسى فرعون أن يقبل ذلك:

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

إلا أن جنون العظمة استبد بفرعون، وأبى الأحمق إلا أن يدخل فى عناد مع القدر انتهى آخر الأمر بمصرعه. ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين، وأراد

موسى عليه السلام أن يدخل بهم فلسطين؛ ليجدوا فيها الأمن الذى ينشدون، وكانت فلسطين عصرئذ مسكونة بنفر من الجبابرة العتاة، ما كاد نبأهم يقرع مسامع بنى إسرائيل؛ حتى ضجوا من الفزع، وأبوا إباءً تامًا أن يجيبوا موسى إلى طلبه. ومنذ ترك موسى وقومه مصر أخذت المخازى النفسية لليهود تتكشف، ويظهر أن هذه المخازى كانت مطوية تحت ثياب الذل والمسكنة، فلما شعروا بالتحرر؛ أخذوا يجمحون يمنة ويسرة دون ضابط، وكان موسى عليه السلام أول من تعرض لأذى قومه، وسوء عشرتهم، واستجابتهم وتقديرهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾. وقضت حكمة الله أن يؤدب بنى إسرائيل، فأتاهم فى صحراء سيناء أربعين سنة مات خلالها هذا النبى الكريم وهو ضائق بقومه، وهلكت فى التيه الأجيال التى لا تصلح للحياة والجهاد، ونبت جيل آخر كتب الله له أن يدخل فلسطين. نعم دخلها لينفذ سنة كونية لم يمض كبير وقت بعدها؛ حتى تطبق عليه نفسه هذه السنة الصارمة، فتنفذ فيه كما نفذت فيمن سبق. إن الجبابرة السابقين احتلت أرضهم وغلبوا على أمرهم، ثم جاء بنو إسرائيل من بعدهم؛ ليقيموا حكمًا دينيًا صالحًا يوفر لهم ولغيرهم الأمان والإيمان. وكانت التوراة بين أصحابها دينًا ودولة، وكان لهم فيها هدى ونور. فهل أقام بنو إسرائيل ذلك المجتمع المنشود، وأخلصوا لله فيه؟ إنهم سرعان ما فسقوا عن أمر الله واستشرت فيهم العلل التى أومأنا إليها آنفًا. فإذا بختنصر وقومه يهجمون على المتدينين الكذبة، ويدمرون هيكلهم، ويسوقون الألوف المؤلفة من شبابهم أسرى إلى (بابل)، وانهارت إسرائيل ولما يمض على تكوينها زمن يذكر. ومنح الله بنى إسرائيل فرصة ثانية، فتحرروا من الأسر البابلى واستردوا قواهم الضائعة، وأقاموا الهيكل، واستأنفوا تاريخهم، بيد أن العلل الكامنة فى دمائهم لم تفارقهم، وتفاقمت شرورهم بالعدوان على رسل الله، واستباحة دمائهم. وقد أنهى الرومان الحكم الإسرائيلى الثانى، واحتلوا فلسطين كلها. فكم تظن مدة الحكمين اليهوديين لفلسطين؟ قرابة مئة وثلاثين سنة.. ولم يكن هذا الانهيار السياسى ختام الوجود الدينى لليهود، بل كان ختام وجودهم الدينى كما ذكرنا تكذيبهم لرسالة عيسى بن مريم عليه السلام، فإن الله جل وعز نقل النبوة بعدها إلى العرب، وبذلك انتهى دور بنى إسرائيل فى توجيه الضمير البشرى.

هل حكم بنى إسرائيل لبقعة ما فى الشرق الأوسط قرنًا أو قرنين يعطيهم فيها حقوقًا أبدية؟ اللهم، لا.. إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما تسلم القدس من بطريقها المسيحى اشترط عليه هذا البطريق الناصح ألا يدخل اليهود القدس، وليتنا تذكرنا هذا الشرط، ولكننا ننسى، وقد عرف المؤرخون أن تسامحنا الدينى الطويل تحول إلى غفلة دفعنا ثمنها فادحًا.

سلام اليهود فى الماضى والحاضر

عندما جاء الإسلام إلى المدينة المنورة وهو دين الإنصاف عرض على اليهود معاهدة للسلام قال لهم: نقر حرية التدين، نعترف بحرية العقل والضمير، لكل إنسان أن يعتنق الدين الذى يحب، وأن يبقى عليه ما يشاء،وبيننا وبينكم فى المدينة جوار، فلنرع حق الجوار، ولنتعاون فى دفع أى عدو يفكر فى الهجوم على المدينة بوصف أن لنا مصالح مشتركة فيها، فهى وطننا الذى يضمنا والبلد الذى يؤوينا!! ولم يجد اليهود بدًا من أن يقبلوا المعاهدة؛ لأن فيها الإنصاف والعدالة، ولا معنى لاعتراض هذا الكلام، قبلوا المعاهدة على مضض، أمضوها برضا ظاهر، ولكن ضيقهم النفسى بها بدأ يظهر على مر الأيام، امتد شطط اليهود فى معاملاتهم وعلاقاتهم بالإسلام، كان ينبغى أن يكونوا محترمين للمعاهدة التى أُبرمت بينهم وبين المسلمين، ولكن كيدهم للإسلام أخذ يتزايد، ووضعوا خطة فيها شىء من المكر والدهاء، قالوا لا بأس أن ننفى عن أنفسنا تهمة التعصب، وأن يدخل بعض منا فى الإسلام على أساس أنه يتوسم فيه الخير، ويظن به الحق، ثم بعد قليل يرجع عنه ويرتد ويقول: ظهر لنا أنه دين لا يصلح، لقد كنا غير متعصبين، ودخلنا فيه، فلما انكشف لنا أنه باطل وضلال تركناه!!

هذه هى الخطة التى وضعوها، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾. وصبر المسلمون على هذا التحدى، وهذا المكر، وتلك المؤامرات، ولكن اليهود مضوا فى طريقهم، طريق العداوة، يقولون: ما لهذا الرجل يتبع قبلتنا ولا يدين بديننا؟

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى مكة يرى أن الأصنام المحيطة بالكعبة تمنع من اتخاذها قبلة، فكان يتجه إلى بيت المقدس إشعارًا بأنه نبى له كتاب،

وأنه موحد، وأنه يرفض الوثنية، ولما انتقل إلى المدينة المنورة مهاجرًا هو وأصحابه بقي الأمر على ذلك، فكان اليهود يضيقون، ويقولون مبكتين أو منكتين: ما لهذا الرجل يتبع قبلتنا ولا يدين بديننا؟ فتمنى الرسول ﷺ ودعا دعاءً حارًا أن يصرفه عن هذه القبلة وأن يعزم له على قبلة أخرى، وكان ينظر إلى الأفق متشوقًا إلى خبر يجيء من السماء يأذن له بالاتجاه إلى القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ولما تسافه اليهود، وكثر لغطهم، وتحدثوا عن تغيير القبلة حديثًا فيه شيء من العدوان والتحدي، قال لهم القرآن الكريم: إن التعلق بالشكليات هو عمل التافهين من الناس، وإن الأمر عند الله ليس أمر شرق أو غرب، أو شمال أو جنوب، إن الأمر عند الله أكبر من ذلك، إن الله يقرب الإنسان إليه يوم يكون الإنسان صادق اليقين، شريف الأخلاق، حسن التعاون مع الناس، صبورًا على البأساء والضراء، مؤديًا لحقوق ربه، يصلي له ويصوم، ويزكي من أجله وينفق، يوم يكون الإنسان كذلك يكون عبدًا صالحًا، أما الشكليات فلا قيمة لها، ما التعلق بقبلة هنا أو هناك؟

إنها أمور رمزية فقط، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

وحكى سبحانه ستة عناصر يتكون البر منها:

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

ومضى اليهود فى تحديهم، كان الكلام فى تغيير القبلة فى شهر شعبان، كان الكلام والجدل الطويل حول بيت المقدس والمسجد الحرام، فى شهر شعبان، فى رمضان وقعت معركة (بدر) وقال اليهود بعد أن رأوا النصر الحاسم الذى أحرزه المسلمون، قالوا للمسلمين: لا تغتروا إن وجدتم ناسًا لا يحسنون الحرب فهزمتموهم، لئن التقينا بكم لتعلمن أنا نحن الناس!

هذا النوع من التحدى غريب، وانضم إليه أن شعراء اليهود أخذوا يرثون قتلى قريش فى معركة بدر! وهذا تصرف منكر، فإن المعاهدة المبرمة تحولت بعد ذلك كله إلى حبر على ورق! وإذا كان اليهود فى المدينة يعاملون المسلمين على هذا الأساس، فإن الوفاء بالمعاهدة من جانب واحد يصبح نوعًا من الضعف! ومع ذلك فإن النبى الحليم الكريم ﷺ والصحابة رضى الله عنهم من حوله، كانوا يصابرون الأيام حتى يقع ما لابد من وقوعه وخان اليهود المسلمين ونقضوا المعاهدة تلو المعاهدة كشأنهم دائمًا؛ فاستحقوا الطرد من المدينة المنورة ثم من الجزيرة العربية بكاملها.

طبيعة الرسالة الخاتمة

تمتاز بعثة محمد ﷺ بأنها عامة ودائمة، والله عز وجل يستطيع أن يبعث فى كل قرية نذيرًا، ولكل عصر مرشدًا، وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين، فلم استعيض عن ذلك كله برجل فذ؟ الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الذى يحصل المعنى الكثير فى اللفظ اليسير، وبعثة محمد ﷺ كانت عوضًا كاملاً عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار، بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض قدماه، ما بقيت على الأرض حياة، وما تطلعت عين إلى الهدى والنجاة، ولكن كيف ذلك؟ فى المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين: أغمض عينيك واتبعنى، أو: لا تسلنى عن شىء يستثيرك! وربما تكون السلامة فى طاعته، فأنت تمشى وراءه حتى تبلغ مأمنك، إنه فى هذه الحال رائدك المعين، الذى يفكر لك، وينظر لك، ويأخذ بيدك، فلو هلك هلكت معه. أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير، وحذرك مواطن الخطر، وشرح لك فى إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون المتاعب، وسار معك قليلاً ليدربك على العمل بما علمت، فأنت فى هذه الحال رائد نفسك، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك. إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج أما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأى من الناس، والله عز وجل عندما بعث محمدًا عليه الصلاة والسلام لهداية العالم، ضمن رسالته الأصول التى تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون، والقرآن الذى أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حى، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشد. لم يكن محمد ﷺ إمامًا لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه، فلما انتهى ذهبوا معه فى خبر كان، بل كان قوة من قوى الخير، لها فى عالم المعانى ما لاكتشاف البخار والكهرباء فى عالم المادة، وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور فى الوجود الإنسانى، كان البشر قبلها فى وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده، وجاء الخطاب الإلهى إليه عن طريق محمد ﷺ يشرح له كيف يعيش فى الأرض، وكيف يعود إلى السماء فإذا بقى محمد ﷺ أو ذهب؛ فلن ينقض ذلك من جوهر رسالته، إن رسالته تفتيح الأعين والآذان، وتجلية البصائر والأذهان وذلك

مودع فى تراثه الضخم من كتاب وسنة. إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناسًا قلوا أو كثروا، إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذى يصح به وجودهم، والنور الذى يبصرون به غايتهم. فمن عرف فى حياته الحق، وكان له نور يمشى به فى الناس، فقد عرف محمدًا ﷺ، واستظل بلوائه، وإن لم يره ولم يعش معه، فأمامه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝١٧٤ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾.

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ، ويتشبث بثيابه وهو حى، أو يتعلق برفاته وهو ميت، فاعلم أنه طفل غرير، ليس أهلاً لأن يخاطب بتعاليم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها. فى مسجد النبى ﷺ بالمدينة رأيت حشدًا من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها، ولو خرج النبى حيًّا على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم، إن رثاثة هيئتهم وقلة فقههم، وفراغ أيديهم، وضياع أوقاتهم وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبى الإسلام ﷺ أَوْهَى من خيط العنكبوت. قلت لهم: ما تفيدون من جوار النبى ﷺ، وما يفيد هو نفسه منكم؟ إن الذين يفقهون رسالته ويحبونها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد ﷺ منكم. إن القرابة الروحية والعقلية هى الرباط الوحيد بين محمد ﷺ ومن يمتون إليه، فأنى للأرواح المريضة والعقول الكليلة أن تتصل بمن جاء ليودع فى الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا.. أهذا الجوار آية حب ووسيلة مغفرة؟

إنك لن تحب الله إلا إذا عرفت أولاً الله الذى تحب من أجله، فالترتيب الطبيعى أن تعرف قبل كل شىء: من ربك، وما دينك، فإذا عرفت ذلك بعقل نظيف وزنت بقلب شاكر جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من أجلك، وذاك معنى الأثر «**أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة وأحبونى بحب الله**»، ومعنى الآية:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

ثم إن نبى الإسلام ﷺ لم ينصب نفسه «بابا» يهب المغفرة للبشر ويمنح

البركات، إنه لم يفعل ذلك يومًا ما، لأنه لم يشتغل بالدجل قط، إنه يقول لك: تعال معى أو اذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعًا فى ساحة رب العالمين نناجيه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾. فإذا رضى عنك هذا النبى؛ دعا الله لك.. وإذا رضيت أنت عنه ووقر فى نفسك جلال عمله وكبير فضله؛ فادع الله كذلك له، فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

وليس عمل محمد ﷺ أن يجرك بحبل إلى الجنة، وإنما عمله أن يقذف فى ضميرك البصر الذى ترى به الحق، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ميسر للذكر، محفوظ من الزيغ وذاك سر الخلود فى رسالته.

اليهود في المدينة المنورة

استوطن اليهود فى الجاهلية التى سبقت الإسلام جزيرة العرب، كانوا يكونون لأنفسهم مستعمرات قوية حصينة فى المدينة المنورة، وشمال المدينة إلى خيبر، وأكثر المؤرخين يرى أن اليهود قدموا إلى هذه البقاع فرارًا من الاضطهاد الذى كان الرومان يوقعونه بهم، وأنهم فى جوف الصحراء وبعيدًا عن بطش الرومانية، استطاعوا أن يحيوا فى هذه البقاع على ما يشتهون، كانوا فلاحين مهرة، وكانوا كذلك تجارًا مهرة، وعاشوا يتاجرون ويزرعون، ويستغلون القبائل العربية استغلالاً للمصلحة اليهودية وحدها، فهم يبيعونهم السلاح، وهم يعاملونهم بالربا، وهم حريصون على إشعال نار الفرقة بين العرب، فإنهم ماداموا مختلفين يكون استقرار اليهود فى المدينة أبقى وأدوم، وهذه طبيعة اليهود!

هل فكر اليهود أن ينشروا دينهم فى الجزيرة العربية؟ لا؛ لأن اليهود ليسوا دعاة إلى دين، اليهود يعتقدون أنهم أسرة مفضلة، أو شعب مختار، وأن من حقهم أن يسودوا العالم وأن يستغلوه!

وكما نسوا الدعوة إلى التوحيد فإنهم استباحوا الربا، وكذلك عطلوا حد الزنا واستهانوا بالجريمة نفسها، وخلائق اليهود فى الاستهانة بالعقيدة وما ينبنى عليها من فضائل وما تورثه من ضمير يعاف الرذيلة وينفر منها، هذه الخلائق اليهودية لاتزال مع اليهود إلى الآن.

فلو أن اليهود ـ فرضًا ـ سادوا العالم وملكوه؛ فهل سيقدمون لدين الله خيرًا؟ وهل سيرفعون بتعاليم السماء رأسًا؟ أو يزكون بها نفسًا؟ لا، هذا شىء لا يخطر ببالهم! إن فكرتهم عن الله أنه اختارهم، وعن أنفسهم أنهم ينبغى أن يملكوا الأرض ومن عليها وما عليها!.. هكذا عاشوا، وهكذا يعيشون.

وعندما ظهر الإسلام وانتقل تحت الضغط والاضطهاد من مكة إلى المدينة، وجد اليهود ـ على النحو الذى وصفناه لكم الآن ـ ناسًا يسكنون بقاعًا خصبة، غنية، قوية، محصنة لهم فيها تاريخهم الجديد، وآمالهم العراض، وهم يعيشون مستغلين فرقة العرب ووثنيتهم؛ كى يحيوا هم، ويمتدوا وتنمو ثروتهم وتكثر.

فلما جاء الإسلام ـ والإسلام دين إنصاف ـ عرض على اليهود ما لا معدى لهم

عن قبوله، قال لهم: نقر حرية التدين، نعترف بحرية العقل والضمير، لكل إنسان أن يعتنق الدين الذى يحب، وأن يبقى عليه ما يشاء، وبيننا وبينكم فى المدينة جوار، فلنرع حق الجوار، ولنتعاون فى دفع أى عدو يفكر فى الهجوم على المدينة بوصف أن لنا مصالح مشتركة فيها، فهى وطننا الذى يضمنا والبلد الذى يؤوينا!

ولم يجد اليهود بدًّا من أن يقبلوا المعاهدة، لأن فيها الإنصاف والعدالة، ولا معنى لاعتراض هذا الكلام. قبلوا المعاهدة على مضض، أمضوها برضا ظاهر، ولكن ضيقهم النفسى بها بدأ يظهر على مر الأيام، كيف ظهر؟ يتحدث القرآن الكريم عن تاريخ العلاقة بين اليهود والمسلمين على نحو نحب أن نتدبره.

فهو أولاً يذكر: أن اليهود كرهوا الإسلام، وضاقت به صدورهم، وهذا تصرف غريب، فإن الإسلام دين توحيد، والذين يخاصمونه عباد أصنام، ولو أن اليهود يخلصون لله ولأنفسهم، ولو أن عندهم احترامًا للتعاليم التى ورثوها بينهم لقالوا: الإسلام أقرب إلينا من الوثنية، وعبادة الله أقرب إلى ديننا من عبادة الأصنام، ولذلك كان ينبغى أن يهشوا للمسلمين، أو على الأقل يدعوا المسلمين وشأنهم، لا حب ولا بغض، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن المشاعر النفسية لهم نحو الإسلام ونبيه فيقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.. ولماذا يودون ويتمنون أن يرجع الموحدون كفارًا يعبدون الأصنام؟ قال جل شأنه: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.. فماذا نصنع معهم؟ قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ووقع شىء آخر حكاه القرآن، فقد ذهب وفد من اليهود إلى مشركى العرب فى مكة يحرضهم على محمد ﷺ ومن معه! فسألهم زعماء مكة من عبدة الأصنام وقالوا لهم: حدثونا أنتم أهل الكتاب، وخبراء بما نحن عليه وبما يدعو إليه محمد، نحن أفضل منه أو هو أفضل منا؟ فقال زعماء اليهود: بل أنتم خير منه وأفضل!

وقص القرآن السؤال والإجابة عليه، وهى إجابة فاجرة، حتى أن بعض مؤرخى اليهود حزنوا لهذه الإجابة، وقالوا: ما كان ينبغى أن يكون رد اليهود بهذا الأسلوب المزعج، لأن تفضيل الوثنية على التوحيد جريمة منكرة!

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾.

صدق الله العظيم.

اليهـــــود والمعـــاهـــدات

تحولت المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود فى المدينة المنورة إلى حبر على ورق بسبب تصرفات اليهود المعهودة ونقضهم المواثيق والعهود؛ حتى أصبح الوفاء بالمعاهدة من جانب واحد هو جانب المسلمين، وأصبح هذا الوفاء يمثل نوعًا من الضعف.

ومع ذلك فإن النبى ﷺ الحليم الكريم والصحابة رضى الله عنهم من حوله، كانوا يصابرون الأيام حتى يقع ما لابد من معاقبته، وذهبت امرأة مسلمة إلى سوق (بنى قينقـ ع) تشترى حلية لها، فسخر اليهود بائعو الذهب منها وعلقوا شوكة بذيلها، فلما قامت تعرت وانكشف جسدها، فصرخت، فقام أحد المسلمين ورأى الوضع فقتل اليهودى الذى صنع هذا، فتمالأ اليهود عليه وقتلوه، وبلغ الأمر النبى ﷺ فحشد جنده وهجم بهم على سوق بنى قينقاع، وعلى القبيلة كلها وهى قبيلة يهودية ماجنة، وحاصرها حتى أكرهها على ترك المدينة.

هل فى تصرف المسلمين بعد هذا كله ما يشتم منه رائحة عدوان؟ لا، لقد صبر المسلمون حتى وقع ما لا يمكن السكوت عليه، فعاقبوا تلك القبيلة اليهودية، وكانت الضربة مفاجئة وسريعة بحيث سقط فى أيدى القبائل اليهودية الأخرى فعجزت أن تصنع شيئًا. والمعروف فى تاريخ البطولات والقيادات أن محمد بن عبدالله ﷺ كان يتمتع ـ بفضل الله وتوفيقه ـ بعبقرية عسكرية فريدة لا نظير لها فى دنيا الناس، فضرب ضربته وكل الحيثيات معه، ووقف عند هذا الحد.

لكن اليهود أبوا أن يتعلموا درسًا من هذا الذى حدث، وفكر يهود (بنى النضير) فى أن يقتلوا النبى ﷺ وانتهزوا فرصة ذهابه إليهم ليطالبهم ببعض الالتزامات التى تفرضها المعاهدة المبرمة، وقال بعضهم لبعض: فرصة تاحت ما نرى فرصة مثلها، لقد جاءنا خاليًا، وأوعزوا إلى أحدهم أن يصعد إلى سطح بيت كى يلقى منه حجر رحى على رأس النبى ﷺ وهو مسترسل لا يدرى ما يبيت له، فينتهوا منه.

لكن النبى ﷺ استبان من حركات اليهود وتصرفاتهم ما رابه، فانطلق مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا له: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما

همت به يهود، وجرد عليهم جيشه، وحاصر بنى النضير حتى كسر حصونها وحرق زروعها، وأنزلها على حكم الله، وتركها تخرج من المدينة لاحقة ببنى قينقاع.

كان ينبغى ليهود (بنى قريظة) وهم بقية اليهود فى المدينة أن يستفيدوا من ذلك، والحقيقة أن رئيسهم تعلم من الدروس التى مرت كيف يكون وفيًا؟ فلما دخل عليه في حصنه (حُيَيّ بن أخطب) سيد بنى النضير، وزعيم المتآمرين ضد الإسلام، قال له (كعب) زعيم (بنى قريظة): يا حيى اذهب عنى أنت رجل مشئوم، إنكم غدرتم بمحمد فأصابكم ما أصابكم، وأنا لم أر من الرجل إلا وفاءً وبرًّا، فدعنى منك، وأبى أن يفتح له بابه، ولكن اليهودى ظل يقرع الباب، ويرسل الكلام، ويقول له: يا مغفل جئتك بعز الدنيا، جئتك بعرب الجزيرة كلهم، قد حاصروا المدينة، ولن ينصرفوا حتى يجهزوا على محمد ومن معه، وأخذ يراوده فإذا الرجل السيئ المنكوب يتبع ما قيل له، وينسى الوفاء والبر اللذين لم ير غيرهما من محمد ﷺ وينضم إلى أعداء الإسلام الذين حصروا الإسلام والمسلمين داخل المدينة فى معركة كاد الإسلام فيها يزهق.

قال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

فى هذا الوقت العصيب انضم اليهود إلى المهاجمين، فلما نصر الله المسلمين فى هذه المعركة، وهو نصر ما كان مرتقبًا أبدًا، وما كان متوقعًا على الإطلاق، فلما انتصر المسلمون كان من الطبيعى أن ينتهوا من قريش والأعراب الذين حالفوها؛ ليتجهوا توًّا إلى بنى قريظة يؤدبونهم على غدرهم والخيانة العظمى التى ارتكبوها معهم، وانتهى الأمر بضرب رقاب بنى قريظة وهم بذلك جديرون.

ثم انتهى اليهود من المدينة بانتهاء بنى قريظة، فلما فر من فر، وبدأت المؤامرات تنبعث من (خيبر) اتجه المسلمون إليها، وأنهوا الوجود العسكرى اليهودى تمامًا فى هذه البقاع.

أربع معارك متتابعة مع قبائل اليهود المسلحة المحصنة المستعدة المعبأة، انتهت جميعًا بهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم.

غفلـــة المسلمـــين

إننا نلفت النظر إلى أن قوى الشر فى العالم تعمل ضد الإسلام بضراوة وقساوة، وهى تنظر إلى غير المسلمين فى العالم الإسلامى إلى أنه يصلح أن يكون عميلاً للاستعمار أو الصهيونية، وتحاول أن تجعل منه رمحًا فى ظهرنا، وحربة تشق أضلعنا، وعلى المسلمين ألا يكونوا مستغفلين، عليهم أن ينظروا إلى غير المسلمين نظرة فيها ذكاء، وفيها استبانة لما هنالك، فإننا نعامل بشرف من يطوى ضميره على الشرف، أما من باع ضميره للصهيونية والاستعمار، ويريد انتهاز الفرص للنيل منا؛ فليعلم أنه بين قوم أيقاظ، فإن نبى الإسلام ﷺ يقول: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**». ألا فليترك المسلمون استرسالهم وغفلتهم وسذاجتهم، ولينظروا إلى الغيوم المقبلة مع الأفق. إن مستقبل الإسلام خطير، تآمر عليه اليهود والنصارى فى أوروبا وأمريكا، تآمر الكل عليه لينالوا منه، فإذا لم نكن صاحين أيقاظًا فإن غير المسلمين ربما عبث بنا أو نال منا.

واتباعًا لتعاليم نبينا واستفادة من التجارب التى مرت بنا بدأت أنظر إلى التاريخ نظرة أتعلم منها، وأعتبر بها، فإن من لم يعتبر بماضيه، لم ينتفع بحاضره، ولم يضمن مستقبله، نظرت فوجدت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعدل حاكم ظهر فى القارات الخمس، يقتله كلب مجوسى متهمًا له بالظلم!! سبحان الله.. ما هذا؟ ويتبين من دراسة التاريخ أن مصرع عمر رضى الله عنه لم يكن قتلاً فرديًا من إنسان ظن كذبًا أو صدقًا أنه ظُلِم، لا، بل كان مؤامرة لليهود فيها ضلع، فإن رجلاً جاء إلى عمر رضى الله عنه وقال له: رأيت فى التوراة أنك ستقتل بعد ثلاث ليال؛ ما دخل التوراة فى مقتل عمر؟ ما هذا الكلام؟ والقاتل يهودى.. لقد كان اليهود يعلمون.

وقُتِلَ الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو يتلو القرآن الكريم، وعلم أن عبدالله بن سبأ ـ وهو يهودى ـ كان من وراء قتله.

وقُتل علىٌّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والأمر كذلك.

الخلفاء الراشدون الأربعة أعظم حكام الإسلام يقتل ثلاثة منهم، ما السبب؟ لقد ظهر لى أن التاريخ الإسلامى ينبغى أن يدرس بعناية، وأن المؤامرات التى تحاك

الآن ضد المسلمين كثيرة، وأن الشغل فى الظلام، والمؤامرات فى الخفاء ونيات الشر التى تعمل فى جنح الليل، هذه هى التى تعمل الآن ضد الإسلام.

تسمعون فى المؤتمرات الدولية كلامًا معسولاً، وقرارات حلوة، ولكن العمل فى الظلام هو الذى ينفذ، والحقد على الإسلام هو الذى يملى إرادته، وبدأ هذا الحقد على فلتات الألسنة، وفى تصريحات الساسة بدأ يظهر.

إن الروح المتعصبة الخسيسة التى كانت تعمل فى جوانح البعض عندما حرض أوروبا على العرب والمسلمين، هذه الروح لاتزال هى هى فى قلب زعماء أوروبا من يهود ونصارى.

لكن أنا لا أُحَمِّل هؤلاء التبعة، إنما أحمل التبعة حكام المسلمين وعلماءهم، لماذا؟ لأن مؤتمرًا كمؤتمر «بال» يعقد فى نهاية القرن التاسع عشر، ويبدأ عمله فورًا فى أوائل القرن العشرين، كأن العرب والمسلمين لا يدرون عنه شيئًا، أو ينظرون إلى مقرراته ببلاهة، أو لعلهم هنا أوزاع، ربما عارك أحدهم الآخر على أنه صلى ورأسه عارٍ، وتحولت التوافه إلى كبائر، واشتغل المسلمون بهذه الصغائر واستباحوا فيها الدماء والأعراض، حتى جاء أعداؤهم فوجدوهم مشتغلين على هذا النحو فسحقوهم، أين كنا يوم كانت هذه المؤامرات تقرر مصيرنا وتخطط لمستقبلها على أنقاضنا؟

يجب أن نبحث نحن المسلمين عن آثار العداوة ضدنا، إنها فى صمت، ودون ضجيج، بل ووراء ابتسامات صفراء تعمل قوى كثيرة بين ظهرانينا لتغتال الإسلام، لتمحق قوانينه وتقاليده، لتهين كرامته، لترمى بالعمامة البيضاء وحدها فى الأقذار، أما غيرها ولو كانت تاجًا على رأس خادم البقر فلها كرامة.

لعابد البقر، لسادن العجول كرامة من كرامة الدين المنتصر، أما الإسلام المهزوم فإن شاراته وشعاراته تداس، أريد من المسلمين أن يتركوا هذه الغفلة وألا ينظروا إلى التاريخ بهذه البلاهة، وأن يفكروا فى مستقبلهم تفكيرًا لا سذاجة فيه ولا غفلة.

الأمر جد، إن مستقبلهم ومستقبل أولادهم فى مهب الريح إن ظلوا بهذه المثابة.

لقد عاملنا الآخرين بشرف، ولكن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ

ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾.

والله لقد رأيت وجوهًا فى ١٩٦٧ ـ عام الخزى والعار ـ متهللة فى هذا البلد تصطبغ بالبهجة، وتخرج من معابدها مبتهجة، وكأن شيئًا لم يقع، لماذا؟!

أريد أن نخدم ديننا لا بالصياح الفارغ، ولا بالخطب الجوفاء، ولكن كما يخدم أهل الجد أهدافهم، وكما يبلغ أهل الجد أغراضهم.

اليهــــود فـــى ميــزان القــرآن

من الملاحظ أن التغير الذى حدث فى شمائل بنى إسرائيل أو التحول الذى وقع فى أخلاقهم كان جذريًا، بمعنى أنه إلى الآن لا يعرف فى شمائل اليهود أنهم يقودون إلى تقوى، أو يعرفون الناس بحق الله، أو يذكرون أحدًا بالدار الآخرة.

وقد تناول القرآن الكريم بنى إسرائيل فى أماكن كثيرة، حتى قيل: إن أحدًا لم يذكر فى كتاب الله لا من الأنبياء المرسلين، ولا من الملائكة المقربين، كما ذكر موسى عليه السلام فى كتاب الله، فقد ذكر نحو مائة وثلاثين مرة.

كما أن قصة بنى إسرائيل تكررت فى القرآن الكريم كما لم تتكرر قصة أخرى عن الأمم الأولى، عن الأقوام الذين تلقوا الوحى واستمعوا إليه، إما استماع طاعة وإما استماع معصية.

لابد أن يكون لهذا التكرار سبب، ولابد أن يكون لهذا التناول المستمر من حكمة قصد إليها الشارع الحكيم.

وقد اجتهدنا فى معرفة هذه الحكمة وتلمسها من مظانها الكثيرة، فوجدنا أن القرآن الكريم تحدث عن بنى إسرائيل فى مراحل من تاريخهم، فمرة تناولهم بالمدح وإعلاء الشأن والتنويه بالمكانة.

ففى سورة الدخان مثلاً يقول رب العزة: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والعبارة واضحة فى أنهم كانوا يومًا ما الشعب المختار، وأن اختيارهم لم يكن عن مجازفة أو عن إيثار فيه محاباة، بل اخترناهم على علم.

وفى سورة الجاثية يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فبين فى هذه السورة أن الله أكرمهم ومنحهم ورجحهم بميزات أدبية ومادية كثيرة والسورتان مكيتان.

فى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وفى سورة البقرة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فى القرآن المكى وفى القرآن المدنى وجدنا هذا الحديث الذى ينوه بمكانة بنى إسرائيل ويعلى شأنهم.. ما السبب؟

السبب أنهم فعلاً بدأوا تاريخهم بداية حسنة، فقد احتضنوا عقيدة التوحيد، ودافعوا عنها، وتحملوا البلاء فى سبيلها، وبذلوا جهودًا كثيرة؛ ليبقوا عليها وليعرضوها على الناس.

إذن كان بنو إسرائيل فى صدر تاريخهم من المراحل الأولى من حياتهم، كانوا أمناء على دعوة التوحيد، تحملوا فى سبيلها المتاعب، فلما صبروا على المتاعب التى فرضت عليهم ـ أو اختبروا بها ـ مكَّنهم الله وجعل أقدامهم راسخة فى العالم، وذكر هذا فى كتابه عندما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، أى جمعوا بين الصبر واليقين فى علاقتهم بالناس وحراستهم للدعوة.

وفى سورة الأعراف يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

كان الصبر والتحمل، كان اليقين والإخلاص، كان الصدق فى معاملة الله، كان كل ذلك سببًا فى أنهم مُكِّنوا.

وبنو إسرائيل لما بلغوا مكانتهم التى بلغوها بالصبر واليقين، كان يجب عليهم أن يستصحبوا هذه الأخلاق؛ حتى يبقى لهم تفضيل الله الذى تنزل عليهم، لكنهم لم يبقوا على هذه الأخلاق، سرعان ما أخذوا يتحولون.

لكى يبقى الإنسان عائمًا فى البحر أو سابحًا فى الأمواج يجب أن تضرب أذرعه بقوة إلى الأمام، حتى لو عاكسه التيار، فسيبقى عائمًا، لكن إذا انكسرت أذرعه أو توقف سبحه فسيسقط فى القاع.

تغيروا إذن، بعد أن كانوا يؤمنون بالله الواحد، وبعد أن كانوا يصدقون باليوم الآخر ويستعدون للقائه، وبعد أن كانوا يحاربون الأصنام ويخاصمون أهلها، وبعد أن كانوا يتحملون بصبر وجلد الأذى فى سبيل الله، تبخرت هذه الصفات بينهم، فأصبحوا شعبًا غليظ الرقبة، قاسى القلب، زاهدًا فى الآخرة، مقبلاً على الدنيا.

ثــم حــدث التغــير

حدث أن بنى إسرائيل تغيروا تغيرًا عجيبًا، فلما تغيروا؛ تغيرت الأوصاف التى كانت لهم، وتناولهم القرآن بشكل آخر، ففى سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أخذ القرآن يصف التغير الذى وقع عليهم، بعد أن كان هناك إيمان بالآخرة، وصفهم القرآن فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾. حب الآخرة يستدعى فى أحيان كثيرة أن تتنزل عن ثروتك لله؛ لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهؤلاء يعبدون المال، وعرف هذا فى مسالكهم، حتى أن الأدب الإنجليزى على لسان أديب الإنجليزية الكبير «شكسبير» عندما كتب روايته «تاجر البندقية» كان يقدم اليهودى التاجر على أنه مرابٍ مصاص للدم، لا يرحم محتاجًا، ويقرض لا ابتغاء آخرة ولكن طلبًا لدنيا يحرص عليها إلى حد الاستماتة. يمكن أن يكونوا عباقرة فى شئون المال، يمكن أن يكونوا عباقرة فى شئون السياسة، يمكن أن يكونوا عباقرة فى دغدغة الغرائز والإثارات الجنسية وعمل مباريات فى عالم الجمال أو عالم الرياضة، وتجعل الشعوب تتيه عن رشدها، وتفقد وعيها، وتنطلق كالحيوانات المجنونة لا يربطها هدف ولا تشدها غاية نبيلة، يمكن أن ينجح اليهود فى هذا كله، لكن فى ميدان الدين والخلق والعفة والروحانية والشمائل الرفيعة والخلق الرقيق أصبحوا لا مكانة لهم، فكانت النتيجة أن لُعِنوا على لسان داود وعيسى بن مريم، عليهم السلام، وكانت النتيجة أن قال الله الذى منحهم المآثر الأولى ومدحهم بما قال، كانت النتيجة أن

عاقبهم على التغير الذى وقع جذريًا فى سيرهم وأحوالهم فقال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومن الغباء أن يحسب أهل جيل أن العلو سيدوم، وأن من ارتفع اليوم ستبقى رفعته له غدًا. ومن الغباء أن يظن الناس كتاب التاريخ صفحة واحدة تبقى ماثلة أمام الأعين. إن التاريخ صفحات متتابعة، يطوى منها اليوم ما يطوى، وينشر منها غدًا ما ينشر، هنا لابد من أن نفهم العبرة، العبرة أن الله جل شأنه يختبر بالرفعة والوضاعة، يختبر بالزلزلة والتمكين، يختبر بالخوف والأمن، يختبر بالثروة يعطيها وبالفقر يرسله، يختبر بالضحك والبكاء، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾، يختبر بالأمرين، وعندما يختبر هو عالم بخلقه، ولكن القاضى لا يحكم بعلمه، إنما يحكم بين العباد بما يظهر من أمرهم حتى تنقطع الأعذار، وتخرس الألسنة التى مرنت على الجدل، فإن ناسًا سوف يبعثون يوم القيامة وهم مشركون، ويقولون لله: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. فلابد من إقامة الدليل على الناس من علمهم هم. يعطى المال ويقول لصاحبه: أعطيتك المال لا لأنك عبقرى ـ لأن العباقرة يمكن أن يموتوا جوعًا ـ لكنى أعطيتك المال أختبرك. نجد اقتصاديًا كبيرًا مثل (قارون) يقال له: إن الله موَّلك ومنحك، اعرف حق الله فيما آتاك، اتق الله فيما بسط عليك من رزق، اطلب الآخرة بما أوتيت فى الدنيا، لا تنس الله. يضيق الرجل بالله، وذكر الله، ورقابة الله، وتقوى الله، ويقول لهم: ما هذا بعطاء الله، هذه عبقريتى أنا: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾. هذا المال لم يأتنى منحة من السماء، ذكائى وعبقريتى وتجربتى وخبرتى بشئون الأسواق والمال هى التى جعلتنى كذلك، فكان هذا الشعور بداية الدمار الذى طواه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾. هذا اختبار سقط فيه رجل من بنى إسرائيل. اختبار آخر لرجل من بنى إسرائيل هو سليمان عليه السلام، اختبار بالسلطة. فإن سليمان وهو فى فلسطين طلب أن يجاء له بعرش بلقيس، وجيء له بعرش بلقيس،

ونظر الرجل العظيم فوجد أن سلطانه واسع، وأنه أوتى بسطة فى القوة غير عادية، فهل اغتر؟ لا، تواضع لله، وقال:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾. الحقيقة أنه بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للجماعات كلنا يختبر، وثق أيها الإنسان أن حظك من أقدار الله كبير، وأن مالك من جهد محدود، وأنك إذا كنت حسن الصوت؛ فلأن الله زودك بأوتار لم يزود بها غيرك، وإذا كنت واسع الذكاء؛ فلأنه زودك بكذا فى تلافيف المخ لم يزود به غيرك، وإذا كنت، وإذا كنت... ما من شيء تتميز به فى حقيقتك إلا وهو عطاء أعلى لا دخل لك فيه. ثم تختبر بعد ذلك فى هذا الذى أُعطيتَه اختبارًا دقيقًا، ترى أترد الفضل لصاحبه وتعرف الحق لله، وتقف موقف العبد الذى يستحى ممن منحه أن يبذل نعمه فى معصيته؟ أم ماذا تكون؟

مراجعة القلب والعقل

إن الله سبحانه وتعالى حكى لنا تاريخ اليهود فى أحوالهم؛ لكى نتعلم أن أمتنا عزها الله فى الإسلام، وفى إرضاء الله، وفى أداء حقه سبحانه وتعالى، فإذا تنكرت لكتابها وسنة نبيها ﷺ وعاشت لشهواتها وأهوائها؛ فلن تحصد من وراء ذلك كله إلا الضياع.

وأريد أن ألفت النظر إلى أمر لا يجوز أن ينسى: هذا العصر عصر الأديان، هذا العصر الذى نعيش فيه، عصر تمسك أصحاب الأديان بأديانهم، بل أكاد أقول: إنه العصر الذهبى للأديان كلها ما عدا الإسلام، فإن اليهودية من ثلاثين قرنًا، من ثلاثة آلاف عام ما كان يمكن أن تكون لها دولة أصبحت لها دولة، هذا عصر ذهبى لها، حتى الهندوسية التى تقدس الأبقار وتحترم القردة هى فى عصرها الذهبى الآن.

كل صاحب دين يذكر دينه ويملأ فمه به، لكن وجدت أن مؤامرة عالمية إعلامية تتواصى بأن ينسى العرب الإسلام، العرب بالذات.

فمثلاً أسمع إذاعات أجنبية تقول: إن الخط الفاصل بين الشطر المسيحى لبيروت، والشطر الإسلامى لبيروت حصل فيه كذا وكذا.. فهى تذكر المسيحية.

أما الإذاعات العربية فتتكلم عن المسيحيين بوصف أنهم يمينيون، انعزاليون، وكيت وكيت.

أما الوصف الذى يظهرون به ويعتزون به، ويعرفون به فلا يراد إظهاره، لماذا؟ يجب أن يعرف هذا.

تذكر قصة إيرلندا الشمالية وإنجلترا بطريقة مغشوشة. المعروف أن السجين الذى مات منتحرًا بعد أن ظل جائعًا ستة أسابيع أو تسعة أسابيع وهو يرفض أن يتناول طعامًا إلا ما يغذى به عن طريق الحقن، هذا كاثوليكى.. والكاثوليك هم الذين يقومون بالثورة ضد إنجلترا، وأنا أسمع اليوم أن البروتستانت فى إنجلترا أقاموا قداسًا فى كنيستهم الكبرى، وذكروا فيه القتلى الذين سفك دمهم الجيش الجمهورى الإيرلندى الكاثوليكى.

حرب دينية بين البروتستانت الحاكم والكاثوليك الذين يريدون الحكم، لكن يطوى هذا حتى لا يفهم المسلمون أن الناس تتمسك بأديانهم.



مناحم بيجن وهو رجل بولندى كذاب، جاء إلى الأمة التى لا وارث لها والأرض التى لا صاحب لها وأخذ فلسطين، يريد أن يقول: إن تحالفًا بين اليهود والنصارى هو الذى يبقى النصرانية فى لبنان.. والرجل كاذب بداهة.

النصرانية فى لبنان قائمة منذ أربعة عشر قرنًا ما أهلكها أحد، وكان المسلمون يستطيعون إهلاكها، ولكن أبوا تكرمًا، لماذا لا يذكر هذا؟

والنتيجة أن الأمة الإسلامية يراد أن تنسى ولاءها لدينها، بينما عابد البقر يتعصب لدينه، وتابع كل دين أرضى أو سماوى يتمسك بدينه، وبطريقة ما يراد أن ينسى المسلمون دينهم أو عنوانه أو تاريخه، لماذا؟

إن أمتنا يجب أن تكون أكثر يقظة وأكبر صحوة.

الواقع أنى أنظر إلى أحوال المسلمين فى عواصم كثيرة، فأرى شيئًا غريبًا.. فلسفة الرجل، أو فلسفة كرة القدم، فلسفة سفيهة، أية فلسفة فى كرة القدم؟

ومع هذا فإن من الكويت والخليج إلى القاهرة عشرات الألوف تنطلق هنا وهناك بجنون.

هذا لهو ولعب، فكيف تضيع صلاة الجمعة وصلاة العصر، وصلاة المغرب من أجل مئة ألف يتفرجون على ملعب كرة؟ هذا أمر عجيب!

اليهود يرفضون - لأنهم يقدسون السبت - أن تنتهك شرائع السبت، بينما الأمة الإسلامية ببساطة تنتهك شرائع الجمعة وشعائرها؛ لأنها تريد أن تلعب!

أخذنا ضمانًا من القدر بأن سننه الكونية لا تتأثر من اللاهين واللاعبين؟ هذا مستحيل، وفى الحديث: «**إن الله عز وجل يملى للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

على المسلمين أن يصحوا؛ حتى يدركوا أن فهمهم لدينهم على هذا النحو المتجاهل لا يقدمهم إلا إلى الذبح، وإلا ليكونوا علفًا لمدافع الأقوياء.

وعندما أنظر إلى أمتنا وهى تائهة فى هذا المجال، أسمع كلامًا غريبًا، يأتى إلىَّ سائل: آزر أبو إبراهيم أم عمه؟ كان أهل الكهف من إنجلترا؟ سماع القرآن من الإذاعة حلال أم حرام؟

هذا يعنى أن الأمة الإسلامية تشغل نفسها بأمور تحتاج إلى أن تراجع فيها قلبها وعقلها، فإنها إذا مضت فى هذا الطريق؛ فإنما تمضى إلى قبرها لا إلى نصرها.

إننى أنبه المسلمين أن يجدّوا فإن الأيام لا تلعب.

قصـــور فـــى الفـــهـم

ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد، توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها جبهة واحدة.

لا الفقه المذهبى، ولا هوامش العقيدة، ولا الأخطاء السياسية الفاحشة، أفلحت فى تقطيع الأمة الإسلامية، وتمكين أعدائها منها، حتى ظهرت بدعة القوميات فى العصور الحديثة، وانتقلت جرثومتها إلى أرضنا، فإذا هى بلاء يهدد الحاضر والمستقبل، وكان ظهور (القومية الطورانية) فى تركيا أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة.

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركيا؛ انتقامًا من السلطان عبدالحميد الذى رفض باسم الإسلام أن يستوطنوا فلسطين، ومع أنهم أغروه بالمال ـ وكان إليه محتاجًا ـ فقد أبى، ومع أن أوروبا كانت تظاهرهم؛ فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين، تمهيد لضرب الإسلام نفسه فى أوطانه كلها..

فماذا يفعل اليهود؟ لجأوا إلى الغزو الثقافى، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء (جمعية الاتحاد والترقى) ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش، فقامت ثورة أودت بالخليفة، وكان رد الفعل نشوء القومية العربية التى ظاهرت الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية فى العالم، وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية، استغنت بالقومية عن العقيدة، وجعلت الإيمان ـ إلى حين ـ ضيفًا ثقيلاً ينتظر منه الرحيل.

إن جماهير المسلمين لا تتنازل عن دينها، ولا تعدل بجامعته شيئًا، والذى حدث أن الاستعمار العالمى أول ما نزل ببلادنا ألغى الشريعة، واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية، ثم وضع خططًا بعيدة المدى للإجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين، وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض، والحرب بيننا وبينه سجال، وهى حرب رحبة الميادين، وأسلحتها لا حصر لها.. لقد استطاع أبو بكر رضى الله عنه أن يهزم

أعداء الله فى أول قتال مع المرتدين، فهل يستطيع رجالات الإسلام فى القرن الخامس عشر للهجرة أن يستعيدوا شرائع الإسلام التى عطلت؟ وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال، وأن يستبقوا المعروف معروفًا؟ والمنكر منكرًا؟ إذا انهزمنا فى هذه المعركة؛ فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن.

شبكات التنوير فى تعاليم الإسلام، ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة، لأن الوحى النازل على محمد ﷺ، جامع مانع كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وعندما يكون الدواء مركبًا من سبعين عنصرًا، فإنه لا يحصل الشفاء الكامل، إذا نقصت منه بضعة عناصر، بل قد يوصف الدواء - والحالة هذه - بأنه مغشوش، ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم ﷺ فى قوله: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**». إن هذه الشعب تتناول شئون الحياة جميعًا، فالإسلام ينظم شئون البيت، والشارع، والمدرسة، والديوان، وعلاقات المرء مع نفسه، والآخرين وواجباته فى الحرب والسلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة، وهو يعتبر الإنسانية رحم عامة توصل بالتعارف والخلق، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء، وفى الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة. والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم، كما نزلت إليهم، وأن يبينوا للناس كافة، وأن يكونوا فى حياتهم الداخلية صورة حسنة لها، وإذا وقع قصور فى الفهم، أو تقصير فى البلاغ، فهم مسئولون عن ذلك فى الدنيا والآخرة.

مساواة مرفوضة

جاءت ضربات الاستعمار السياسى والثقافى، وعلى قدر السعة فى ثقافتنا الإسلامية، ولست هنا أسائل نفسى وقومى عما كان منا وما نزل بنا فى هذه الأيام النحسات، فإن أيام المد ذهبت، وأعقبها جزر مزعج، وعلى قدر الجبهة التى عمل الإسلام فيها، كان الغزو العلمى والمدنى الذى تعرضنا له، وكان اقتحام أخلاقنا يتم فى وقت واحد، مع اقتحام حدودنا.

وإنى لأدرس المسرحيات التى تعرض من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية، كما تبدل فى الوقت نفسه أحكامنا على الأمور، وتصورنا للحاضر والمستقبل.

وإن سقوط بغداد وقرطبة أقل فى نظرى من سقوط أحكام العبادات والمعاملات، ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص، وتحقير المثل الإسلامية أبشع فى نظرى، من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا.

ومن هنا فإن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها فى الداخل والحديث عنها فى الخارج، أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسى لبلد ما، فى إحدى القارات.

ما قيمة هذا الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا؟

مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول فى المعركة بين العلم والدين.

وقيام عصر الإحياء فى أوروبا بعيدًا عن الوحى كله، ويبدو أن القوم لم يتغيروا فقد وقعت أخيرًا معركة فى الكنيست الإسرائيلى بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات، سببها أن الوزير قال: وليس كل ما فعله الملك داود جدير بالإعجاب.

يشير إلى ما نسب إلى داود فى العهد القديم، من اقتراف جريمتى الزنى والقتل، قالوا: زنى بزوجة «أوريا» الحثى ثم أوصى بقتله فى الميدان؛ حتى لا يعود ولا يسترد المرأة من عشيقها الملك.

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض. وقالت إذاعة لندن إنهم سيحرجون الحكومة كلها فى أول اجتماع.

ونترك بنى إسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر.

لقد جاءتنا من أوربا إلى إفريقيا، لتبشر بالمسيح حامل الألم عن هذا الورى ـ كما يقول شوقى ـ فماذا فعلت؟ تركت فى وسط إفريقيا عشرة ملايين إصابة بالإيدز، وهى تنشر الدين.

لقد حكمت بالموت على من قال: إن الأرض كرة تدور حول الشمس، أما اقتراف الزنى؛ فحسب من فعله أن يعترف، ويحيا آمنًا.

إن تزوير الدين على هذا النحو أزرى به،وزهد فيه، وأعطى الحكم العلمانى ألف سبب، ليحل محل الدين، ويبتعد عن الوحى كله..

ونحن دعاة المسلمين، نلقى العنت، حين نقدم القرآن للناس؛ لأن سيرة المسلمين مع دينهم، لاتشرف، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة يرونها أقرب إلى الفطرة والرشد.

ولا بأس أن أحكى ما وقع لى.. جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى، تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول فى شيكاغو وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى لمناسبة مرور ٥٠ عامًا على تأسيس هيئة الأمم المتحدة. وقيل لى بعد اختيارى عضوًا: إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوى أو أرضى، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأى دين.

المهم بالنسبة لى أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم، وأنا رجل شرفى الأول والأخير، أنى أقول وراء محمد ﷺ: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾.

أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذى وضع اللقمة فى فمى، وحين أفكر بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى، إنه يستحيل أن أكفر أو أسوى بين مؤمن وكافر أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها فى عمل ما؛ لرفع مستوى البشر.

الصهيـونيــة عقيــدة دينيــة

هل المسلمون الآن أضعف من اليهود يوم حملوا حملتهم علينا؟

لقد بدأت معركتهم ضدنا دعاية وتخطيطًا في السنتين الأخيرتين من القرن التاسع عشر في مؤتمر بال في سويسرا، وبدأت عمليًا عندما صدر وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧م، فهل كان اليهود يومئذ أقوى من المسلمين الآن؟ الجواب: لا.. كان اليهود يومئذ أضعف من المسلمين الآن؛ لأن اليهود لم تكن لهم دولة لا في الشرق ولا في الغرب، ولم تكن دول العالم تنظر إليهم إلا على أنهم جنس جرَّ على نفسه الخصومات بسبب العزلة التي فرضها على نفسه، والمسلك الاقتصادي والاجتماعي الذي آثره على امتداد التاريخ.

إلى جانب الأحقاد الدينية التي كانوا يبوءون بها؛ لأنهم عند كل نصارى العالم مسئولون عن قتل عيسى بن مريم عليه السلام، مسئولون أمام النصارى عن الوشاية به وحمل الدولة الرومانية على قتله كما يقولون، فكان اليهود شعبًا ممزعًا، وكانت آماله تشبه أحلام السكارى لا يصدقها أحد، ومع ذلك فإنهم استطاعوا أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن، وما وصلوا إليه الآن خطير، فقد حازوا فلسطين إلا بقايا لا وزن لها، واستطاعوا أن يضموا إلى أرض فلسطين أرض الجولان وأرض سيناء، وأنكى من هذا وأقسى أنهم في موقف المتحدي الذي يملي شروطه، الجريء الذي ينظر إلى عدوه شزرًا، صاحب الحق ـ بحكم الأمر الواقع ـ الذي ينظر إلى أصحاب الحقوق الأصلاء وكأنهم أدعياء، أو متسولون يطلبون ما لا يصح لهم ولا ينبغي منهم.

ما الذي وصل بالأمر في هذا الصراع الغريب إلى هذه النهاية المحزنة؟ أريد أن أكون واقعيًا في استعراضي للأمور، لأنني أكره الكذب والصورية في تناول القضايا. هؤلاء الأعداء كانوا من ستين سنة صفرًا في ميزان القوى العالمية، فما الذي جعلهم الآن يستطيعون أن يقولوا للمؤتمرات العالمية: قولي ما تقولين فليس لما تقولين وزن؟ السبب في نفس الطريقة التي مشوا بها، فهؤلاء عرفوا دور العقيدة في تكوين النهضات، فقرروا أن يجعلوا هذه العقيدة طاقة يتحملون بها المتاعب، ويستهينون في سبيلها بالتضحيات الجسيمة، حوَّل اليهود العقيدة إلى

طاقة تجعل الغنى يعطى بالملايين، فأحد اليهود الأغنياء عندما بدأت الصهيونية تتحرك تنازل عن خمسة ملايين من الجنيهات من ماله، وبدافع العقيدة يذهب جامعو التبرعات إلى يهود فرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ويأخذون مئات الملايين من الدولارات، هذه بالنسبة إلى بذل المال، أما بذل الدم، فإن اليهود تركوا الجبن التقليدى الذى عرفوا به وبدءوا بدافع العقائد يصنعون العجائب، ينزل الواحد منهم عن شهواته فى معيشة المدينة حيث الأنوار والليل البهيج والراحة والترف ويجىء إلى صحراء فلسطين، يجىء إلى بلاد أقرب إلى البداوة، ثم يبدأ العمل لبناء الوطن القومى لليهود، عندما كانت سلطات الانتداب البريطانى تجىء باليهود أعدادًا كان اليهود يطلبون إلى النساء الحُبالى أن يذهبن على أن المرأة شخص واحد، ثم بعد شهور ستكون شخصين، العقيدة جعلتهم يحرقون فى أفران هتلر، ومع ذلك فإن الآلام لم تجعلهم ينكصون إلى الخلف، بل حملتهم على الاندفاع إلى الأمام. وأحب - هنا - أن أقرر أن الصهيونية عقيدة دينية، وأن كلمة اليهودية والصهيونية كلمتان مترادفتان. ومن شك فى هذا؛ فليرجع إلى العهد القديم؛ كى يقرأ بعينيه هذه الحقائق، فالصهيونية دعوة دينية مائة فى المائة، وما لحق بها من أطماع استعمارية، أو ما التصق بها من أهواء سياسية إنما هو شىء كاللفافات التى توضع على السلعة، أما السلعة الحقيقية فَتَدَيُّن محض. ما تقولون - أيها الإخوة - فى إنسان يجىء فيقول: إن مكانة مكة فى الدين الإسلامى مكانة سياسية أو اقتصادية وارتباطها بالعقيدة أو العبادة ارتباط شكلى؟ ماذا تقولون فى إنسان يزعم هذا الزعم؟ لاشك سيقال: إنه كذاب، لأن مكة قبلة المسلمين فى صلواتهم، ما رأيكم فى أن فلسطين بالنسبة لليهودية أهم من مكة بالنسبة للمسلمين؟!

لقد استمعنا طويلاً إلى ناس - إما جهلاء أو عملاء - يقولون: إن الصهيونية نزعة سياسية وليست عقيدة دينية، وأنا بلوت هؤلاء ورأيتهم وعاصرت بعض قادة الدول العربية سنة ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٦٩م، وهم يشيعون هذه الأكاذيب فى الأمة، ويسممون الفكر العربى والإسلامى، ويشيعون أكبر خدعة فى التاريخ العالمى وهى أن الصهيونية شىء واليهودية شىء آخر.

هـــدف واضـــح

عاش اليهود ملوكًا بيننا نحن المصريين فى أواسط هذا القرن، فلِمَ تركوا مصر إلى إسرائيل؟ هل فرارًا من اضطهاد؟ إنه نداء الدين وحده. وهم الآن يحيون ملوكًا فى أمريكا وأوروبا الغربية، ولكنهم عرضوا مصالح الأوطان التى وسعتهم للبوار. فى سبيل ماذا؟ فى سبيل إسرائيل، فى سبيل دولة دينية تجمعهم، فى سبيل الملك الذى تهفو إليه ضمائرهم، ويتلون آياته فى صحف العهد القديم على أنه وعد الله الذى لا يتخلف لهم ولذراريهم من بعدهم.

إن الصهيونية نزعة سياسية تولدت عن الاضطهاد النازى فى ألمانيا، ولكن اليهود قبل هذا الاضطهاد بسنين أو بقرون ـ كما رأيت ـ كانوا يحلمون بامتلاك فلسطين وطرد أهلها منها أو إبادتهم فيها.

ونحن لا نقر فى العالم أجمع أى تفرقة جنسية، ولكن مسلك اليهود فى ألمانيا كان هو أحد أسباب إهاجة الألمان عليهم وإيقا ع المذابح الشائنة بهم. لقد ظهر أن ولاء اليهود لأوطانهم الرسمية مزيف، وأن ولاءهم الأول هو لجنسهم وتاريخهم وأمانيهم الحرام فى حقوق الآخرين، وربما تعرض اليهود فى أمريكا بعد سنين معدودة لمثل ما تعرض له أسلافهم فى ألمانيا النازية، عندما يصحو الأمريكيون فيجدون أن مصالحهم فى العالم العربى والإسلامى قد تلاشت؛ لأن يهود أمريكا قد باعوا هذه المصالح فى سبيل قضاياهم الخاصة، والمهم ونحن نواجه معركة الحاضر والمستقبل أن نحذر من الببغاوات التى تردد بغباء كلمات لا تفهمها، وتريد بجهلها الغالب إبعاد اليهودية والإسلام عن المعركة، مع أن المعركة لا تعنى إلا القضاء على الإسلام لحساب القوى المعادية له:

ـ لا تبعدوا اليهودية والإسلام عن المعركة.

ـ التنادى بالإسلام هو صيحة النجاة.

إننا لقينا العنت من أولئك الشامخين بجهلهم، سواء أكانوا فى الصحف، أو الإذاعات، أو المسارح، وظاهر أنهم ثمار الاستعمار الثقافى لبلادنا، ذلك الاستعمار الناقم على الإسلام وحده، الحريص على تربية أجيال تكره شرائعه وفضائله، وترفض مناسكه وشعائره، وتنسى ماضيه وحاضره، تلك هى الأجيال



التى وقفت فى ميدان السياسة تصف الغزو اليهودى لفلسطين بأنه حركة عنصرية، أو عدوان محلى، أو تعاون بين الإمبريالية والصهيونية، أو تآمر رأسمالى على حركات التحرر الحديث، أو غير ذلك من الترهات التى أتقنها الجهل المستكبر الفاشى هنا وهناك، ولو أن واحدًا من هؤلاء ذهب إلى أقرب مكتبة، ودفع قروشًا قليلة أو كثيرة، واشترى العهد القديم وحده، أو الكتاب المقدس كله، ثم كلف خاطره القراءة فيه؛ لوجد التخطيط الدينى لإسرائيل الكبرى واضحًا فى صحائفه، ولوجد الكفن الذى يلف رفات العرب منسوجًا من كلماته، ولوجد حرب الإبادة التى تعرض لها قومه ناضحة بين سطوره، إن مؤامرة الاستعمار فى القرون الأخيرة خلعُ العرب من دينهم فى الوقت الذى يتحمس فيه كل ذى دين لدينه، إن صحف العهد القديم لم تكتف بحداء بنى إسرائيل كى يجيئوا من كل مكان إلى فلسطين، بل صورت لهم البقاع التى ينزلون بها، والحدود التى تفصل كل سبط عن أخيه، ووزعت عليهم دمشق وحماة وبيروت وعشرات من البلاد الواقعة قرب البحر المتوسط.

اقرأ هذه السطور من سفر حزقيال فى الإصحاح السابع والأربعين:

هكذا قال السيد الرب: «هذا هو التخم الذى به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثنى عشر:

- يوسف قسمان: وتمتلكونهما، أحدكم كصاحبه على الهيئة التى رفعت يدى لأعطى آباءكم إياها، وهذه الأرض تقع لكم نصيبًا.
- وهذا تخم الأرض: نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجىء إلى صدد.
- حماة وبيروتة، وسترائيم التى بين تخم دمشق وتخم حماة، وحصر الوسطى التى على تخم حوران.
- ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالاً، وتخم حماة وهذا جانب الشمال.
- وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرض إسرائيل الأردن من التخم إلى البحر الشرقى نفيسون، وهذا جانب المشرق.
- وجانب الجنوب يمينًا من ثامار إلى مياه مريبوث قادش النهر إلى البحر الكبير، وهذا جانب اليمين جنوبًا.

ـ وجانب الغرب: البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة، وهذا جانب الغرب فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل.

هكذا وضع أنبياء بنى إسرائيل الأقدمون خطة تمزيق العرب، وتقسيم تراثهم على أسباط إسرائيل.

وقد نقلت هذه السطور من العهد القديم، وإن كنت لم أفهم أغلب الأسماء التى تحدد تخوم الأرض، أو توضح اتجاهات الزحف اليهودى كما أوصى به كاتبو ذلك العهد. ويظهر أن اليهود لخصوا المراد فى الجملة المشهورة: «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل».

وهم أدرى بما فى كتبهم المقدسة، وأدرى بما يعنيه «حزقيال» متلقى هذه الخريطة عن الوحى الإلهى كما يدينون.

مفهـــوم أرحـــــب

أحب أن أقول باسم الإسلام المستوحش المكتئب كلمة حاسمة.

كلمة سوف تبدو غريبة على الآذان التى طمسها الهوان والإذلال أمدًا طويلاً، والتى مرنت على سماع الزور والباطل وحده:

إن الدين قد انتقل انتقالة واسعة عن المفهوم البدائى الضيق الذى ألفه الإسرائيليون، مفهوم الهيكل، ومملكة الرب، والشعب المختار، وحكم العالم باسم رب الجنود عن طريق حكماء صهيون أو بيت إسرائيل. إن هذه الكلمات المصورة لمعنى الدين أليق بالعهد البدائى الذى كانت قبائل إسرائيل فيه تغدو وتروح بقيادة رعاة محليين، يؤدون واجبهم حينًا، أو ينتقلون قبل هذا الأداء المفروض. لقد أصبح للدين مفهوم أرحب، ليس فيه هيكل مقدس، ولا شعب مختار، ولا أدب محتكر. حقيقة هذا الدين أن الله رب العالمين أجمعين على سواء، وأن التقدم عنده ليس بالنسب ولا بالادعاء، بل بالخلق الزكى والتقوى المهيمنة، لا كهانة هناك ولا تهاويل ولا هياكل، شيئان فقط هما أساس العلاقة بين الله الأحد، وبين كل إنسان يمشى على قدميه فى القارات الخمس: الإيمان، والعمل الصالح.

إن محاولة بنى إسرائيل مسخ مفهوم الدين على النحو الذى جمدوا عليه من عشرات القرون جريمة فاحشة لا يمكن قبولها.

لقد جاء عيسى بن مريم عليه السلام؛ ليكسر القيود الصلبة التى أراد بنو إسرائيل حبس الدين داخلها، وكان مجيئه تمهيدًا للرسالة الخاتمة التى مزجت الدين بكل أشواق الإنسانية الرفيعة من الإيمان المهدى والأخوة العامة، حيث لا مكان للتسامى إلا بالقلب السليم والفكر السليم، نعم بعث الله محمدًا ﷺ مسويًا بين أجناس البشر فى الولاء للحى القيوم، مسقطًا كل سلطان مفتعل فى ميدان الروح أو فى ميدان المال، فإذا أراد اليهود أن يلحقوا بقافلة الإنسانية الحرة المتآخية، فلابد أن يؤمنوا بعيسى ومحمد، وإذا كانوا حريصين على استعادة مجدهم القديم فطريق الخلاص مفتوحة أمامهم، ولكى يعرفوها جيدًا قال الله لهم:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾. إن اليهود يحلمون أن يحكموا العالم من هيكلهم، وهم مصرون على تصديق ما لديهم وحده، وتكذيب كل ما جاء به عيسى ومحمد، وما لديهم مزيج من وحى الله وهوى الأنفس، ولو افترضنا جدلاً أنه حق لا ريب فيه، فإن الوقوف عنده وحده، ونبذ ما أوحى الله بعده، مسلك لا تصلح به الدنيا ولا يسعد به عباد الله، ومن هنا اشترط الإسلام أن يكون الإيمان بكتب الله كلها، ورفض ما سوى ذلك من إيمان مبتور، فقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾. وعلى لسان موسى عليه السلام ـ كبير أنبياء بنى إسرائيل ـ ذكر ربنا جل جلاله أن أبواب رحمته مفتوحة لعباده، وأن الصلحاء الأتقياء يستطيعون دخولها متى شاءوا، فعندما دعا موسى عليه السلام: ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ﴾ كان الجواب الإلهى له: ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾.

إن قيادة العالم باسم الله ليست مهمة سهلة يستطيعها اليهود بمهارتهم المالية وألاعيبهم الشيطانية، وتسخيرهم للشعوب المفرطة، وانتهازهم للفرص المتاحة، وقد نبأ القرآن الكريم أن التاريخ اليهودى سيتفاوت بين مد وجزر، ومعصية وطاعة، وهزيمة ونصر. وقال لهم بعد هدم هيكلهم الأثير: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾، وقال لهم أيضًا: ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ ﴾، أى إن عدتم للفساد عدنا للانتقام، وقد عاد اليهود إلى فلسطين ـ لأسباب شتى ـ فكيف عادوا؟ وما هى مثلهم العليا، وما مواقفهم من وصايا الله للنبى الخاتم والنبى الذى

سبقه وبشر به؟ لقد عادوا متشبثين بما لديهم وحده، مكذبين لكل ما جدّ بعد. وكسبوا نصرًا بعد نصر.. على من؟ على أوزاع من العرب جهلوا رسالتهم، ونسوا تاريخهم، وعاشوا فى دنيا الناس أذنابًا، وعن كتاب الله وهدى نبيه غرباء، إن مجموعة الشعوب الإسلامية تشعر بجزع مر لا للحروب التى جرت بين العرب واليهود، ولكن للطريقة التى جرت بها هذه الحروب، ولمظاهر الانحلال والفسق عن أمر الله التى ملأت جوها.

كان العرب أزهد الناس فى كتابهم، كان اليهود ألصق الناس بتوراتهم، كان اللص متحمسًا فى الهجوم، وكان رب البيت باردًا فى الدفاع، وبلغ نجاح الغزو الثقافى لبلادنا أن الحرب تعلن علينا لفرض دين، واجتياح أمة، ومع ذلك تتبارى وسائل الإعلام فى تضليل الفكر العربى، وتصف هذه الحرب بأى شىء إلا أنها تتصل بالدين، ولم ذلك؟ حتى لا يستيقظ الوعى الإسلامى العارم، وتتجاوب الأصداء بضرورة العودة العامة الجادة إلى الإسلام لوقف هذا الفناء القادم، لكن آمالنا أن غرائز الأمم تصحو لملاقاة الخطر الداهم، وأن التنادى بالإسلام سوف يكون صيحة النجاة.

الصهيونية ميراث يهودى تلمودى

تعتبر الصهيونية فى بعدها السياسى والدينى والتاريخى مذهبًا سياسيًا عنصريًا مدمرًا، اتخذ من الدين سبيلاً للتأثير على العقول، وامتلاك النفوس، ومن دعوى الاضطهاد والدموع سراديب يسلكها إلى العطف العالمى، شأن المذاهب الخبيثة التى تخالف ما بين وسائلها وغاياتها، تعطف إليها القلوب بأساليب تبدو طاهرة بريئة، ثم تنفلت فى صمت إلى أغراضها المدمرة، وأهدافها الرهيبة.

تلك هى الصهيونية التى أرسى «التلمود» قواعدها، ومهد لها السبيل؛ لتنطلق فى جنبات العالم الفسيح، وقد ارتكزت أول نشأتها على إثارة عواطف اليهود، وهيج الحنين فيها إلى «صهيون» ـ أحد التلال التى تقوم عليها القدس، حيث أقام سليمان هيكله ـ فمضوا مع القرون، وصحبوا الأجيال فى التماس حلمهم الذى ظلوا فى طلبه على مثل لهفة المرتقب، وحيرة الضال، فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية: «الصهيونية هى التى خلقت مباشرة شعور الارتباط بصهيون، ذلك الشعور الذى قاد سبايا بابل إلى بيت المقدس، فأعادوا تشييده، فالحركة الصهيونية اليوم هى أعظم بل وأشهر حركة يعرفها التاريخ اليهودى منذ أقدم الأزمنة» (لوسيان وولف عام ١٩١٠م).

وهكذا ظل الحنين ماثلاً فى خواطرهم يزين لهم الجريمة للعودة إلى صهيون، ويناديهم بالعنف للسيطرة على فلسطين، وهذا نشيدهم المسمى: «على ضفاف نهر الأردن» يجهر بما هو أعمق مما ذكرت: «مثل قصف الرعد يشق لهيب السحب نصفين ـ يدوى فى آذاننا صوت صادر من صهيون وينادى قائلاً: يجب أن تظل نفوسكم تواقة إلى الأبد لأرض آبائكم وأجدادكم؛ حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس، ونعود إلى ضفاف الأردن، فى ذلك المكان الذى يجرى فيه الغدير هادئًا، ويهمس خرير الماء كالحلم اللذيذ، هناك سنحط رحالنا، ويكون شعارنا: حسام أرضنا وإلهنا، وعند ضفاف الأردن سنحط رحالنا، ألا فاطمئنى أيتها الأرض المحبوبة، إننا لن نعرف الهوادة، بل سننهض وننفض عنا الكسل، فقسمًا باسمك المقدس لن نتنصل من القتال، إذا ما دقت طبول الجهاد، وقسمًا بالسماء وآمالنا فيها سنكسر قيودك، ونرفع لواءك عاليًا، وسنواجه العالم بأسره، اعتزازًا بكرامة

قومنا، وإذا ما قرع نفيرنا ورفرف علمنا عندئذ سنحط رحالنا، وسيكون شعارنا: حسام أرضنا وإلهنا، وعند ضفاف الأردن سنحط رحالنا. إذن فليقرع النفير، وليرفرف العلم حتى نحط رحالنا».

بهذا الأمل ظلوا يتخطون السنين، وكلما طال عليهم الأمد زادهم الحنين تصميمًا على بلوغ الغاية، فما أن شعروا بفضل من قوة؛ حتى توسعوا فى معنى الصهيونية، فبعد أن كانت ترمى إلى «حشد شعب الله المختار فى مملكة إسرائيل» أصبحت تهدف كذلك إلى «احتلال العالم اقتصاديًّا» ليقع فى قبضتها، ويخر جاثيًا أمام جبروتها، وإذن فقد احتضنت وليدًا جديدًا صار منه أمرها إلى تعديل فى الوسائل وتوسع فى الغايات، وبذلك شملت أغراضًا ثلاثة: الإيمان بالعنصرية، والعمل على إنشاء دولة إسرائيل، والهيمنة على رأس المال فى العالم أجمع.

وهكذا حورت الصهيونية مطامعها حين واتتها الفرصة فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد تولى قيادتها حينذاك الصحفى النمساوى اليهودى «تيودور هرتزل» الذى يعتبر بحق أبًا للصهيونية الحديثة ومؤسسها، فقد أصدر عام ١٨٩٥م كتاب «الدولة اليهودية» ودعا فيه إلى إنشاء دولة يهودية، لتكون نقطة الارتكاز التى يثب منها الشعب اليهودى إلى تحقيق غاياته جميعًا، كما دعا إلى مؤتمر يهودى عام يضم أقطابهم وأحبارهم؛ ليتخذوا قرارًا أخيرًا بشأن هذا الوطن المرجو، وقد كان هرتزل مُعِدًّا لهذا المؤتمر عدته، فانعقد فى مدينة «بازل» بسويسرا عام ١٨٩٧م تحت رئاسته وتوجيهه، ولقد كان أبرز حادث فى هذا المؤتمر أن رسم للصهيونية الحديثة طريقًا عمليًّا للتجمع فى فلسطين بالذات لا فى الأرجنتين أو أوغندا كما كان مقترحًا من قبل؛ اعتمادًا على أن الشعور الصهيونى مهيأ للانطلاق نحو صهيون فى حرارة وإيمان، ولهذا فإن تيودور صاح فى نهاية المؤتمر: «الآن أنشأنا الدولة اليهودية».

على أن هذا الاختيار لم يكن من قبيل الرجم بالغيب أو التنبؤ بالمستقبل، فإن الأحداث العالمية حينذاك قد جعلت من فلسطين صيدًا ثمينًا للصهيونية، فإنها كانت فى منطقة نفوذ «الرجل المريض» تركيا، وكان الاستعمار ـ الإنجليزى الفرنسى ـ ينتظر الفرصة؛ ليثب على الرجل المريض فيزهق روحه وينعم بالميراث، ولم تعدم الصهيونية حيلة فى دفع الاستعمار إلى الحرب بما لها من بأس ونفوذ مالى مخيف، ولتكتمل فصول مأساة فلسطين رويدًا رويدًا.

السلاح الأول

يتضح لنا من الإصحاحات والأسفار والصحائف المقدسة عند اليهود ما يجعل العودة لفلسطين دينًا، وما يجعل التشبث بها عقيدة، وما يجعل القتال من أجلها عبادة وجهادًا وتضحية؟

يقولون: أهذا فى العهد القديم؟.. نعم فى العهد القديم، جاءنى بعض الناس بالعهد القديم وقرأت منه صفحات من سفر حزقيال وسطورًا من سفر أشعياء، واكتفيت بهذا، ولم أقرأ ما ورد فى هذا الموضوع فى أسفار ميخا وزكريا وغيرها، لقد بلغ من التوسع فى المكانة الدينية لفلسطين أن حزقيال يجىء بقصبة ويقول لليهود: يبنى الهيكل على النحو الآتى، ثلاث قصبات وتبنى بناء، سبع قصبات وتبنى مذبحًا، وهكذا فى صفحتين وضع التصميم الهندسى للهيكل، وبداهة يقوم الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

وبلغ من الترف أن سفر أشعياء قال: لبنان ستصدر اللبان لنساء إسرائيل عندما تقام، والعالم كله سيرسل ذهبه وفضته لمملكة «يهوه» التى يحكم بنو إسرائيل العالم منها، وقال لهم: إذا كانت الأم تترك رضيعها؛ فإن الرب لا يترك إسرائيل، غضب عليكم قليلاً لكنه سيعيدكم إليه إلى أرض إسرائيل، هذا كلام يتلى على أنه وحى، هذه عقيدة دينية تثير النشوة فى العروق، تثير الحماس فى الأعصاب، تثير التضحية باسم الرب، وكتب «وايزمان» فى مذكراته السياسية يقول: «إن اللورد بلفور ولويد جورج وغيرهم من قادة إنجلترا أعطونى الوعد بمشاعر دينية». فالقول بأن إسرائيل دولة علمانية أو دولة إمبريالية قول ساقط، والحقيقة الكبرى أن إسرائيل دولة دينية، والأساس عندها أن اليهودية وحدها هى الدين، وأن اليهود هم شعب الله المختار وأحق الناس بحكم العالم.

وعلى هذا أخذ الدين فى البناء اليهودى المعنوى والمادى مجالات شتى، فهناك حاخامات مسئولون عن تربية الأطفال، كما أن الجيش الإسرائيلى يقوم على جعل رجال الدين جزءًا من الأسلحة، فكما أن هناك جنرالات للدفاع الجوى أو المدفعية فهناك جنرالات حاخامات، فالتنظيم العسكرى وضع الدين سلاحًا، بل الدين هو السلاح الأول، والذى يصدر الأمر بالقتال الحاخام الأكبر، بوصف أن

الدولة دينية والحرب دينية، هذا المعنى، وهذا البناء، وهذا الأساس، وجد فى الصف المقابل لى، وفى الجانب المناوئ لى، هذا المعنى وجد عند اليهود، أما الصف العربى فعن طريق العمالة أو عن طريق الجهالة قرر سحب الإسلام بعيدًا عن القضية، المجتمع العربى من خمسين سنة والجهل فيه يتقدم والعلم يتأخر، وكما قلت فى مناسبة أخرى: إذا مشى مهرج فى الشارع احتفى الجمهور به، وإذا مشى أستاذ الهندسة الحاصل على جائزة الدولة التقديرية أنكره الناس، من يعرفه؟ لا أحد يعرفه، فى دولة عربية وقعت اشتباكات، وكان السبب أن الحاكم قدم دستورًا لم يجعل الإسلام فيه دينًا للدولة، وكان تعليق الكُتَّاب عندنا أن نزعات رجعية تحركت ضد الدستور التقدمى، هل التقدم أن تطلق الدين وأن تبتعد عنه؟ اليهود لم يطلقوا الدين، و«جولدا مائير» قالت سنة ١٩٦٧م: لقد نصرنا السبت فنصرنا السبت، تقصد أن أجدادهم لم يحترموا شعائر دينهم، وكما قال الله عز وجل: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾. فالعدوان فى السبت جريمة، وقد قرروا ألا يعتدوا فى السبت، دينهم يقول: العمل يوم السبت لا يجوز، وإيقاد النار يوم السبت لا يجوز، ولذلك لما ذهب «ابن غوريون» ومعه رئيس الدولة لتشييع جنازة «تشرشل» وافق ذلك يوم السبت، وكانت المسافة بين البيت والمقبرة آلاف الأمتار، فقرر المشيعون ركوب السيارات، أما «ابن غوريون» ورئيس الدولة فقررا المشى على الأقدام، لماذا؟ لأن إيقاد النار لا يجوز، وتحريك السيارة إيقاد للنار، هكذا يحترمون دينهم فيمشون هذه المسافة وهم بين السبعين والثمانين من العمر، لو أن إقامة شعيرة دينية تكلف بعض الزعماء العرب أن يمشوا مسافة نصف الكيلو؛ فلن تقام هذه الشعيرة.

لم انتصر اليهود علينا؟ نشرت مجلة «الوعى الإسلامى» تصريحًا لـ «ابن غوريون» يقول: إن أنبياءنا قالوا لنا: لابد من مضاعفة الاستعداد؛ لأننا قلة وأعداءنا كثرة، ويجب أن نصعد إلى مستواهم العددى بمضاعفة إنتاجنا حتى يصل إلى إنتاجهم، الرجل يقول: أنبياؤنا قالوا لنا، بينما كثير من قادة العرب لا تجرى على لسانه كلمة «قال النبى كذا».

التقدمية أن يقول: قال فلان كذا، أما أن يقول: قال النبى، أو قال أبو هريرة، أو قال ابن حزم، فهذه رجعية ثم حدث ما حدث وتوالت هزائمنا..

عـــودة العقيــدة

لابد من إعادة العقيدة إلى المقاتل العربى، ولو أن الإسلام دخل المعركة من أول قتال دار بيننا فى سنة ١٩٤٨م ما وصلت إسرائيل إلى امتدادها الحالى أبدًا. فى معركة الجزائر مع الفرنسيين كان الثوار الجزائريون يسمون صحيفتهم «الجهاد» وكان رائد الجهاد الشيخ عبدالحميد بن باديس، الذى قال:

شـــعبُ الجزائـــرِ مُـــسْـــلِـــمٌ

وإلى الـــعـــروبـــةِ يَـــنْـــتَـــسِـــب

نشأ عن العقيدة اليهودية الوحدة اليهودية، فإن اليهود فى العالم اتفقوا جميعًا، اليهودى الروسى فى نظام شيوعى اتفق مع اليهودى الأمريكى فى نظام رأسمالى، مع اليهودى الفرنسى، مع اليهودى اليمنى، مع اليهودى المصرى، اتفقوا جميعًا على أن يقيموا دولة إسرائيل بالدم والمال والعرق والجهد.

لقد رويت للبعض قصة مدير تعليم من القاهرة انتدب فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات إلى فلسطين مسئولاً عن التعليم هناك، قال لى: «كنت حريصًا على ألا أركب سيارة إلا إذا كانت عربية، فخدعت يومًا وركبت سيارة، ومضت بى فى الطريق من خان يونس إلى مدينة القدس، ونظرت إلى السائق فى الطريق وبدأت أتأمله وشعرت أنى خدعت، لكنى سكت، ونظرت إليه بكبرياء، وكأن السائق أحس بأنى أنظر إليه بكبرياء، فأدار بصره إلىَّ وقال لى: من أنت؟ فقلت له: أنا رجل عربى، فقال: يبدو أنك مثقف، قلت: نعم، أنا حاصل على إجازة كذا من سويسرا، فلعبت أصابعه فى الدرج الذى أمامه وأخرج نفس الإجازة العلمية وأرانى إياها، فقلت له: أنت حاصل على هذه الإجازة؟ قال: نعم، قلت: فما الذى جعلك تشتغل سائق سيارة؟ قال: أنا أشتغل سباكًا أو نجارًا أو حمالاً أو سائقًا من أجل إقامة إسرائيل!» مدير التعليم الذى روى لى هذا قال: كان هذا الحديث يرن فى أذنى وله صدى فى نفسى مشوب بالأسى؛ لأنى وجدت بعض أبناء العرب الذين كانوا يتعلمون كانوا يرفضون أن يعملوا إلا رؤساء، يريد الواحد منهم أن يحصل على شهادة عالية أو متوسطة ويجلس على مكتب يصدر أوامره، أما أن يتعرض للغبار والمتاعب فهذا ما لا يخطر بباله، لقد جمعت الوحدة الدينية صفوف اليهود

وجعلتهم يتحملون المتاعب، أما العرب فقد أبعدوا الدين، وإبعاد الدين جعل الوحدة العربية مظهرًا لا جوهرًا، شيئًا آخر: فى كل جنس عناصر بشرية نفيسة، فإذا أراد الله خيرًا بأمة وفقها إلى أن تجعل العناصر النفيسة هى التى تقودها، وإذا أراد الله شرًّا بأمة جعل عناصرها التافهة هى التى تقودها. ويقول النبى ﷺ: «**من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**». القيادة تكون فى الأيدى المدربة اللبقة، كان أعداؤنا ينتفعون بالقيادات المدربة الماهرة، بينما كنا نحن نرمى بالكفاءات.. رجل كعبدالمنعم رياض سئل - فيما أعلم - عن إسرائيل فقال: حاملة طيران ثابتة، فكان هذا الجواب سببًا فى الغضب عليه، لماذا؟ هل مهمتى أن أقول كلامًا يرضيك؟ هذا بحث علمى، لكن جنون العظمة يريد شيئًا آخر، الأمة اليهودية بحثت عن الرجال فيها وأسلمتهم القيادة، رجل كموشى ديان حمل أعباء المعركة شرقًا وغربًا، ومشى مع الجنرال الإنجليزى فى حرب «العلمين» ومشى إلى تونس والجزائر وعاد مرة أخرى وذهب إلى كوريا تعلم الحرب الحديثة، يعنى الرجل تخرج فى الميادين، ومع هذا فلو دخل الكشف الطبى عندنا لسقط، العالم العربى عالم غريب الأطوار، أنا لم أر «فلان» لكن يوم أن أخذ رتبة مشير أو مارشال استغربت وقلت: أيزنهاور كسب الحرب العالمية الثانية ومات وهو جنرال، وديجول مات وهو جنرال، لو جئت بكاتب عمومى وجعلته رئيس محكمة النقض فماذا تكون النتيجة؟ تكون خرابًا ودمارًا، ولذلك يوم أن دخلنا حرب سنة ١٩٦٧م لم تكن لدينا خطط قادة، كانت الخطط خطط عيال، ونكبنا فى سنة ١٩٦٧م.. إننا لم نحارب وإنما انتحرنا. إننى أقول وبكل قوة: عزل العقيدة عن المعركة جريمة، محاولة تجميع العرب بعيدًا عن الطابع الدينى مهزلة، فالأمة عندما تتعرض للمخاطر والأهوال لا يعزيها عندما ترى الهول، ولا يشجعها عندما نكلف باقتحام الصعاب إلا الإيمان بالله. لقد فعل أعداؤنا هذا، استعانوا بالدين، استعانوا بالتجمع، استعانوا بالكفايات، فلِمَ نبعد هذا؟ إننى أشعر بأن الحرب قد اقتربت، وستفرض علينا طوعًا أو كرهًا، وإذا عدنا إلى ديننا بهذا الوصف وبهذا التفصيل؛ فإن النصر سيكون لنا، إذا عدنا فى الصباح فإن النصر سيكون فى المساء أو صبيحة الغد إن تأخر ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

اعــتراض العــدالة

نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس، وأن يتعرف علينا الناس، هكذا علمنا ربنا، فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾، ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها.

قرأت أن يهوديًا فى مدينة الخليل، استولى على بيت عربى،، ثم قال لرب البيت: هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام، وقد عاد إلىّ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون، لقد تنازلت عنها، فاذهب إلى أى مكان، وأقم به أو اسكن فى العراء إن شئت ولا تعد هنا وإلا...

السياسة الاستعمارية التى سيرت العالم، فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها، فإن الجريمة التى ارتكبها الإسلام ـ كما يرى البعض ـ أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادى النيل، وشمال إفريقيا، وأقطارًا كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين الذين اعتنقوا الإسلام بداهة، وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها، وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون.

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة، فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق، ولكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من ثورات الحقد القديم، وحاربوا التعصب والجشع؟

لعل إنشاء جهاز أخلاقى عالمى، يساند الخصائص الإنسانية العليا، وينشط الجهود المبذولة لدعمها، ويصل بالهيئة إلى ما نريد، ويقى العالم شرور الانقسام والخصام.

عن أبى ذر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:



«**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»، وفى الحديث أيضًا: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفًا فى رضاه وفى غضبه، فلا يستبيح خصمًا ولا يجور على ضعيف، بل يقف عند الحق، ويستريح للعدل، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان.

ويؤسفنى أن الإنسانية فى تاريخها الطويل، احتالت على ارتكاب المظالم، ورأت فى اختلاف البشر قوة وضعفًا، وغنى وفقرًا، وإيمانًا وكفرًا، ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد.

وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شىء، ماديًا كان أو أدبيًا: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾. وفى آية أخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لقد وهم الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك المجال رحبًا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

وأذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة.

■■ **الحديث الأول**: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه**».

■■ **الحديث الثانى**: «**دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـ ليس دونها حجاب**».

■■ **الحديث الثالث: عن أبى ذر قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال** ﷺ: «**كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها، وإن كانت من كافر**».

ومن دواعى الدهشة، أن يموت نبى الإسلام، ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله، ما أثر اختلاف الدين هنا؟ إن اليهودى التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال فى عاصمة الإسلام، هل كانت غربته سببًا

فى أن يجور عليه أحد؟ لقد حصن الحكم الإسلامى حقوقه فعاش ومات لا يشكو شيئًا.

إننا نحترم الرأى والرأى الآخر، وإذا كنا - نحن المسلمين - نشكو شيئًا؛ فمواريث الضغائن التى نعامل بها فى ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان.

التلمــود دســتور الصهيونــيــة

الحقيقة أن الصهيونية - فى قديم أمرها وحديثه - لا سند لها من دين موسى، وإنما هى أطماع سياسية عنصرية صنعت لها دستورًا من مسخ التوراة وخيالات «التلمود» وأحلام الأحبار والحكماء من فلاسفة اليهود، إن تحولهم عن موسى إلى الصهيونية له سببان رئيسيان: **الأول**: أن بختنصر قد عصف بدولتهم التى أقامها داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام. **الثانى**: كانت وطأة البابليين عليهم فى السبى عنيفة مروعة، وقد أحس اليهود إحساسًا عميقًا بذهاب آمالهم فى الدولة، وشعروا كذلك أن كيانهم الجماعى كأمة قد صدعته الذلة فى جحيم «بابل» فدفعهم هذا الشعور وذلك الإحساس إلى أن يفزعوا إلى أحبارهم وحكمائهم يلتمسون لديهم شيئًا من العزاء الذى قد يخفف عنهم وقع ما يجدون، فوجد هؤلاء وأولئك ألا مندوحة لهم من أن يقولوا للمفجوعين الأذلاء شيئًا، أى شيء، فنظروا فى تحريف التوراة فلم يجدوا فيه ريًا لنفوس تلهث ظمأ، ولا مقنعًا لأفئدة كاد يقتلها اليأس، فوضعوا لهم قصصًا، فى بعضها وعد من عند الله بإقامة دولة، وفى بعضها الآخر أنهم شعب الله المختار، وأنهم لا محالة سيحكمون العالم، وأن من عداهم من الناس خنازير وحشرات خلقوا لخدمتهم، وأن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم دون من سواهم من البشر، وهكذا طفق الأحبار يتخيلون لهم أحلامًا يهدهدون بها السذج والدهماء، حتى استقر فى مخيلة هؤلاء بعد حين أن ذلك حقيقة لا ريب فيها، ووعد من الله لن يتخلف، وهكذا تحولت اليهودية إلى صهيونية بتدبير سياسى خطير، وتبييت عنصرى خبيث، وصدق الله إذ توعدهم بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

إنهم حرفوا التوراة تحريفًا يتلاقى وآمالهم التى فى صدورهم، حتى استقام لهم بعد ألف عام تقريبًا كتاب سموه «التلمود» أو كما يجب أن يسمى «دستور

الصهيونية» يفضلونه على التوراة نفسها، ولدعم ذلك أسوق نصين من نصوص كثيرة تدور حول هذا المعنى من كتاب «فى الفكر اليهودى» الذى جمعه الدكتور ج. هـ هرتش، الحاخام الأكبر لليهود فى بريطانيا، وصدر له «حايم ناحوم» الحاخام بمصر:

النص الأول ـ لعمانويل دوتش ١٨٦٨م ـ: «التلمود هو المؤلف الذى يتضمن القانون المدنى والدينى للشعب اليهودى، فهو عبارة عن ملحق لأسفار التوراة الخمسة الأولى، وقد استغرق هذا الملحق ألف سنة، وقد تضمن حكايات مجازية، وقصصًا وأساطير عن الجن، وأقصوصات خرافية».

النص الثانى ـ أ. مارى روبنصن ١٨٩٢م ـ: «التلمود ذلك الكتاب الذى أحله اليهود المسجونون فى أحيائهم المركز الثانى فى حياتهم، لم يكن مجرد كتاب فلسفة وتقوى، بل كان منهل الحياة القومية، والمرآة الصادقة لحضارة بابل واليهود، كما ترددت فيه أيضًا الأحلام المخيفة والخرافات والأساطير وما إليها من أشباح سحرية وشذرات علمية اختلط فيها الخطأ بالصواب، وتأملات ونظريات جزئية اكتشفها التائه فى أسفاره التى لا محط لرحالها، فالتوراة ذاتها لم تبلغ ما بلغه التلمود».

والصهيونية تحارب كل فضيلة وتقضى بأساليبها على كل من يدعو إلى التوحيد والمحبة والسلام؛ لأن ذلك كله يقف دون غاياتها ويهجن من وسائلها وهى تريد أن تمضى ولا تتوقف.

فالأنبياء ـ من بنى إسرائيل ـ كذبوا من الصهيونية تكذيبًا كله عناد ومخالفة، ومنهم من قتلته غيلة وغدرًا؛ لأنهم يدعون اليهود إلى غير أطماعها، وهى لا تريدهم إلا أشرارًا حاقدين. والسلام يعارض العنصرية التى يدينون بها، وهذا «بولس الرسول» يقول فى رسالة له لأهل «رومية» (إصحاح ١٠): «لأن الكتاب يقول: كل من يؤمن به يجزى؛ لأنه لا فرق بين اليهودى واليونانى؛ لأن ربًّا واحدًا للجميع، غنيًّا لجميع الذين يدعون به»، ثم يمضى فيخاطب اليهود: «يا قساة القلوب، يا غير المطهرين بالقلوب والآذان، أنتم تعادون الروح فى كل حين». والسيد المسيح عليه السلام يعنيهم حين يخاطب «أورشليم» بقوله: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدى».

أما محمد ﷺ فإن مواقف الصهيونية منه بلقاء مشهورة، سجلتها كتب السيرة بما لا يدع لنا مجالاً لعرضها، فمن نقض للعهد، إلى انحياز لجانب المشركين، مع أنها تزعم الاعتقاد بالوحدانية، وكثيرًا ما حاكت حوله المؤامرات وهمت بقتله، ولم تدع سبيلاً لإطفاء الإسلام إلا سلكته، فقد راعها من التنزيل أن ينفذ فى تصويره إلى خَفِـيِّ أمرها، فيفضح ما استتر منه بمثل قوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾، وقوله:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

صدق الله العظيم.

قـــرارات بنـــى صهيـــون

قرارات حكماء إسرائيل جاءت مفصلة، ولست بمستطيع أن أسوق نصها للقارئ فذلك يخرج بنا عن الإيجاز والاختصار، ولكنى أقدمها إليه فى خلاصة أمينة قد تفى بالغرض الذى نهدف إليه:

ـ القانون هو الذى يكبح جماح النفوس البشرية، وما القانون إلا القوة، ومن هنا نستنتج أن الحق كائن فى القوة، وما دام الذهب فى عصرنا هذا أعظم نفوذًا مما للحكومة الديموقراطية، ومادام الذهب فى حوزتنا ـ نحن اليهود ـ ففى استطاعتنا أن نشترى به كل ما نشاء، ونسيطر به على ما نريد.. شعارنا: «القوة والرياء» وفى سبيل هذه السيطرة لا ينبغى أن نحجم عن اللجوء إلى الرشوة والخداع والخيانة فى سبيل بلوغ مآربنا.

- من مصلحة اليهود إشعال الحروب بين الدول؛ حتى يتيسر نقل الحرب إلى الميدان الاقتصادى، مما يضطر الفريقين المتحاربين إلى وقوعهما فى قبضتنا لتفوقنا فى هذا المضمار.
- خلق الضائقة المالية للحكومات لتنمية روح الكراهية فى العمال للحاكمين، لنهيمن على الجهاز الحكومى، وذلك لأن فى أيدينا الصحافة وفى قبضتنا البرلمان.
- سيحكم حينئذ الغوغاء، وسيقضى حكمهم إلى الفوضى التى تديرها من وراء ستار قوة وكلائنا الذين يتخذون المحافل الماسونية أوكارًا لهم، بحيث ننقل الأفكار إلى الميدان التجارى والصناعى، وهنا يجب أن نجعل من (المضاربات) قاعدة للتعامل، وحينئذ ستتسرب جميع الثروات إلى فوهة مضارباتنا فتبتلعها خزائننا.
- سيكون الجهاز الحكومى فى شتى الدول فى قبضتنا؛ لأنه يتوقف على الذهب الذى نملكه، ولضمان أن يستمر ذلك ينبغى أن نتذرع بكل الوسائل وفى مقدمتها جر الشعوب إلى الحرب، وتلهيتها فى السلم بفيض غامر من الأفكار المتعارضة وبموجات الانحلال مع تجريدها من كل أسلحتها، وينبغى القضاء على المتفوقين والممتازين والعمل على انعدام الثقة، وبذر الخلافات، وتشجيع

كل محاولة ترمى إلى الهدم والتحطيم، وفى هذا الجو نبشر بفكرة التعاون الدولى بقصد إنشاء مؤسسة تهيمن على العالم وسيعهد لا محالة بإدارتها إلينا.

- السيطرة على ثروة العالم عن طريق إنشاء الاحتكارات العالمية، والعمل على تقوية القوة البوليسية التى تخضع لنا داخل الحكومات، ودعم الصحافة ووسائل النشر التى نسيطر عليها، وبهذين الجهازين الخَطِرَيْن نعلن حكم الإرهاب على كل من يقف فى طريق أهدافنا، وبهما نهدد كيان الحكم بإثارة الفتن والقلاقل متى شئنا.

- العمل على رفع ضعاف الأخلاق إلى مناصب الحكم؛ ليستجيبوا فى يسر إلى رغباتنا.

- إذا كان غير اليهود هم الذين يملكون أمر الحكم فى الشعوب؛ فإننا نلى فيها أمر المال، وبهذا سيكون النضال المذهبى أو السياسى فى أى اتجاه وفى أية دولة يسير وفق مصالحنا وأهدافنا، وعلينا أن ننفخ فى (اضطهاد اليهود) فإنه السبيل لتجميع اليهود وربطهم بقيادتنا.

- التزام السرية التامة فى كل نشاط سياسى لنا؛ لأن المبدأ الذى لا يذاع علنًا يترك لنا حرية العمل من غير رقيب، وينبغى أن نعمل على تركيز السلطات الثلاث فى الدول فى أقل عدد من المرتشين.

- يجب أن نقبض أيدينا على وكالات الأنباء العالمية؛ لأن الصحافة والنشر هما أداة السيطرة على الفكر العالمى، وبهما لن يرى الناس أى خبر أو مقال إلا من الجانب الذى نريد.

- زعزعة الإيمان والعقائد فى القلوب؛ حتى لا يبقى على الأرض سوى اليهودية.

- حتى لا نفاجأ بمؤامرة تهدد كياننا؛ يجب أن ننتشر فى كل المنظمات السرية فى شتى أطراف العالم.

- تكليف وكلائنا من أصحاب المراكز المهمة بتلويث غيرهم، وتشجيع ذلك الغير على الانحلال والرشوة، وإساءة استعمال السلطة، فإن هذه هى الحبال التى تشدهم إلينا وتربطهم بنا.

- تشجيع الاغتيالات الفردية، وذلك بأن نلقى فى روع المغتال أنه شهيد وبطل.

- التزيين للدول بالاستدانة منا لنفلسها حينما نريد والاعتماد على البورصة وألاعيبها.

- بعد كل هذا لن يبقى أمامنا سوى أن نخطو الخطوة الأخيرة نحو عرش صهيون وهو بحاجة إلى العنف.

- وسيجلس ملكنا المحبوب على عرش سليمان ليحكم العالم، وستحف به نخبة من حكماء صهيون من نسل داود تعاونه فى مهمته (الصمدانية)، وسيكون حكمهم حازمًا وعنيفًا لخير الإنسانية، أما الملك فسيكون مثال العزة والمهابة والجبروت، إنه المسيح المنتظر من سبط يهوذا ونسل داود.

وهذه القرارات بما شرعت من وسائل إنما تسير لتحقيق مطامعها فى اتجاه مضاد تمامًا لتلك الاتجاهات التى رسمتها الإنسانية وقررتها الأخلاق وتنزلت بها الأديان، فهى فى كل أمرها من وضع نفوس قد تجردت من الخير وترسمت خطا الشيطان.

الصهيونية لا سند لها من دين موسى عليه السلام

كان الزعيم الصهيونى هرتزل عمليًّا حقًّا، حينما ذهب إلى السلطان عبدالحميد ليساومه على شراء فلسطين بالمال؛ كسبًا للوقت، وليتفرغ النشاط اليهودى الرهيب إلى استخدام القوى المستعمرة فى تحقيق هدف صهيونى آخر، ولكنه باء بالفشل، إذ رفض السلطان التركى العرض اليهودى فى تصميم وإصرار.

لم يحزن تيودور لهذا الرفض، فقد كان على يقين بأن الصهيونية بنفوذها القوى قادرة على توجيه الاستعمار بإشارة من أصبعها، وهو الآن يتحفز للوثبة على الدول التى تخضع للحكم التركى، وما دام المال فى حوزة الصهيونية فإن الاستعمار واقع فى قبضتها لا محالة، لأن الإنفاق على حرب استعمارية كهذه ستجعل الذهب اليهودى السيد الآمر.

فلو أن الصهيونية طلبت فلسطين ثمنًا لذهبها لاستجاب الاستعمار فى رضا وقبول، وهذا هو ما حققته الأيام، وقد أكد هذا المعنى الفيلسوف اليهودى «كارل ماركس» حين يقول:

«فاليهودى الذى لا يحسب له حساب فى ڤيينا هو الذى يقرر بقوته المالية مصير النمسا كلها، واليهودى الذى قد يكون فى أصغر الدول الألمانية محرومًا من الحقوق هو الذى يقرر مصير أوربا بأجمعها».

وكذلك حين يقول: «المال إله إسرائيل الجشع، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش، إن المال يخفض جميع آلهة البشر ويحولها إلى سلعة».

وليس أبلغ فى إقناع القارئ أيًّا كانت عقيدته الدينية من أن يصغى إلى الصهيونية وهى تقدم إليه نفسها، وتفضح له بأقلام زعمائها عن مطامعها الرهيبة، وجناياتها التى تقطر دمًا فى كل مكان.

وعليه حين يقضى فى أمرها أن ينصب من نفسه قاضيًا عدلاً، لا يجور فى الحكم، أو يميل مع الهوى، وحسبه فى ذلك أن يأخذ بما يستقيم له من دليل، وما يستقر فى قلبه من حجة، ليكون قضاؤه أدنى إلى الحق، وأخلق بالرضا والقبول.

كان مؤتمر بال بعثًا للصهيونية الحديثة، وتجديدًا خطيرًا فى وسائلها

وغاياتها، الأمر الذى ضاعف من قوتها، وكفل لها الذيوع والانتشار، ذلك أنه أيد فى اجتماعه القرارات المعروفة بـ «قرارات مشيخة إسرائيل»، تلك القرارات التى ظلت سرًّا دفينًا فى صدور الصهيونيين، حتى عثرت سيدة مسيحية على نسخة منها عام ١٩٠٢م فقام بترجمتها إلى اللغة الروسية الكاتب الروسى «سرجيوس نيلوس»، ثم ترجمت فيما بعد إلى اللغات الأخرى.

وقد أدرك العالم حينئذ خطر تغلغل الصهيونية فى شتى الدول تغلغلاً أثار فيه القلق والاهتمام، ومما هو جدير بالملاحظة أن النسخ المترجمة إلى أية لغة من لغات العالم كانت تختفى بعد ظهورها بأيام، وبديهى ألا مصلحة لأحد فى إبادتها سوى اليهود وحدهم.

وهذه القرارات بما شرعت من وسائل إنما تسير لتحقيق مطامعها فى اتجاه مضاد تمامًا لتلك الاتجاهات التى رسمتها الإنسانية وقررتها الأخلاق وتنزلت بها الأديان، فهى فى كل أمرها من وضع نفوس قد تجردت من الخير وترسمت خطا الشيطان.

ويحسن هنا أن نشير إلى أنه ليس بين الصهيونية وبين دين موسى عليه السلام أية صلة أو أدنى نسب، لأن الأخير نحلة مقدسة تنزلت من السماء، والسماء فيما تنزل من وحى لا تفرق بين الناس، ولا تدعو إلى العنصرية الحاقدة المستعلية، وهى إذ تفضل طائفة على أخرى لا تتخذ من اللون أو الجنس سبيلاً إلى التفضيل، وإنما سبيلها فى ذلك إيمان بوحدة الخالق، وحب الخير للبشرية جميعًا.

ورسالة موسى عليه السلام كان من أغراضها نصرة المظلوم والثورة على الظالم، فهى بهذا المعنى ردت إلى النفس اليهودية الثقة التى كان قد أوهنها فرعون فاستعادت كيانها وشعرت بوجودها. وليس من المنطق فى شىء أن يجمع دين سماوى أشلاء من نفوس مبعثرة لينفخ فيها البغضاء للعالم كله، أو ليغرس فيها الحقد المرير على البشرية جميعًا، إنما حسب الدين فى ذلك أن يأسو من جراحاتها، ويعيد خلقها من جديد، لتؤمن بالخير، وتعمر بالمحبة والإخاء، وتطرح الشحناء والبغض جانبًا.



دعـــوة للتحــاور

شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم، وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان، فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى، جاء فيها ما يلى:

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق، والتسامى بالبشر، وقلت: إن الفطرة الإنسانية لاتزال طيبة، تعشق الكمال، وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته.

ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره، واختصرت أبعاده، ونشأت فيه لأول مرة من تاريخه المديد هيئة لأممه كلها، أى أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات والتعاون على حلها، لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخلقى، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة لتحقيق ما نصبو إليه؟

إن نبى الإسلام ﷺ يقول: **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ويقول ﷺ لعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه: «ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»**.

ويقول ﷺ لأصحابه: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: إصلاح ذات البين فى فساد ذات أنس هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم، وتسدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى.

لكننى - ولأكن صريحًا - شعرت بحرج شديد عندما علمت أن البرلمان الأخلاقى، فتح الباب للمؤمن والكافر، للموحد والمشرك، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت.

قد تقول: هذه هى الدنيا وهؤلاء أبناؤها، وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل

متناقضة، وتجاورت فى مقاعدها لتدريس قضاياها المختلفة وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك.

ولى على هذه الإجابة تعليق: إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بالأخلاق، أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين، أو هو أمر يثير الاشمئزاز، لماذا يخلق الله ويُعبَد غيره؟ ولماذا يعطى ويُشكرُ سواه؟

هل العقوق رذيلة إلا فى معاملة الله؟

إننى لو أجزلت العطاء لأحد، ثم رأيته يجحدنى؛ لاشتد سخطى عليه، واحتقارى له،فكيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحًا ومساءً ثم تتجرأ عليه، وتنكر وجوده، وحقوقه؟ أعتقد أن منكرى الألوهية لا ينبغى أن نعترف بهم، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم، فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم فى الحياة، من يدرى؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم، من دواعى سرورنا نحن المسلمين أن نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جمع لتحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وتقوية الفضائل، ومحاربة الرذائل، إن لدينا الكثير الذى نود أن نقوله، والتراث الذى تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها، ولا رغبة فى التسامى إلا زكاها وشجع عليها.

إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق، ولا أعرف رسولاً سماويًا ولا فيلسوفًا أرضيًا خلف مثل هذه التركة.

أهـــو اتفـــاق ضــدنـــا؟

عندما قرر اليهود اغتصاب فلسطين من العرب والمسلمين كانوا مطمئنين إلى ثلاثة أمور:

(أ) أن الأمة التى شنوا غارتهم عليها كانت مبعثرة الصف مفرقة الكلمة ذاهبة الريح.

(ب) وأن الاستعمار الصليبى - بشقيه الثقافى والسياسى - أمسى راجح الكفة، بعيد النفوذ، فإذا لم تكن له جيوش تحتل الأرض فله جيوش تحتل الفكر والفؤاد والسلوك.

(جـ) وأن مواريثهم الدينية المتحدثة عن أرض الميعاد توشك أن تتحقق، ونبوءات العهد القديم التى طال عليها المدى قد جاء أوانها.

وعلى هذه الأسس هجموا، لا مهابة لأتباع محمد ﷺ، فقد هتفوا يوم دخلوا القدس: «محمد مات وترك بنات».

والتفاهم مع الاستعمار الصليبى سهل، بل يمكن التفاهم معه على مصالح مشتركة، ومقدسات مشتركة، وعلى الكيد للإسلام خصم الفريقين.

ويحدثنا التاريخ أن «هرتزل» الزعيم الصهيونى الكبير طاف بملوك أوروبا وعظمائها؛ كى يعاونوه على بلوغ هدفه، وكان آخر من قابلهم ليستميلهم إلى خطته البابا بيوس العاشر سنة ١٩٠٣م.

ونحن ننقل ما دار بينه وبين الفاتيكان أول هذا القرن الميلادى الكالح، ليتدبره المسلمون، وليوازنوا بين التصرفات الكاثوليكية أول هذا القرن وآخره.

قال «كريستوفر سايكو» فى كتابه:

«المقابلة لم تكن منسجمة، فبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة بدأ هرتزل الكلام واصفًا مخططه الذى يرمى إلى أن تمنح الأماكن المقدسة وضعًا خاصًا فوق العادة، هذا الوضع يؤلف جانبًا من مخطط صهيونى أوسع وأشمل يراد به التخفيف من بلاء اليهود.

قال هرتزل ما قال دون أن يعرج بشىء على المصالح المسيحية، وقد استمع إليه البابا ببرود، ثم أجابه: هناك احتمالان اثنان: فإما أن اليهود يحتفظون

بمعتقدهم القديم، ويظلون ينتظرون مجيء المسيح، المسيح الذى نعتقد نحن أنه قد جاء، وفى هذه الحال يكون اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح، فلا يكون بوسعنا أن نمد إليهم يد المساعدة، وإما أنهم يريدون الذهاب إلى فلسطين ولا دين لهم على الإطلاق، وهذا أدعى أن نكون أقل عطفًا عليهم.

اليهودية أساس ديننا، غير أن اليهودية قد حلت محلها المسيحية، ولهذا السبب لا يمكننا اليوم أن نساعد اليهود أكثر مما منحناهم من قبل، لقد كان المنتظر أن يكون اليهود أول المستجيبين لدعوة المسيح، بيد أنهم لم يفعلوا هذا حتى اليوم».

ذاك جزء من رد البابا بيوس العاشر على الزعيم الصهيونى من مائة سنة، نقف عنده لنقرأ ما حدث من البابا يوحنا بولس الثانى، تاركين للدنيا كلها أن توازن وتتأمل.

قالت الصحف الفرنسية وفى مقدمتها التحرير والصباح فى ١٤ من أبريل ١٩٨٦م: «أمس ذهب البابا إلى كنيس روما الكبير فى أول تقارب تاريخى يضع حدًا للعداء التقليدى بين اليهودية والكثلكة».

ومن الكلمات التى خاطب بها البابا حاخامات اليهود: «إن العلاقات التى تربطنا بكم لا تربطنا بأى دين آخر، أنتم إخواننا المفضلون أو بتعبير آخر نستطيع أن نقول: أنتم إخواننا الكبار».

وعندما يتحدث عن المسيح عليه السلام يقول:يسوع الناصرى ابن شعبكم.

قالت الصحف: إنه بعد أن تمنى «إسرائيل ليبال» رئيس مكتب وزارة الشئون الدينية أن تضع الزيارة البابوية حدًا للعلاقات المريرة بين اليهود والمسيحيين، استطاع البابا أن يجد للفور الكلمات اللازمة للرد، وشكر مستقبليه على حسن الضيافة باللغة العبرية بين تصفيقات المؤمنين الذين رحبوا بتسفيهه للكراهية والاضطهاد اللذين تعرض لهما اليهود.

ثم تبادل الفريقان الهدايا: قدم البابا للحاخام الأكبر صورة لأوراق أثرية من الكتاب المقدس يوجد لها أصل محفوظ بمتحف الفاتيكان، وأهدى الحاخام للبابا شمعدانًا من تسع شعب مع مصنف لنصوص التوراة.

قالت الصحف: كان هذا العمل نفسه يتم فى روما خلال القرون الوسطى، يقدم الحاخامات التوراة، فيردها البابا باحتقار، أما هذه المرة فإن البابا يوحنا بول يقبل الهدية مبتسمًا ويرد التحية بأحسن منها.

ماذا حدث؟ هل تغير اليهود، أم تغير النصارى؟ أم اتفقوا ضدنا؟

حقيقة نواياهم

حين نتناول الصهيونية وأغراضها التى تعتمد فى جوهرها على العنصرية الجادة، والطموح إلى إرساء حكم عالمى من شأنه أن يسخر العالم قاطبة لشعب الله المختار، لن نضطر فى هذا المقام إلى الاعتماد على القرآن والإنجيل كمرجعين مهمين، وإنما ندع المصادر المقدسة لدى اليهود تتولى هذا الأمر فى وضوح وجلاء. «فالتلمود» يؤكد أنهم هم الناس، وأن من سواهم من البشر «خنازير وحشرات وأنعام» وسأكتفى بذكر فقرات منه:

- «إنه لولا اليهود؛ لارتفعت البركة من الأرض ولاحتجبت السماء، وامتنع المطر».
- «إن اليهود أبناء الله وأحباؤه، أما باقى المخلوقات فهى بذور حشرات وسائمة كالأنعام».
- «اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه، فمن يصفع اليهود كمن يصفع الله».
- «إذا ضرب أممى - أى غير يهودى - يهوديًّا فالأممى يستحق الموت».
- «... والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو مقدار الفرق بين اليهود وباقى الأمميين».
- «إن النطفة المخلوق منها باقى الشعوب الخارجين على الديانة اليهودية هى نطفة (حصان)».

وهكذا، ويمثل هذه الفقرات الناقمة وضع التلمود دستور الصهيونية، على أنه لم يفته أن يوثقه برباط مقدس يصل ما بينها وبين الله سبحانه، ليتقرر فى أذهان اليهود أن السماء إلى جانبهم، وليوقنوا أنهم شعب الله المختار، وقد غرس التلمود كذلك فى النفس اليهودية معانى شتى هى على تنافرها واضطرابها مزيج من الحقد والغرور، أما الحقد فلأن العنصر (الأفضل) لم يتح له أن يسخر العالم لإرادته، وأما الغرور فلأن مواهبهم - فيما زعموا - من صنع السماء، ولهذا وقر فى قلوبهم أنهم سادة الدنيا وكبراؤها.

وأطرف تصوير لهذا ما سجله الحاخام (إربل) بقوله: «إن الخارجين عن دين اليهود خنازير، وإذا كان الأجنبى - غير اليهودى - قد خلق على هيئة الإنسان، فما ذلك إلا ليكون لائقًا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم». ثم يسترسل ليضرب هذا المثل: «إن مثل بنى إسرائيل كمثل سيدة فى منزلها، يستحضر لها زوجها النقود فتأخذها بدون أن تشترك معه فى الشغل والتعب». ومادامت

الصهيونية قد أرادت لليهود أن يصبحوا سادة مخدومين وسيدات مدللات، فعليها إذن أن تعدهم بوطن يعصمهم من التشرد والنجعة فى آفاق الأرض، لتشد من عزائمهم، وتدفعهم إلى العمل، وقد تولى ذلك (سفر التكوين) فهو يحدد الوطن الذى وعدوا به بأنه «من نهر مصر إلى النهر الكبير (نهر الفرات)» وقد أكد أمر هذا الوطن زعماء الصهيونية المحدثون بما فاضت به كتبهم وخطبهم، فها هو ذا (حاييم وايزمان) الزعيم الصهيونى المعروف يذكر فى كتابه «التجربة والخطأ» المحاورة التالية:«كنت أتحدث مع الدكتور بارنيس، فكان الرجل رغم يهوديته يدعو إلى امتزاج اليهود فى الأمم التى يعيشون فيها، وقد سألنى مرة عن جنسيتى، فقلت له: أنا يهودى، فتعجب لإجابتى، وحاول إقناعى بأن اليهودية دين لا جنسية، فأفهمته: أن اليهودية جنسية وقومية». ويقول فى موضع آخر من كتابه هذا: «وفى سويسرا عرفت لينين وتروتسكى وبلنوكوف وكانوا يهودًا، لكنهم كانوا يحتقروننا نحن دعاة الصهيونية، ويقولون لنا: إن اليهودى يجب أن يصلح وطنه أولاً، لا أن يهرب منه ويدعو نفسه يهوديًا، فكنت أبادلهم احتقارًا باحتقار، وكرهًا بكره».

وإن ابن غوريون رئيس وزراء إسرائيل قد أماط اللثام عن رسالة الصهيونية، وأفصح بجلاء عن مطامعها حين قال فى خطبة له: «تتميز دولتنا بأنها الوحيدة التى لا تعتبر غاية فى ذاتها، بل هى وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية، وجمع اليهود المشتتين، فهى ليست دولة الذين يستوطنونها وحدهم، بل هى دولة الشعب اليهودى كله». وقال فى اجتماع حربى عام ١٩٥٢م: «ألا فليفهم الجميع أن إسرائيل قد قامت بالحرب، وأنها لن تقنع بما بلغته حدودها حتى الآن، إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات».

وإن (بيرنتشتين) الوزير الإسرائيلى السابق للتجارة والصناعة كان واضحًا فى رسم أهداف الصهيونية حين خاطب اليهود بقوله: «على الشعب أن يقلل من استهلاكه، ويتكتل وراء زعمائه؛ استعدادًا للساعة الفاصلة التى نمحو فيها الدول العربية من الوجود».

والنص الأخير صريح فى أن الصهيونية تهدف إلى محو العنصر العربى من مملكة «سفر التكوين»، وهذا يفسر للعالم طريقة «الإبادة» التى نهجتها إسرائيل فى معالجة الأسرى ومن إليهم ممن يقع فى قبضتهم من العرب، على أن إخراج اللاجئين من ديارهم، واغتصاب أموالهم وتشريدهم بغير حق، يعتبر ـ ولا ريب ـ ضربًا رهيبًا من ضروب الإبادة البطيئة التى برعت فيها إسرائيل.

مـــا أشـــبه اليـــوم بالبارحـــة

اتخذت الصهيونية فى طورها الحديث موقفًا إيجابيًا يدنيها إلى هدفها ويكفل الهيمنة والسلطان، فقد ربطت نفسها فى عجلة أى استعمار، لا لتكون فى خدمته وإنما لتتخذ منه عملاقًا آليًا تسيره بإرادتها، وتسخره فى أطماعها، وبدأ هذه السياسة الاستعمار الإنجليزى الذى فزع من الصهيونية وإنما حينما كانت إنجلترا سيدة البحار، وآمرة العالم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فمنحها وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م، وإذا كان قاموس اللصوصية ينكر من مفرداته كلمة «الوعد» فأخلق بالصهيونية أن ترتاب فى وعد بلفور، حتى ولو كان صادرًا من حليفها الاستعمار، ولهذا فقد تعمدت أن تسمعه اللغة التى كان يفهمها. ففى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى فرنسا سنة ١٩٢٣م وقف الصهيونى فلاديمير جابونيسكى يقول: «إذا رفضت بريطانيا أن تسلمنا فلسطين، فإن اليهود على استعداد لتحريك القوى التى تقضى على بريطانيا» وحينئذ استجاب صاغرًا لرغبتها وقدم لها فلسطين.

وإذن فهناك حقيقة تؤكدها الأحداث الجارية فى العالم قديمه وحديثه، هى أن الاستعمار ظِلٌّ الصهيونية يتبعها أينما سارت، ويحل حيثما حلت، ومن الخطأ أن نفهم أنها تسير فى ركابه، أو تخدم غرضًا من أغراضه. نعم، قد ترتضى الصهيونية ـ فى بعض الظروف ـ أن تكون مخلب القط للاستعمار، ولكن مخلب القط هذا لا يلبث أن يتحول فى النهاية بسحر صهيونى إلى مخلب أسد فاتك ليستولى على حظه الأوفى من الفريسة، وهكذا فإن أمر الاستعمار معها كله عجب: إن هو خرج فى إهاب المنتصر فهى إلى كسب واستعلاء، وإن جُلِّل بالسواد والإخفاق فهى إلى دعة وطمأنينة، لأنها لم تتعود أن تخف إلى نجدة الصديق إذا نبا به الزمن، أو طرقته الحادثات.

إن مثلها حين تخدم الاستعمار كمثل المروض الماهر للأسد الجائع، يلوح له من بعيد بقطع اللحم الشهى ليثير فيه غريزة الافتراس؛ حتى يزأر ويهيج. والصهيونية فى كل أطوارها تزيد فى ضراوة الاستعمار لتطلقه على الشعب الذى

تختار، لأن أحقادها المستعرة على البشرية لا ينقع غلتها إلا الدم، ولأن طموحها للسيطرة لا يعرف طريقه إلا على الأشلاء.

وستعلم الدول الغربية - إن عاجلاً أو آجلاً - أن احتطابها فى حبل إسرائيل سيحرمها الأمن والاستقرار وأن كوارث كثيرة وشيكة الوقوع، وأن هيئة الأمم المتحدة قد صنعت لإسرائيل الخير الكثير، إن إسرائيل تحاول أن تخلق فى العالم جوًّا من التوتر والقلق، الأمر الذى سيصرف الأنظار عن مشرطها الذى يعمل فى شرايين الشعوب، لتمتص الدم الذى يهب لها الدفء والحياة من فرائسها،إن الشرق الأوسط أمة عربية واحدة، تطلب الحرية وتلتمس السلام يرفرف على ربوعها، وإن بقاء إسرائيل فى هذه البلاد - تلك الدولة التى تحترف الحرب وتجنى على السلام - لَمِمَّا يفرق وحدة هذا الشرق، ويعكر عليه صفو السلام. إنه لجدير بالعالم أن يفتح عينيه جيدًا على حقيقة لا مراء فيها، وهى: أن للدول الكبرى مصالح حيوية مع الدول العربية تلك التى يسمونها «منطقة الشرق الأوسط». وقد شاء الاستعمار أن يقحم فيها إسرائيل، وهى - كما رسمت نفسها - تواقة إلى التوسع والاستعمار، وسيكون ذلك لا محالة فى نطاق الدول العربية.، وقد وجدت الصهيونية مستعمرًا آخر يعمل من أجل أهدافها، كما وجدته فى «إنجلترا وفرنسا» من قبل، إنها الولايات المتحدة ضالتها المثالية، لقد وجدته فى أمريكا التى تحنو عليها حنو الأم على طفلها المدلل، حتى ولو أدى الأمر فى النهاية إلى كارثة. وستغرى إسرائيل والصهيونية العالمية من خلفها الولايات المتحدة كذلك بالاعتداء على الدول العربية كما أغرت هذين من قبل وحينئذ لن تقف الدول ذات المصالح الحيوية موقف المتفرج؛ فتندلع ألسنة الحروب، لتأكل الأخضر واليابس.

وأخيرًا فليس للعالم إلا أن يختار: فإما صهيونية تطلق حربًا مجنونة من عقالها، وإما تطهيرًا شاملاً للمجتمع من منابتها الخبيثة، حتى يرفرف على الأرض السلام، وتسود المحبة بين الناس.

إثـــم وعــدوان

وسعت أرض السلام اليهود قديمًا، وجدوا فيها المأمن والملاذ يوم نبا بهم المقام فى أوروبا، واستحر فيهم القتل.

ومعلوم أن الأوروبيين شعبًا تعودوا اضطهاد اليهود، والنيل منهم، وقد قيل: لولا الإسلام لفنى اليهود.

بل إن الإذلال انتقل إلى أمريكا، فكانت هناك أندية تضع لافتات تمنع دخول اليهود والكلاب.

وقد كان اليهود يستطيعون ـ فرادى وطوائف ـ أن يفروا إلى دار الإسلام من بطش النازى ومذابحه، وكانوا يقينًا سيجدون المأوى والطمأنينة، وكانوا سيقيمون شعائرهم الدينية كما أقامها أسلافهم السابقون وإخوانهم الموجودون.

إن أرض الإسلام من قرون طوال لا تعرف التعصب الأعمى، بل لقد وجد فيها غير المسلمين شيئًا من المحاباة أحيانًا.

بيد أن اليهود فى هذا العصر جاءوا يلطمون العرب؛ لأن الأوروبيين لطموهم.

ومادام هتلر قد أوقد لهم الأفران، فعلى العرب أن يدفعوا الثمن، يدفعونه من دورهم وتاريخهم ووجودهم المادى والأدبى.

ظاهر أن مصاب العرب فادح، والظلم النازل بهم بين، ومع ذلك فالعرب إرهابيون، والإسلام دين عدوان، وعلى البابا ورؤساء الكنائس الأخرى أن يوقفوه عند حده.

بقى أن نسأل اليهود:

إنكم تشكون من ظلم الناس لكم قديمًا وحديثًا، وتجعلون هذه الشكاة أساس مطالبتكم بدولة لكم، هلا بحثتم عن أسباب ضيق العالم بكم واضطهاده لكم؟

هلا فكرتم فى أن سلوككم أنتم هو مبعث هذا الاضطهاد الذى تضاعف على نحو منكر؟

تدبرت بعثة موسى عليه الصلاة والسلام، وخطابه إلى فرعون يناشده شيئًا

محددًا: تَرْك بنى إسرائيل يغادرون مصر معه، ففى سورة الأعراف: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وفى سورة طه: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧].

وفى سورة الدخان: ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان: ١٨]...إلخ.

كان موسى عليه السلام يائسًا من أن يعيش الشعبان المصرى والإسرائيلى فى وطن واحد، كانت الفجوة بينهما لا يمكن ردمها.

لماذا؟

إن الشعب المصرى وحكامه استقبلوا يعقوب وأبناءه أحسن استقبال، وقيل لهم: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩].

لكن اليهود تقوقعوا داخل أنفسهم، وشرعوا يعملون لجنسهم وحده، ويخدمون أطماعهم وأثرتهم، حتى ضاقت الأمة المضيفة بهم.

ونحن لا نعتذر عن فرعون، فلعنة الله على الطغاة أجمعين. وإنما نكشف عن جانب من مأساة تكررت فى أوروبا جيلاً بعد جيل، وكان هتلر آخر من عالجها بالحديد والنار.

وإذا كان الظلمة جديرين بما نزل بهم من عقاب الله، فإن اليهود يجب أن يحذروا المصير نفسه، إنه المصير الذى خوفهم موسى منه عندما قال لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنهم الآن مع الصليبية الجديدة يتظاهرون علينا بالإثم والعدوان، ويتجاهرون بضرورة الإجهاز على الإسلام وأمته، لكن هذا الحلف الآثم سيتلاشى، والضعف الذى ألم بنا سيزول.

وليست هذه هى المرة الأولى التى نفقد فيها بيت المقدس، لقد استعدنا المسجد الأقصى بعد أن غلبنا عليه، وسقط قتلانا حوله ألوفًا ألوفًا، وسنستعيده مرة أخرى مهما غلت التضحيات، وسيكون مصير الفراعنة الجدد مصير هتلر ورمسيس.

ونعود إلى كلمات البابا بيوس العاشر، وهى كما رأينا أحكم وأرشد من كلمات

البابا الحالى، ونقف عند قوله لهرتزل: «لا يمكننا أن نعطى اليهود من المساعدة أكثر مما أعطيناهم من قبل».

ونتساءل: ما هذه المساعدات التى سلفت؟

يجيب المؤلف كريستوفر سايكو على ذلك بقوله:

«إن المساعدة المعنية هى التى كانت فى زمن (كليكتوس) الثانى، و(غريغورى) التاسع، و(أينوست) الرابع، و(غريغورى) العاشر، و(مارتن) الرابع، و(بولس) الثالث، وتتعلق كلها بسرقة الدم، وجرائم الخطف والقتل لاستعمال دم الضحية فى الطقوس الدينية اليهودية».

وقد قرأت كتابًا عنوانه «صراخ البرىء» يشرح إحدى هذه الجرائم التى اقترفها اليهود تقربًا إلى الله، ولا أدرى أتاب القوم أم لم يتوبوا عن أشباه هذه الجرائم؟

لكن الذى أدريه كل الدراية أن فكرتهم عن عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ مظلمة، وأن نظرتهم إلى أنفسهم تعميهم عن كل شىء.

تحــول مبــاغــت

أقبل اليهود على فلسطين بعقائدهم الأولى، ما حسنت ظنونهم ولا مقالاتهم في عيسى بن مريم.

والوطن الذى يريدون إقامته يرتكز على الهيكل الذى سيسكنه الرب ويحكم من خلاله العالم بوساطة شعبه المختار، ومسيحهم المنتظر هو المسيح الحق، أما المسيح الذى سبقه فزنيم أثيم.

وما وصفهم به البابا بيوس العاشر، وأسلافه من البابوات صحيح فى جملته.

أما قادة النصرانية فقد بدلوا سياستهم بإزاء اليهود لسبب أو لآخر، وأول من تحرك فى الاتجاه المضاد البابا بيوس الثانى عشر.

كان الرجل رئيس الكنيسة الكاثوليكية أيام النازى، ورأى المذابح الرهيبة التى أوقعها الألمان باليهود، ولم ينبس بكلمة احتجاج.

أكان ضميره الدينى نائمًا؟ ربما، أكان يرى ما نزل بهم عدلاً؟ ربما، على أية حال لزم الرجل الصمت حتى انهزم هتلر، واضطر الكاهن الكبير أن يواجه عواقب صمته.

بيد أن مفاجأة حدثت لاندرى ما سرها، فإن صلحًا تم بينه وبين اليهود، تولى بعده البابوية، وشرع يدعو إلى تبرئة اليهود من دم المسيح، ومحا من الصلوات الكنسية الأدعية التى تلعنهم، والتى كان النصارى يبتهلون بها خلال عشرين قرنًا.

على أن ذلك فى رأينا ليس سر التحول المباغت، والواقع أن النصارى فى شتى الأقطار ومن أتباع كل الكنائس يكرهون اليهود، ولكن كراهيتهم للمسلمين أشد، وهم فى حملتهم الصليبية الأخيرة على أرض الإسلام يكبتون مشاعرهم ويرسمون بسمة مفتعلة على شفاهم، ويرقبون الصراع اليهودى ـ العربى أو الإسلامى على ضوء مصالحهم السياسية والاقتصادية والدينية جميعًا.

وقد كانوا أول مراحل الصراع يرقبون المعارك بحذر، ويتعرفون مدى المقاومة التى يواجهها اليهود، ويجرى فى حسابهم أن العرب قد يردون اليهود

على أعقابهم مهما كانت الأمداد الصليبية لهم، فلما رأوا العرب سادرين فى غفلتهم، ورأوا كلمتهم مفرقة وصفوفهم ممزقة وشهواتهم جامحة وفوضاهم طافحة عرفوا أن إسرائيل كسبت المعركة، ولو ضد هذا الجيل التائه عن أسباب النصر.

ومن ثم عالن ساسة الغرب بمشاعرهم، وبارزوا العرب بالعدوان، وانطلق رؤساء الكنائس يكسبون عطف اليهود، ويخطبون ودهم بالكلمات والهدايا والمعونات والثروة، وأسرع بعض العرب للمشاركة فى هذه المظاهرة، والاعتراف بإسرائيل.

وشرحت الأيام قوله تعالى فى الصهاينة والصليبيين وحلفائهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وقامت إسرائيل على أنقاض فلسطين، وكان قيامها يمثل أمرين غريبين:

الأول: أن هذه الدولة قمة الحضارة الغربية فى تفوقها الصناعى، وعلماؤها يشاركون علماء الولايات المتحدة فى عسكرة الفضاء.

الثانى: أنها تمثل التعصب الدينى المطلق، فهى تمحو دينًا وتثبت آخر، وتمحو جنسًا وتثبت آخر.

والمفروض أن تكون اليهودية الصورة والحقيقة والشكل والموضوع، وأن تتسع حتى تبلغ الحدود التى رسمها العهد القديم، وقد يسمح بإقامة آخرين فيها لأداء واجب الخدمة وحسب.

جهد الاستعمار الثقافى والسياسى أن يمهد الأرض الإسلامية كلها لقبول هذا الواقع.

الحق أن مستقبل الإسلام كله فى مهب الرياح مع هذا البلاء الوافد.

عــــبرة للتعــلم

هل قص الله علينا قصص بنى إسرائيل فى القرآن الكريم لتسلية المسلمين؟ لا، إنما هو توعية للمسلمين، كأنه سبحانه وتعالى يقول للمسلمين: هذا تاريخ من سبق، يقرأ عليكم وحيًا معصومًا، وتتلونه فى الصلوات وفى مجالس الرحمة قرآنًا يذكر الناسين، ويوقظ الغافلين، لكى تتعلموا. فهل تعلمت الأمة الإسلامية من تاريخ بنى إسرائيل أن تستبقى أسباب المدح وأن تستبعد وسائل القدح؟ وفى محنة من محن بنى إسرائيل تألم اليهود وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. هذا كلام خطير، كأن موسى عليه السلام يقول لقومه: قد تستخلفون، وعندما تستخلفون وتتمكنون ينظر الله ماذا تعملون؟ هل هذا الكلام قيل لبنى إسرائيل وحدهم؟ لا، نجد فى سورة يونس أن الله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. الكلام واحد للفئتين، الكلام واحد للجنسين، الكلام الذى قيل للجنس اليهودى من ثلاثين أو أربعين قرنًا قيل للجنس الإسلامى أو للجنس العربى من أربعة عشر قرنًا.

وإننا نتساءل: كيف هوى اليهود؟ هووا بحب الحياة، هووا بالحرص على المال، هووا من شاهق؛ لأنهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، هووا من شاهق لأن الشخصية الدينية التى تميزوا بها وكُرِّموا من أجلها تلاشت فى خلالهم وانمحت من خصالهم، وظن الحمقى أن صلة أخرى تربطهم بالله هى صلة النسب للأنبياء، فهم كما يقولون: أبناء الأنبياء وأبناء الأسباط، ولا شىء

من هذا له قيمة عند الله، ننظر إلى المسلمين فنجد فعلاً أن الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا تخالف العصر الأول.

فى العصر الأول لما نزل قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾، سارع جمهور الناس إلى توقيع العقد، بل قالوا: نعمت الصفقة.. نفوس هو خالقها وأموال هو رازقها، يأخذ هذا منا؛ ليعطينا عليه الجنة، نعمت الصفقة.. هو المتفضل أولاً والمتفضل آخرًا.. ننظر إلى المسلمين الآن، فماذا نجد؟ نجد شيئًا آخر، نجد حبًّا غريبًا للحياة، حبًّا دنيئًا للحياة، حرصًا غريبًا على المتع، ذهولاً عن الإسلاميات التى شرف بها الأولون، العرب الأولون ما كانوا يشرفون إلا بالإسلام، أما الآن: فإن اسم الإسلام لا يظهر كما يجب، والأمة تحب المال والمتع، وعرف هذا فى تصرفاتهم على نحو غريب. كيف؟ يقول أعداء الإسلام لأنفسهم: ما نجد الأمة الإسلامية فى وضع أبعد لها عن الله، وأنأى عن تعاليم دينها منها فى هذا العصر، ويقول علماء القانون: إن القانون لا يحمى المغفل. حدث يوم كانت القدس فى سلطة الأردن أن صدرت أوامر للمسيحيين فى القدس أن يشتروا الأرض من المسلمين، كيف؟ قيل لهم اشتروا بأى سعر، إذا كان المتر بمئة جنيه فادفعوا ألفًا، وهذا شىء يوفر الكثير على العالم الصليبى، إن العالم الصليبى ظل مئتى سنة فى العصور الوسطى يحارب من أجل الاستيلاء على القدس، وبذل فى هذا عشرات الألوف من القتلى، وبذل فى هذا قناطير مقنطرة من الذهب، فإذا وجد المسلمين قطعانًا بلهاء تعيش فى القدس؛ يمكن أن يشترى من أى مسلم أرضًا، يرى المسلم أن بيته الذى ورثه يساوى ألف جنيه، يعرضون عليه مئة ألف، فيبيعه، وجد العلماء أن الأرض الإسلامية تتحول إلى أرض صليبية بثمن بخس، دراهم معدودة، فأصدر علماء المسلمين الفتوى هناك بأن من باع أرضه لصليبى فهو مرتد عن الإسلام، القدس التى حاول هؤلاء الاستيلاء عليها فى قتال ظل مئتى سنة يراد الآن أن تؤخذ بغير قطرة دم، لماذا؟ أمة تحب المال، وأنا أعلم أن شراء الأرض فى فلسطين مر بأدوار: هناك أفنديات ورثت إقطاعات

ضخمة ما رأتها، باعت الأرض لليهود فحولوها إلى مستعمرات عسكرية، وهناك من باع أرضه طلبًا للمال وحده، وهناك مؤمن أعطشت أرضه حتى بارت وهو حريص على ألا يبيعها. الناس مختلفون، الذى حدث عندما دخل اليهود فإن الثمن الذى دفعوه للأرض أخذوه من اللاجئين والمهاجرين، أخذوا كل سوار من ذهب، وكل حلية تحملها امرأة، أو رجل، واستردوا المال الذى دفعوه للأرض، القانون لا يحمى المغفلين.

وإذا كانت الأمة الإسلامية فى أماكن كثيرة يقال لبعض الصليبيين فيها: اشتروا الأرض فى مكان كذا، فإن هذا مقصود منه تحويل دار الإسلام إلى دار كفر أو أرض الإسلام إلى أرض كافرة، وهذا نوع من حب الدنيا الذى قال فيه نبينا ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: حب الدنيا وكراهية الموت**».

حب الدنيا.. ناس تبيع أرضها لأجل مال، رأيت أموالاً كثيرة تحولت إلى أطعمة فى بطون الآكلين، ثم تحولت إلى فضلات المجارى، ثم مات أصحابها ودفنوا فى مزبلة التاريخ، ثم تنتظر جهنم، أولئك جميعًا إلى النار وبئس القرار.

صلة جديدة فى ذكراه

لاحظت أن هناك عقولاً تأوى إليها الخرافة وتسكنها الأباطيل، ما صلتها بالإسلام إذا كان كتاب محمد مبنيًّا على الحقائق، معنيًّا بها وحدها؟

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ﴾.

هناك نفوس لا ترى إلا مدى شهوتها، ولا تقف إلا عند حدود أثرتها.

فإذا كان اتباع الهوى ـ كما أنبأنا الله ـ يفسد السماوات والأرض فكيف تفسد بالأهواء المطاعة شئون قبيل من الناس قلوا أو كثروا؟

إن الذين يفقدون أنوار العلم والفضيلة والحق والعدل والإيمان ليسوا من محمد فى قليل ولا كثير،ولا تغنى عنهم مزاعمهم فى هذا الصدد شيئًا.

سمعت أحد الناس يذكر ما روى عن الرسول الكريم ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة**»، فقلت: وددت والله لو كنا أهلاً لهذه المباهاة.

إن ظلمات الفوضى والمذلة والجهالة التى تلف جماهير المسلمين اليوم تجعل نبيهم ينظر إليهم فيأسى، أليس نبى النور؟ فما للنور، وأهل القبور؟

والله ما يبالى بكم محمد، وما يتوانى عن البراءة منكم، إلا تكونوا كما عنت الآية الكريمة:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

فإذا عاد المسلمون إلى الحياة الصحيحة، وانطلقوا على الأرض تحف بهم أنوار الهدى والسداد، كانوا أهلاً لأن تباهى بهم الأمم.

إن محمدًا ﷺ يحب النور، ويسأل الله فى أحواله كلها مزيدًا منه، وهو يكره الظلام وينأى بقلبه ولبه عنه، لا ظلام الليل ولكن ظلام الجاهلية، ظلام النفاق، ظلام الانقطاع عن الله، ظلام الرسوب مع الأثرة الجياشة الطافحة.

وهو لذلك يدعو الله أن يغمره من جهاته جميعًا بالنور، حتى لا تعمى عليه

سبيل، وحتى لا يطمئن به نزوع، أو يلتوى به هدف، إنه يدعو الله أن يشع من حوله هالة لا تنطفئ أبدًا، بل إنه يدعو أن يغلغل هذا النور كيانه حتى يمتزج بجلده وعصبه.

عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج إلى الصلاة وهو يقول: «**اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وعن يمينى نورًا، وخلفى نورًا، وفى عصبى نورًا، وفى دمى نورًا، وفى شعرى نورًا، وفى بشرى نورًا**».

وفى رواية أخرى: «**اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى لسانى نورًا، واجعل فى سمعى نورًا، وفى بصرى نورًا، واجعل من خلفى نورًا، ومن أمامى نورًا، واجعل من فوقى نورًا، ومن تحتى نورًا، اللهم اعطنى نورًا**».

يا من يريد الإسلام لله رب العالمين، التمس شعاعًا من المعرفة يضيء عقلك ويصلك بحقائق الكون، وشعاعًا من الفضيلة ينير قلبك، ويصلك بما وراء الكون، فإذا فقدت هذا الشعاع الهادى، فازعم كل شىء إلا الإسلام.

إن الحجب المركبة، والغشاوات المضاعفة، هى طبقات عازلة تمنع التيار من المرور، وإذا انقطع التيار واحتبست قواه المحركة والمبصرة؛ فلن يكون ثم إلا الظلام والموت، ولذلك وصف القرآن شئون الكافرين بقوله:

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

أيها المسلمون، أجلوا الظلام الذى حط بنفوسكم وبلادكم، تنشئوا صلة جديدة بنبى النور.

أجيبوا .. إن كنتم صادقين

لابد أن نعترف بأن موقف الحياد السياسى بين شتى القوى الأجنبية أمر لا محيص عنه، بل هو فى هذه الأيام مقتضى الإيمان.

وقد حدث فى أخريات الدولة الفاطمية أن جنح بعض الحكام إلى الصليبيين يستعين بهم على دعم سلطانه وإعزاز شأنه، فكان جنوحه إلى هذه القوى الغازية الخائنة جناية على الدين وأهله وخيانة للمسلمين ومصالحهم.

فماذا جنى من هذه السياسة؟

أن دمر عليه وعلى من معه، وكانت الخيانة التى لجأ إليها هى التى خطت مصرعه. ثم أنقذ الله البلاد من عواقب هذه السياسة المعوجة، وانتصر أهلها المخلصون، وطردوا الأجانب أجمعين وذهب من والاهم أدراج الرياح.

إن نفوسنا تغزوها الحسرات عندما نسمع نفرًا من ساسة العرب يبنون مستقبل بلادهم وذراريهم على محالفة الغرب. وعندما نسمعهم يستنكرون أى موقف حيادى مستقل ويقرون فى حرارة ورغبة أن تكون مواطنهم مسرحًا للغرب وأمريكا وإسرائيل.

والحقيقة أن القوم نضبت خلال العزة والشرف من بين جوانحهم، أما عواطف الإيمان بالله والغيرة على دينه وعباده؛ فقد انقضت من زمن سحيق، إن أمريكا ورئيسها ما يفتأ يؤكد فى إسراف منكر أن إسرائيل خُلقِت لتبقى، وأن وجودها فى ضمانه وضمان بلاده التى تملك أعظم قوة فى العالم.

إننا ننادى بهذه السياسة لا لشىء إلا لعجزنا عن الثأر لما نزل من لطمات مخزيات، فهل بلغ من رضا البعض بالنية أن يُركل بالقدم، ثم هو يتمسح بأذيال راكليه؟ ويريد الانضمام لمعسكرهم، والعمل فى صفهم؟

ألا فلنعلم علم اليقين أن أمريكا والغرب إن قبلا اليوم بعض الدول العربية حليفًا لهما، فإلى حين قريب، وسوف يأبيان عليهم حق الحياة ولو خدموا.

إن الغرب وأمريكا يكرهون الإسلام ويمقتون أهله ويضعون لهم الشر حالاً، وينوون لهم ما هو أقسى وأنكى مستقبلاً، ذلك إلى جانب أن تاريخ الاستعمار

القديم والحديث هو تاريخ السلب والنهب والقرصنة وسفك الدماء وقتل الأبرياء مضافًا إليها قدرًا وفيرًا من التبجح وقلة الحياء.

اقرأوا معى - على سبيل المثال - هذه الفقرة من خطاب قائد الأسطول البرتغالى الذى استولى على مقاطعة «جوا» الهندية، قبل أربعة قرون وهو «البو كيرك» الذى كتب إلى ملك البرتغال يقول:

وبعد ذلك أحرقت المدينة - أى جوا - وأعملت السيف فى كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أيامًا عديدة... وحيثما وجدنا المسلمين لم نوفر معهم نفسًا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيهم النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت.

وقد كان ذلك يا سيدى عملاً عظيمًا رائعًا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته.

عمل عظيم رائع...

أكانت هذه الوقائع فى رأس جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا حينما وقف فى أحد مؤتمراته الصحفية ينتصر للبرتغال فى قضية «جوا» البرتغالية؟

ولنا فى التاريخ عبرة أليس كذلك يا أصدقاء الغرب وأمريكا ومحترفى الدعاية لهما والتحالف معهما والسير فى ظلهما؟

أليس كذلك يا ساسة العرب؟ أجيبوا، إن كنتم صادقين.

حــول قيــام إســرائيــل

أكاد أجزم بأن الأمة العربية والإسلامية فى مطالع هذا القرن لم تكن تدرى شيئًا عن الخطة الهائلة الموضوعة لتمزيقها والتهامها. فى سنة ١٨٩٧م انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى؛ لإقامة وطن قومى لليهود على أرضنا طبعًا.. فأين للرد عليه مقالات الأدباء وقصائد الشعراء وتحذيرات الساسة، وتكاتف المجاهدين، وتراص القوى المؤمنة لمواجهة هذا العدوان؟! لقد اجتمع هذا المؤتمر وانفض والأمة المقصودة به لا تعى من نبئه إلا القليل؛ قد يقال: كان حديث اليهود يومئذ أحلام طامع سفيه لا يؤبه له. ونقول: كيف والاستعمار الغربى كان فى هذه الأثناء يجثم على صدر وادى النيل، ويطوى أرجاء المغرب الكبير، ويجعل من قناة السويس طريقًا إلى ممتلكاته فى الهند وجنوب آسيا وأكناف الجزيرة العربية؟! أكان كثيرًا على الاستعمار الذى أحرز كل هاتيك المغانم أن يقتطع فلسطين ويقيم فيها اليهود؟ كلا. إنها غفوة دفع العرب والمسلمون ثمنها من دمائهم وكرامتهم والغريب أنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى صدر وعد بلفور. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها فى أرجاء الدنيا البعيدة اشتعلت داخل البلد المكروب ـ فلسطين ـ حرب أخرى لتنفيذ الوعد الخسيس، ولنقل القطر العربى من أبنائه إلى أعدائه، ومع ذلك فإن ساسة العرب فى الحرب العالمية الثانية قاتلوا إلى جانب جزاريهم، وكانوا حلفاء للغرب الذى قرر ذبحهم، وقبضوا المكافأة على هذا الهوان قيام إسرائيل ركيزة ضخمة للاستعمار الخئون ودوله الطامعة الجائعة.. وعلى كل حال فقد انكشف المخبوء واتضحت الخطة بعد تنفيذها. واستبان أن هناك حلفًا غير شريف ضدنا، طرفاه الاستعمار والصهيونية، وأن النجاة من هذا العدوان المبين تستدعى تغيرًا كبيرًا فى فهمنا للأمور، أى تستدعى مواجهة الخطر بكل ما لدينا من قوة ووحدة، وبكل ما فى رسالتنا من حق وجهاد.

إن خطة الاستعمار قامت على أساس بين هو تمزيق الرقعة العربية والإسلامية، وجعل كل مزقة كيانًا ماديًا ومعنويًا لا صلة له بالآخر فى ميدان السياسة الداخلية أو الخارجية، ولما كانت روابط الدين واللغة والتاريخ والمصلحة توحى بالتجمع ذيادًا عن الحياة الصحيحة لأمتنا، فإن الاستعمار

أوهن هذه الروابط جميعًا واجتهد إما فى إماتتها أو تأخير مرتبتها. ونشأ عن هذا المسلك أن العربى فى فلسطين أصبحت له جنسية خاصة، تجعله غريبًا عن أخيه فى مصر الذى أصبح هو الآخر له جنسية خاصة. ومع أن العرب رفضوا هذا التوزيع الطارئ على حياتهم الاجتماعية والسياسية، إلا أن هذا التوزيع الخبيث فرض نفسه، فكان تهويد فلسطين يتم تلقائيًا ويتغلب على المقاومة الباسلة التى يبديها عرب الإقليم المحصور داخل حدوده الجديدة.

إن القوميات الضيقة التى اخترعها الاستعمار كانت نكبة على الإسلام والعروبة معًا. والفرق كبير بين أن تكون (يافا) مثلاً جزءًا من سورية أو مصر، وبين أن تكون بلدًا فى قطر عربى آخر تربطنا به صلات الجوار والقربى، وقد استبقى الاستعمار هذا التمزيق لأمتنا الكبرى حتى حقق مآربه من إقامة إسرائيل.

ماذا كان يحدث فى منطقة الشرق الأوسط لو أن الوحدة العربية حقيقة واقعة لا مجرد أمل يتردد فى نفوس المصلحين؟ وإن الإسلام روح هذه الوحدة لا النزعات الجنسية والدعوات المنحرفة؟ أو بعبارة أخرى: ماذا كان يحدث لو أن عصابات صهيون عندما هاجمت فلسطين وجدت دولة عربية واحدة لا سبع دول، وجيشًا عربيًا واحدًا لا سبعة جيوش؟

الذى كان يحدث، أن هذه العصابات ـ لو وجدت من نفسها الجرأة على الهجوم ـ كانت ستدفع ـ حياتها ثمنًا لمغامراتها، فإما التهمتهم أسماك البحر، أو أكلتهم سباع البر وطيور الجو.

ولما أمكنهم أن يضعوا أقدامهم على شبر من تراب الأرض المقدسة. كون جزء معزول عن أخيه، هو ما جعل لفلسطين قضية خاصة بها. ثم هو ما جعل الأقاليم المحيطة بها تنكب بحكام يتاجرون بقضيتها المحزنة ويودون التوسع على حسابها.

ثم هو ما جعل إنجلترا ـ أم الخبائث فى ميدان الاستعمار ـ تبذر بذور الخيانة بين الدول السبع والجيوش السبعة، فإذا الحرب التى وقعت سنة ١٩٤٨م تتمخض عن مهزلة شائنة وإذا عملاء إنجلترا يخوضون هذه الحرب لا ليحموا فلسطين، بل ليخلقوا من العدم إسرائيل.



مـواريثـنـا الثقـافيــة

طوت الأمة الإسلامية قرونًا عديدة، وجازت عقبات كئودًا، وهى مشدودة الأواصر بهذه المواريث الروحية والفكرية، محكمة النسج بتلك الروابط المادية والأدبية.

يصعد الجد بها ويكبو، وتمر بها أيام سعد ونحس.

حتى تعرضت منذ قرن لأخبث استعمار عرفته منذ وجدت.

فإذا هذا الاستعمار يصوب قذائفه بمهارة ودأب نحو مواريثنا الثقافية، ويبذل آخر ما لديه من دهاء وعنف لجعل الأمة برمتها فى ناحية، وجعل تعليمها وتشريعها وخلقها وأمانيها فى ناحية أخرى غير ما تؤمن به وتحن إليه.

إنه يحول بين المرء ونفسه.

إنه يحول بين الأمة، وروحها، وضميرها وتاريخها ورسالتها. وهو بهذه الحيلولة يحكم عليها بالموت البطىء أو السريع، على قدر ما يلقى من نجاح فى كيد!!

أجل، إن القضاء على ميراثنا الروحى والفكرى، ـ نحن المسلمين ـ هو التمهيد الحاسم للقضاء علينا إلى الأبد.

ولكن باسم «التطور» ظهر فى جملة أقطار إسلامية أناس يكرهون الإسلام، ويضيقون بذكره أشد الضيق، وهم يحاولون عبثًا أن يقيموا إصلاحات، أو ينشئوا يقظات، لا تمت إلى الإسلام بنسب، ولا صلة!!

وقد استطاع بعضهم الإغارة على الحكم، وتسخير سلطاته فى التدمير على الدين، ونبذ شرائعه، وإقصاء دراساته، وإماتة أهدافه.

إن الحريات المكفولة أعدى عدو لهؤلاء الحكام الكفرة، ذلك أنهم كى يقيموا الأنظمة التى يريدون، يجب أن يزيلوا المخلفات القديمة ـ كما يسمونها ـ وأن يغيروا بيئات أمضى الزمان فى بنائها الروحى أربعة عشر قرنًا، كما حدث فى تركيا.



ودون صعوبات هائلة، وعراك طويل.

ولن تنتهى هذه المحاولات أبدًا بخير يعود على الأمة أو يصون غدها.

وإلى متى تظل الأمة الإسلامية المترامية الأطراف صريعة حيرة وبلبلة لا آخر لهما؟

وإلى متى يحتدم الجدال النظرى أو الدموى، حول القيم التى تنبعث عنها، والمثل التى تهفو إليها؟

أمسموح لليهود أن يعالنوا بدينهم فى إسرائيل، ويتجمعوا من أطراف الأرض القصية حول مواريثه الموهومة؟ ومحظور مثل ذلك على المسلمين وحدهم؟

أمسموح للنصارى أن يرسموا صلبانهم حول ألوف الأعلام، وأن يملأوا أفواههم بنسبهم الروحى فى كل قطر، ومحظور ذلك على المسلمين وحدهم؟

أحرام على بلابله الدوح
حلال للطير من كل جنس

ثقوا أيها السادة أن كل جيل ينشأ مزعزع العقيدة، غامض الأهداف هيهات أن يفلح.

فكيف يضيق المجال أمام المواريث الثقافية لئلا تأخذ امتدادها الحق، ثم ترتقب أمة صالحة؟ أو نهضة ناجحة؟

إن كل عمل يقوم على إقصاء الإسلام، واستبعاد وحيه والتجهم لهديه يستحيل أن يكلل إلا بالعار.

ومن ثم، فلن تنجح أبدًا فى بلاد الإسلام ثورة تدوس عقائده وشرائعه، وتهمل أوامره ونواهيه!!

إن انتشار الإلحاد فى بعض البلدان لا يدهشنى!

وإنما يدهشنى بقاء الإسلام إلى اليوم مع الحروب المتصلة المبيدة، الجلى منها والخفى، التى تعرض لها هذا الدين.

هذه الحروب التى سخرت كل أداة للنيل منه والتزهيد فيه، والشغب عليه!!

إن الأمر اليوم جدّ لا يتحمل الهزل، وحق لا يستسيغ الباطل!

وكانت ليلة الإسراء

نهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة، وجعل منهم حملة حضارة زاهية، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الغنم ونقل السلع، تتلو من كتابها أصلح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد.

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول:

يغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر!
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا
فما ينقضى إلا ونحن على شطر!

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى، حتى قال «جوستاف لوبون»: إن العالم لم يعرف فاتحًا أرحم من العرب!. وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه آية من آيات التواضع لله والبر بالناس، ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والرحمة.

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقًا آخر، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثرتهم فى أرجاء الأرض، فتوزعتهم المدائن والقرى فى المشارق والمغارب، بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ونهج ملحوظ، يزعمون أنهم شعب الله المختار، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل، وتقوقعوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس، والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحيًا يتلى، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذى أنزلها عليهم! وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى عليه السلام، وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى عليه السلام نجا من مؤامرتهم فالقوم على أية حال قتلة بضمائرهم، ومن ثم شرع النصارى ـ حكامًا وشعوبًا ـ فى اضطهادهم

وإرخاص دمائهم، وعرضت لهم مآسٍ فى أنحاء أوروبا كادت تنتهى بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين:لولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم! ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام، فأثرتهم الشديدة، وشرههم فى حب المال، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها، كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم، وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم فى طول أوروبا وعرضها.

ومرت السنون ثقيلة طويلة، وظهرت الخلائق المستورة، أو نبتت ونضجت البذور الكامنة! كان المسلمون يغطون فى نوم عميق، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بثارات قديمة. كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجوية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أو عن الرحلة الفلكية بين المسجد الأقصى وسدرة المنتهى، ولا بأس أن يقولوا شعرًا ونثرًا، أما الدرس الواعى للأمم التى توارثت فلسطين، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون فى ذلك، وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأمم تفكر فى العودة، وتحسن استغلال الفرص. فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة، انكشف عن تعصب يهودى شديد النبض، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة، أما العرب فقد قيل لهم: احلموا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى، تؤازركم فى المحافل الدولية، وتعدل بينكم وبين خصومكم! واستكان النوام للأحلام، فما صحوا إلا على المذابح تحصدهم رجالاً ونساءً، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات، والغيوم تسد الآفاق كلها أمام مستقبل معقول، ما الذى حدث؟ ندع الجواب لغيرنا! ندعه لخصومنا ونتدبر ما يقولون..

كتب «حاييم وايزمان» فى مذكراته يقول لقومه: «تحسبون أن لورد «بلفور» كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومى لنا فى فلسطين؟ كلا، إن الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم». وندع «وايزمان» و«بلفور» ونتدبر تصريحات مستر «كارتر» ومن بعده. إنهم جميعًا يتحدثون مع «بيجين» عن أرض الميعاد، وعن نبوءات التوراة والحدود التى رسمتها. إن المشاعر الدينية الغائرة فى العقل الباطن والظاهر هى التى جعلت جنرال «جيرو» يقول فى دمشق أمام قبر صلاح الدين: ها نحن قد عدنا

يا صلاح الدين! وهى نفسها التى جعلت مارشال «اللنبى» يدخل القدس فى الحرب العالمية الأولى ويقول: الآن انتهت الحروب الصليبية.

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وآماله الدينية إلا قومنا وحدهم، فإنهم يتذاكرون بينهم أن الدين رجعية!

من وحى الإسراء والمعراج

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الإسراء، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بنى إسرائيل،وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسراء فى بعض المصاحف سورة «بنى إسرائيل»!

بل أقول: إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ بعد أن لبث فى أيديهم قرابة قرن! كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين فى ذكرى احتفالهم بالإسراء؛ إشارة إلى أن المسجد الذى ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لا تنفصم، وأنه لا الصليبية قديمًا ولا الصهيونية حديثًا ستغيران سنن الله فى مصائر الأمم، وإن نجحت كلتاهما إلى حين فى إلحاق هزيمة بالمسلمين!

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾. ما العلاقة بين الإسراء، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم، والتعليق عليها، وتبصير المسلمين بعواقبها؟ إن الإسراء كان من مكة إلى القدس، ولليهود فى هذه البقاع تاريخ! صحيح أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين يوم وقع الإسراء، بل كان وجودهم فى فلسطين محظورًا، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه. وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها فى صدر سورة الإسراء، وهو ما نريد الآن متابعته من الناحية التاريخية!

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديمًا وهم سلالات عربية كإخوانهم



العدنانيين والقحطانيين، ويظهر أنهم تجبروا، وأثاروا الرعب حيث يعيشون، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم، فسلط عليهم بنى إسرائيل، وقد وجل الإسرائيليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين، وغلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى: ﴿ لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ﴾. وعوقب الإسرائيليون على جبنهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة، مات خلالها موسى عليه السلام ثم خلفه يوشع الذى قاد بنى إسرائيل إلى فلسطين منتصرًا على الكنعانيين، وبانيًا حكمًا دينيًّا باسم التوراة بعد هزيمة العرب! بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شرًّا على من كان قبلهم، وقد حكوا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة، وبما أن السلطة فى يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا لها بأهل..! ينبغى تجريدهم منها، وكانت فلسطين ـ حتى بعد قدوم اليهود ـ مليئة بأجناس أخرى، وكان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنعميين» من أصل لا يمكن أبدًا أن يرتفع، كيف؟ قالوا: إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى بابنته!! وكتبوا ذلك فى سفر التكوين!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر فى العهد الجديد! فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى عليه السلام وهو يدعو فى بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يابن داود، بنتى مريضة جدًّا. وطلبت منه شفاءها! فقال لها: اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب، «يعنى بالبنين: بنى إسرائيل، وبالكلاب: الكنعانيين».

فقالت المحزونة: والكلاب أيضًا تأكل تحت أقدام السادة!، فشفى لها ابنتها بعد



هذه الضراعة الذليلة، ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم عليه السلام يستحيل أن يسلك هذا المسلك، أو يرسل هذه الشتائم، لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب، ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾. صدق الله العظيم.

غـرور أصحـاب الأديـان

أفسد شيء للأديان غرور أصحابها، يحسب أحدهم أن انتماءه المجرد لدين ما قد ملكه مفاتيح السماء، وجعله الوارث الأوحد للجنة! لماذا؟

هل كبح أهواءه؟ هل أمات جشعه؟ هل جند ملكاته للتسبيح بحمد الله والاهتمام بآلام الناس؟ لم يفعل شيئًا من ذلك، كل ما يملأ أقطار نفسه أن له بالله علاقة مزعومة، لا يُعرف لها وزن.

ومن ثم فإن صاحب هذا التدين يتوصل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب، بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية، وقد كان بنو إسرائيل قديمًا مهرة فى ارتياد هذه المسالك المعوجة.

ولكى يسيغوها لأنفسهم زعموا أن نبى الله يعقوب عليه السلام اختطف منصب النبوة من أخيه عيصو! ولجأ إلى المخادعة والغش وأشياء أخرى!

كيف؟ إنه فى رأى نفسه أولى، فلا حرج من الشطارة ليبلغ ما يريد، ولا حرج على أبنائه أن يقلدوا أباهم فيما حكوه عنه، أو فيما نسبوه إليه!

وزعم بنو إسرائيل أن إبراهيم عليه السلام طلب النجاة بنفسه عن طريق تعريض زوجته لأحد الفُتّاك من جبابرة الأرض، وساورته الرغبة فى بعض المغانم، التى ظفر بها أخيرًا.

والواقع أن المجتمع اليهودى ـ قبل بعثة المسيح عليه السلام ـ طفح بالآثام، وأن بيت المقدس شهد مآسى للشرف ومصارع للشرفاء على أيام السيادة اليهودية الأولى.

وفى جبل الزيتون الواقع شرقى بيت المقدس وقف السيد المسيح عليه السلام يبعث صيحاته الواحدة تلو الأخرى، منذرًا جموع اليهود بقوله: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا.. هو ذا بيتكم يترك لكم خرابًا...».

ونقرأ هذا الحوار فى إنجيل يوحنا: «قال اليهود للمسيح: أبونا هو إبراهيم، قال

لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.. ولكنكم تطلبون قتلى! وهذا ليس عمل إبراهيم! أنتم من أب آخر هو إبليس».

وفى موقف آخر كشف المسيح عن طبيعة التدين الكاذب لدى القوم فقال لهم مصارحًا: لقد جعلتم بيت الله مغارة لصوص؟!

إن الدين، كما نزل من عند الله، وكما تجسد فى سير الدعاة، أعمال صالحة وأخلاق زاكية وأحكام عادلة، ورعاة يتقون الله فى الشعوب، وشعوب تتواصى بالصبر والمرحمة، وتقيم تقاليدها على البر والمواساة.

والغريب أن القرآن الكريم حذر أهل الكتاب جميعًا، المسلمين والنصارى واليهود من تجاهل فحوى الدين والتعلق بمراسمه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

فهل يعى ذلك الأحبار الكبار والكرادلة الذين يظاهرون اليهود على عرب فلسطين البائسين؟

وهل يعى ذلك مسلمون تائهون عموا عن رسالتهم، فلم ينصفوها فى فقه ولا فى خلق؟

وهل ننتظر حتى يتحول اليهودى التائه إلى العربى التائه؟

معنـى الحريـــة الحقيقيـة

يؤسفنا أن نقول: إن تاريخنا العلمي والاجتماعي والسياسي كان ينزل خلال القرون الأخيرة من مزالق إلى منحدرات، ومن منحدرات إلى هاويات، لأن أزمة النشاط المادي والأدبي كانت في أيدي أفراد يكرهون النقد، ولا يحبونه من أحد، ولا يسمحون بجو يوجده وينعشه.

والغريب أن هؤلاء الرجال ـ عندما يوزنون بحساب النبوغ والقدرة ـ لا ترجح بهم كفة، فكيف يصلح بهم وضع، أو نبني بهم نهضة، أو تنشط بهم قوة البناء والإنتاج؟ حاجة المسلمين إلى الحريات البناءة ـ في تاريخهم الأخير ـ أزرت بهم، وحطت مكانتهم، على حين نعمت أجناس أخرى بتلك الحريات، فتحركت بقوة، ثم اطرد سيرها في كل مجال، فإذا هي تبلغ من الرفعة أوجًا يرد الطرف وهو حسير.

وزاد الطين بلة شيء آخر، إننا عندما اتصلنا بالغرب في أثناء القرنين الماضيين، وشعرنا بضرورة الاقتباس منه والنقل عنه، كانت أفهامنا من الصغار ـ ولا أقول من الغفلة ـ بحيث لم تلتفت إلا للتوافه والمادات، فالحرية التي تشبثنا بها،ليست هي حرية العقل في أن يفكر ويجد ويكتشف، بل حرية الغريزة في أن تطيش، وتنزوي، وتضطرم، وسرعان ما احتلت الملابس الأوروبية أجسامنا، والأثاث الأوروبي بيوتنا، والعادات الأوروبية ـ في الأكل والنوم ـ أحوالنا، أما تألق الذهن، وجودة التفكير، وإطلاق القوى البشرية من مرقدها تسعى وتربح، فذلك شأن آخر، ومن السهل على القردة أن تقلد حركات إنسان ما، أتظنها بهذا التقليد السخيف تتحول بشرًا! ولقد رأينا المسنين من الرجال، والأحداث من العيال، يأخذون عن أوروبا الكثير من مظاهر المدنية الحديثة، وهي مظاهر نبتت خلال حضارة الغرب كما تنبت «الدنيبة» خلال حقول الأرز، إنها شيء آخر غير حضارة الغرب التي ارتفع بها واستفاد منها، فهل هذا الأخذ الغبي رفع خسيستهم، أو دعم مكانتهم؟ كلا، إنهم مازادوا به إلا خبالاً، اليابان نهضت نهضة كبرى في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، والصين نهضت نهضة أشمل وأخطر في منتصف القرن العشرين، وكلتا الأمتين حرصت على تقاليدها الخاصة في اللباس والطعام وما إليهما، وعبت من مناهل المعرفة الحقيقية ما غير حالتها

تغييرًا تامًّا، أما نحن فقد هجرنا الموضوع إلى الشكل، بل تخبطنا فيما ندع وننقل على حساب ديننا وتاريخنا، فلم نصنع شيئًا، الحرية التى نريدها ليست فى استطاعة إنسان يلغو كيف شاء، فما قيمة صحافة تملأ أوراقها بهراء لا يصلح فاسدًا، ولا يقيم عوجًا؟

الحرية التى نريدها ليست فى قدرة شاب على العبث متى أراد، فما قيمة أمة تصرف طاقات الأفراد فى تيسير الخنا وإباحة الزنا؟

الحرية التى يحتاج إليها العالم الإسلامى تعنى إزالة العوائق المفتعلة من أمام الفطرة الإنسانية، عندما تطلب حقوقها فى الحياة الآمنة العادلة الكريمة، الحياة التى تتكافأ فيها الدماء وتتساوى الفرص وتكفل الحقوق، وينتفى منها البغى، ويمهد فيها طريق التنافس والسبق أمام الطامحين والأقوياء.

الاستبداد يشل القوى

الحكم الذى ساد بلاد الإسلام من بضعة قرون كان طرازًا منكرًا من الاستبداد والفوضى، انكمشت فيه الحريات الطبيعية، وخارت القوى المادية والأدبية، وسيطر على موازين الحياة العامة نفر من الجبابرة أمكنتهم الأيام العجاف أن يقلبوا الأمور رأسًا على عقب، وأن ينشروا الفزع فى القلوب، والقصر فى الآمال، والوهن فى العزائم. والحكم الاستبدادى تهديم للدين وتخريب للدنيا، فهو بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعًا، وهو دخان مشئوم الظل تختنق الأرواح والأجسام فى نطاقه حيث امتد، فلا سوق الفضائل والآداب تنشط، ولا سوق الزراعة والصناعة تروج.

ومن هنا حكمنا بأن الوثنية السياسية حرب على الله وحرب على الناس، وأن الخلاص منها شىء لا مفر منه لصلاح الدنيا والآخرة، وقد أصيب الإسلام فى مقاتله من استبداد الحاكمين باسمه، بل لقد ارتدت بعض القبائل، ولحقت بالروم فرارًا من الجور.

إن المستبدين ينبتون فى مناصبهم نبتًا شيطانيًا لا توضع له بذور، ولا تحف به رغبة، ولا تشرف عليه موازنة أو مشورة، وعندما يوضع رأس فارغ على كيان كبير، فلابد أن يفرض عليه تفاهته، وأثرته، وفراغه.

ومن هنا تطرق الخلل إلى شئون الأمة كلها، فوقعت فى براثن الاستعمار الأخير لأن أغلب الحكام كانوا فى واقع أمرهم حربًا على الأمة الإسلامية، أو كانوا فى أحسن أحوالهم ترابًا على نارها، وقتامًا على نورها، فلو خلوها وشأنها لاستطاعت الدفاع عن نفسها، متخففة من أعباء هؤلاء الحكام، ومن جنون العظمة الذى استولى عليهم، ثم إن الإسلام ينكر أساليب العسف التى يلجأ إليها أولئك المستبدون فى استدامة حكمهم واستتباب الأمر لهم.

إنه يحرم أن يضرب إنسان ظلمًا، أو أن يسفك دمه ظلمًا، فما تساوى الحياة كلها شيئًا إذا استرخصت فيها حياة فرد.

قال رسول الله ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**». فأشد الجرائم نكرًا، أن يقتل امرؤ من الناس توطيدًا لعزة ملك أوسيطرة حاكم.

وفى حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجىء المقتول يوم القيامة آخذًا قاتله، وأوداجه تشخب دمًا ـ عند ذى العزة جل شأنه ـ فيقول: يارب، سل هذا، فيم قتلنى؟ فيقول المولى عز وجل: فيم قتلته؟ قال: قتلته لتكون العزة لفلان. قيل: هى لله**».

وفى التعذيب دون القتل، وهو ما ينتشر فى سجون الظلمة، يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من جلد ظهر مسلم بغير حق؛ لقى الله وهو عليه غضبان**». ويقول ﷺ أيضًا: «**ظَهْرُ المُسْلمِ حمى، إلا بحقه**». يعنى أن المسلم لا يجوز أن يمس بسوء أبدًا، إلا أن يرتكب ذنبًا أو يصيب حدًّا، فعندئذ يؤخذ منه الحق الثابت فى دين الله.

إن الجو الممتلئ بما يصون الكرامات، ويقدس الدماء والأموال والأعراض هو الجو الذى يصنعه الإسلام للناس كافة، وهو بداهة الجو الذى يحسنون فيه العمل والإنتاج.

فحيث تسود الطمأنينة، ويختفى الرعب، ينصرف العامة إلى تثمير أموالهم وتكثير ثرواتهم، لأنهم واثقون أن حصاد ما يغرسون لهم ولذراريهم، فهم غير مدخرين وسعًا فى العمل والإنتاج.

مــا جــدوى العــويـــل؟

ما جدوى العويل، وامتلاك وسائل النشر والطى، والإعلان والكتمان أمران خطيران فى صناعة التاريخ، وتوجيه أحداثه، وصياغة الأفكار صياغة خاصة فى فهمها وذوقها؟ وأوربا وأمريكا تملكان الآن أدق الآلات لتحريف التاريخ الإنسانى، ومحو ما تريدان محوه، وإثبات ما تريدان إثباته، فإذا استقرت إحدى الحقائق على الرغم منهما، عملا على حصرها فى أضيق دائرة، إلى أن تتاح الفرصة لإزالتها من الأذهان، ونحن الآن فى سباق مع الطواغيت لإذاعة بعض ما انكشف من فضائح الاستعمار ومآسى التعصب، قبل أن يستطيعوا إخفاء ذلك كله عن الناس، ثم الظهور بينهم وكأنهم مُثُل عليا للنزاهة ونظافة الأيدى، وقد اصطلحت اليوم الصهيونية العالمية مع الاستعمار الصليبى، اصطلحا على قتل المسلمين فى فلسطين، وانتهاب مدائنهم وقراهم، واتفقت إنجلترا وفرنسا وأمريكا على إقامة دولة لليهود، بعد أن يطرد المسلمون العرب من أرضهم بالسيف أو بالمكر، والصلح بين الفريقين ليس صلحًا بين دينين، فإن أديان الله لا تتواطأ على السرقة وسفك الدماء، لكنه صلح بين عصابات من النخاسة على اقتسام الأسلاب، ونسيان كل مروءة وشرف.

وها قد تحركت غرائز الفتك فى اليهود، والقربان الذى يتقرب أتقياء اليهود بذبحه ليس رجلاً نصرانيًا واحدًا، بل رجال مسلمون كثير، رجال ونساء وأطفال، هم زهرة الشباب العربى المسلم.

ودور الاستعمار الصليبى فى هذه المجزرة الجديدة أنه يضع السكين فى أيدى المتقربين إلى الله بدماء خصومهم، يضع فى أيديهم أدوات الهلاك كلها ثم يقول لهم: اصنعوا ما تحبون، فإذا قاومت الضحايا البريئة، واستعصت على الموت، شد عليها هو الآخر، ليجهز عليها، وليفرغ بسرعة لغيرها.

أرأيت؟ فإذا تمت الفجيعة، أسكتت صحف أوربا وأمريكا إسكاتًا مطلقًا، وسكنت أسلاك البرق فما تهتز بنبأ، وخرست الإذاعات فلم تنطق بكلمة، بل على العكس، تترأس الولايات المتحدة حملة جديدة؛ كى تجمع الإعانات لإسرائيل، بوصفها الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تستحق الحياة، إن اللصوص إذا

قتلوا أى موظفين أو رعايا أمريكيين فى أية دولة عربية أو إسلامية قامت الدنيا وقعدت، ولم ولن تهدأ الولايات المتحدة حتى تسقط الوزارات والأنظمة إذا اقتضى الأمر، إن الدم الأمريكى غال ثمنه، أما الدم الإسلامى فهو وحده الذى يراق على الثرى، كما تراق زجاجات الحبر الأحمر، بل هو وحده الذى تجمع الإعانات إغراء بإراقته، وإغراء على سفك المزيد منه، كذلك يفعل بنا المستعمرون من أوربيين وأمريكيين.

رجعت بى الذاكرة إلى عام ١٩٥٦م، وأنا فى القاهرة أستمع إلى فظائع اليهود يوم كانوا يحتلون قطاع غزة، ما أرجو من قوم مسخوا وحوشًا، ثم جعلوا وحشيتهم عقيدة؟، لقد كنت أطالع الأخبار عن خنادق الموت التى عثروا عليها، ثم أستشعر الهم الثقيل، ما هذا؟ هذه حفرة فيها قرابة سبعين جثة مذبوحة للشباب المختطفين من أهل غزة! وعاد بى الخيال إلى القضية التى وقعت من قرن وربع، ترى هل جثم رهبان اليهود وعبادهم على صدور هؤلاء الشباب وذبحوهم قربى إلى الله، أم أن الجنود تحولوا كلهم أتقياء يتقربون إلى ربهم بذبح الأسرى؟ إن حفرًا كثيرة وجدت ممتلئة بجثث أخرى، وكان الآباء والأمهات يجهشون بالبكاء وهم يتعرفون على ذوى قرابتهم.

ابكوا أو لا تبكوا، ما جدوى العويل؟ من لم يتذأّب أكلته الذئاب، وضحكت فى ألم مُمِضّ وأنا أقرأ حماقة بعض الحكام فى القطاع البائس وهم يطلبون من ضباط الهدنة التابعين لهيئة الأمم المتحدة أن يشرعوا فى تحقيق هذه الجرائم.

تحقيق.. ألا تزالون تعتنقون الخرافات، وتظنون الخير فى صنّاع الآثام؟.. إن موظفى هيئة الأمم المتحدة اشتُرُوا من زمان طويل بالمال أو بالنساء، أو دفعهم الحقد إلى التطوع من دون رشوة؛ لمحق الإسلام والمسلمين فى هذه الديار.

إنها حرب دينية أيها الغافلون، استبحتم فيها واستبيح فيها كل شىء يتصل بكم، ولن تنتظروا إلا شيئًا واحدًا، أن يكافأ قتلتكم بمزيد من السلطان والتوسع والتمكين، إن الاستعمار الصليبى يسارع فى هوى حليفته، هوى شريكته المدللة إسرائيل التى تعاونه على تحطيم الكيان الإسلامى فى هذه البقعة الحساسة من العالم.

وسـيلة لا غـايـة

ابتلى المسلمون منذ عصور طويلة، بمرض شديد فتاك يأكل الأفكار والمشاعر، هو التبلد العقلى، والموات العاطفى.

ولو أن المرء التافه فى قلبه ولبّه يلقى عواقب عجزه فى خاصة نفسه، لهان على الدنيا أمره.

هب أن رجلاً دخل ميدان التجارة وهو لا يعرف عن طبيعة السوق شيئًا، أو دخل وهو ينوى اتباع وسائل اللصوص فى الكسب والغش، إنه لا يلبث طويلاً حتى ينسحب من السوق وقد أضاع ماله، وخرج صفر اليدين، ولن تعدو القصة أن رجلاً جاهلاً فتح دكانًا، ثم أقفله وانتهى الأمر.

لكن النكبة أن يدخل فرد، أو تدخل جماعة ميدان الجهاد الرحب، فإذا جئت تبحث عن هذا المجاهد ووسائل نجاحه التى أعدها، وَجَفَ قلبك من تفاهة ما ترى.

قلب تغلفه نزغات الحمأ المسنون، ففيه من شهوات الدنيا نتن، وعقل تثبت فيه الأشياء مقلوبة، فلا تكاد ترى له حكمًا صائبًا على شىء أبدًا.

فى هذا الميدان يخسر الدين كل شىء، لأنه لا يملك من أسباب الغلب شيئًا، ورجاله كما ترى.

فإذا ظفرت الدعوات الأخرى برجال كبار القلوب والعقول، فإن المستقبل يتمحض لها وحدها.

والدين قد ينفرد بالعبادات التى يلزم بها المرء من صلاة وصيام مثلاً، لكنه فى ميدان الإصلاح العام يُزاحَمُ ببرامج شتى، فإن حارب الفقر، أو الاستبداد بمناهج معينة، فإن هناك مبادئ وفلسفات أخرى تحارب الفقر والاستبداد كذلك ببرامج معروفة.

ولن ترجح كفة الدين على غيره، وتنطبع الحياة بتعاليمه إلا إذا كان العلاج الذى يتقدم به رجاله أسرع وأقطع، وأصرح وأوضح، وإلا فلابد أن يتقهقر الدين وتتقدم هذه البرامج.



خذ مثلاً مشكلة الاستبداد السياسى وما تتركه فى جسم الأمة من علل سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية، فالحكام المستبدون والنظم التى يقومون عليها جرثومة هذا الفساد العريض.

فإذا رأيت أهل الدين ضعفاء الإحساس بهذه المشكلة، خافتى الصوت باستنكارها، على حين يصرخ غيرهم بلعن الاستبداد والمستبدين، فهل يضار من ذلك إلا الدين نفسه؟

كان الرسول معلمًا ومربيًا؛ لأن الإسلام يقوم على الأمرين جميعًا.

التعليم يتجه إلى العقل فيملؤه بأشتات من المعارف الصحيحة عن الحياة ورب الحياة.

والتربية تتجه إلى النفس، فتتعهد غرائزها بالتقويم والتعذيب، فما كان من خير أبقته ونمته، وما كان من شر بترته أو حكمته.

ولم تكن وظيفة الرسول ﷺ أن يتلو على الناس كتابه فحسب، فإن رسالته يستحيل أن تتم بجملة من الأحكام والعلوم يشحن بها عقول السامعين، كما أن البشر لا يبلغون كمالهم بالمعرفة المجردة، بل لابد من تعهد الأجيال بالتمحيص والتجارب والابتلاء؛ حتى يتربوا وينتجوا ويطيبوا، وذاك معنى التزكية التى قرن الله بها التلاوة فى قوله:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

والرسالات الكبرى إذا تطلعت إلى الحكم وسلطانه فلكى تضمن تنشئة الجماهير على ما تقر من مبادئ، ومن ثم فالحكم فى الإسلام وسيلة لا غاية.

إنه وسيلة إلى إقرار الفضائل وإقصاء الرذائل، وتربية النفوس على الحق والخير، والنظر إلى الأفراد والشعوب على ضوء هذه الحقيقة وحدها، وليس يتصور فى دعوة الله ورسوله أن تفصل بين العلم والتربية فى منهاجها، ولا أن تتخلى عن هذا الميزان الحساس فى تقديرها لأصناف الناس.

تغـيـير حـاسـم

القرآن الكريم يحكي ولا يذكر التواريخ والأمكنة، إنما يعنيه فى المرتبة الأولى العبرة، والعبرة التى ذُكرت فى سورة الإسراء أن الأمم تحكمها سنة كونية واحدة، وقد قلت من قبل: إن الحاكم الذى يذل شعبه يوطئ ظهورهم ليكونوا قنطرة يعبر عليها الإذلال الخارجى، سماها المفكر الإسلامى مالك بن نبى: «قابلية الأمم للاستعمار».

فإن للاستعمار قابلية تصنعها ظروف معينة، لخصت فى كلمة سريعة فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾..

وفعلاً احتلت الأرض المقدسة، وسيق بنو إسرائيل أسرى إلى السجن البابلى وضرب عليهم ذل غريب، ثم عفا الله عنهم، ورجعوا إلى فلسطين مرة أخرى، فماذا صنعوا؟.

يقول القرآن: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾..

فكانت الإفسادة الثانية أن انساح الرومان فى الأرض المقدسة ودمروا الهيكل مرة أخرى وشتتوا اليهود، بل الصحيح تاريخيًا أنهم منعوا بقاءهم فى فلسطين، خصوصًا بعد أن اعتنق بعض اليهود النصرانية.

ونمضى مع التاريخ قليلاً؛ للنظر كيف تمضى الأيام، أصبح بيت المقدس فى أيدى الرومان، لكن جاءت البعثة المحمدية تشير إلى أمر لابد أن يعرف، وهو أن بعثة محمد ﷺ تغيير حاسم للقيادة الروحية للأرض، كانت هذه القيادة لبنى إسرائيل قديمًا، لكن الرسول ﷺ عندما جاء؛ أُسْرى به إلى بيت المقدس، لماذا؟

إشعارًا بالنقلة التى حدثت فى القيادة العالمية لوحى الله سبحانه وتعالى، هذه القيادة جعلت الدين من نصيب العرب لا من نصيب اليهود، فانتقل الوحى من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، وانتقلت القيادة من بيت إلى بيت، ومن عاصمة إلى عاصمة، ومن حركة إلى حركة.

شىء جديد، لأنه لا يمكن أن يؤمن اليهود على التربية الإنسانية أبدًا، فاختير هذا العنصر الجديد؛ حتى يكون الأمان للبشرية.

والذين يقرأون سورة الإسراء، ويعلمون أن السورة تسمى فى كثير من المصاحف سورة بنى إسرائيل، ولا تذكر الإسراء إلا فى آية وحيدة، هل سألوا أنفسهم لماذا؟

تقول السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

ثم ماذا؟ ثم عودة إلى التاريخ الذى مضى، لقد جىء بك هنا؛ لتلحق هذا المسجد بالمسجدين الكبيرين فى جزيرة العرب، ولكى تصلى بالنبيين كلهم، فأنت إمامهم وأنت خاتمهم، وقد انتقل إرشاد السماء بعيدًا عن هؤلاء القوم وأصبحت أنت وقومك المسئولين عن هذا، والسبب أن القوم فسدوا ولم يصلحوا: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾..

لو كنا أهل تدبر فى القرآن، لوقفنا طويلاً أمام هذه الآيات، ما هذه الوثبة من تاريخ الإسراء إلى تاريخ بنى إسرائيل؟ إنما كانت هذه الوثبة للمعنى الذى ذكرت، كان بيت المقدس فى أيدى الرومان، أى فى أيدى الصليبيين، وقد أكدنا ـ فيما كتبنا ـ أن الرومان عندما دخلوا النصرانية لم يدخلوها فعلاً، وهناك سؤال قاله علماء الملل والنحل عندنا: هل تَنَصَّر الرومان أم ترومت النصرانية؟ والواقع أن النصرانية ترومت ولم يتنصر الرومان، بل فرضوا على النصرانية تقاليدهم وعقائدهم وكثيرًا من أخلاقهم، المهم خضع بيت المقدس للصليبية، ثم جاء الفتح العمرى أيام عمر بن الخطاب، لينتهى فصل آخر من حلقات الصراع المتصلة على مر التاريخ.

رجال ورجال (١)

عندما دخل عمر إلى بيت المقدس، هل دخل فى موكب فاتحين؟ والجواب لا.. ما خطر بباله هذا، بل الذى يقوله التاريخ، ويضعه علماء السنة فى باب التواضع، ولو أنصف الذين يفهرسون كتب السنة لجعلوا للقضية عنوانًا آخر، لكن الذى حدث هو هذا.

المهم يحكى التاريخ أن بِركة اعترضت ناقة عمر رضى الله عنه، فنزل الخليفة وحمل نعليه إلى عنقه ومضى بناقته يخوضان البركة، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه: ما يسرنى أن أهل المدينة يستشرفونك على هذا النحو. فقال له عمر: ويحك يا أبا عبيدة، لو غيرك قالها لجعلته نكالاً لأمة محمد.. لقد كنا - معشر العرب - أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله تعالى.

ودخل عمر إلى بيت المقدس، وقابل الأساقفة وأمضى معهم المعاهدة ونودى بصلاة الظهر فخرج عمر ليصلى، فقال له البطريق: صل مكانك..

قال له: لا.. لو صليت فى مكانى لوثب المسلمون على المكان من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر. وأخذوا منكم الكنيسة.

كأن عمر يريد أن يستبقى حرية التدين، وأن يحفظ للمعاهدين حقهم فى إقامة شعائرهم، وأن يعطى مثلاً للتاريخ الإسلامى من مسلك رجل من أصحاب محمد ﷺ.

وأتجاوز أربعة قرون سريعًا لأنظر إلى فتح ثانٍ لبيت المقدس، فإن المسلمين تبعوا اليهود فى أخلاقهم وأحوالهم، المهم فى يوم ما وثبت الصليبية العالمية تجرى فى أفئدتها عواطف مشبوبة من حقد لا آخر له، وذهبت مخترقة جنوب أوربا وشمال آسيا وجاءت إلى فلسطين فى أيام تشبه أيامنا هذه.

قال التاريخ: لو أن المسلمين تحرك لهم جيش يحمل الحجارة، لو أن النساء ألفت جيشًا لهزمت الصليبيين؛ لأنهم كانوا قد أكلوا الجيف من عجزهم وجوعهم، لكن قال التاريخ: سقط بيت المقدس، ما تحركت القاهرة، ما تحركت بغداد، ما تحركت دمشق، ما تحرك أحد.



هذه طبيعة العرب إذا نسوا الإسلام.

وذبح سبعون ألف مسلم فى بيت المقدس، وكانت نكبة هائلة، لا أقول: صنعها الصليبيون بنا، ولكن أقول: صنعناها نحن بأنفسنا.

وجاء صلاح الدين الأيوبى، والناس تتصور أن صلاح الدين كان فى نزهة عندما حرر بيت المقدس، جاء صلاح الدين، فماذا صنع؟ طلب من العلماء أن يعلموا الجماهير العقائد الدينية، وأن ينشروا بينهم الأخلاق، وأن يبتعدوا عن البدع والمخالفات، وكان الفاطميون قد نشروا بدعًا كثيرة فى الأرض الإسلامية.

كان صلاح الدين لا ينتهى له سعى إلى الصلوات، حافظ دائمًا على الصلاة فى المسجد إلا فى الثلاثة الأيام الأخيرة من حياته والتى مرض فيها مرض الموت..وكان محافظًا على الجهاد فى سبيل الله. وكان عادلاً، اشتكت له امرأة من ابن أخيه ـ وكان يحب أقاربه ـ فنصر المرأة وأهان ابن أخيه، وكان رجلاً معروفًا بأنه يحمل هموم المسلمين، ويبذل جهوده كلها لاستنقاذ الأرض التى لوثها الصليبيون بأقدامهم.

وفى معركة حطين وقف على فرسه يصدر أوامره ويتابع المعركة، يقول ابنه عن المعركة: رأيت فرسان المسلمين تتساقط عند أقدام أبى، ويوشك الصليبيون أن ينزلوا بنا هزيمة ماحقة، فيصرخ أبى يقول: كذب الشيطان. فيرجع المسلمون مرة أخرى، وأقول: انتصرنا، فيقول لى: اسكت ما ننتصر حتى تسقط هذه الراية وتطوى تلك الخيمة.

وما كاد ينتهى حتى كانت خيمة قائد الصليبيين قد انفضت والراية قد سقطت واجتاح جيش التوحيد الميدان كله.

يقول ابن صلاح الدين: ورأيت أبى يهوى من فوق فرسه ساجدًا لله على الأرض، الرجل يشكر الله طبعًا، الرجل كان مؤمنًا، صنع هذا لله، ولم يكن ينتظر أن يرجع إلى القاهرة ليقال له: بالروح بالدم نفديك يا صلاح.

أبدًا.. الرجل كان يعمل لله ويريد أن يقول:بالروح بالدم أفديك يا دين الله. هذا هو الرجل وهذا هو الإسلام، وما انتصر صلاح الدين إلا بهذا، وما ننتصر إلا بهذا.

رجال ورجال (٢)

الله عز وجل لا ينصر الحق بوضوح أدلته واستقامة طريقته، ولا يخذل الباطل بعوج دعوته وسوء خاتمته، وإنما يبلو أصحاب الحق بأصحاب الباطل، وعلى قدر ما يبذل كلا الفريقين من جهود وتضحيات تكون النهاية الحاسمة: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾. ويؤلمنى أن أقرر هذه الحقيقة المرة وهى أن الرجال الذين ساندوا قضية إسرائيل فى غضون قرنين، وخاصة فى أثناء الحرب العالمية الأولى كانوا أصحاب عقيدة وجلد وبذل، أما الأمراء الذين وقعت أَزِمّة المسلمين فى أيديهم فقد كانوا دون ذلك، والأمر كما قيل:

إذا جُعِلتْ أذنابُنا رءوسًا لنا

غَدَونا بحكم الطَّبع نمشى إلى الورا

ولندع أحداث التاريخ تتكلم، قال إسرائيل كوهين: سافر (وايزمان) إلى العقبة لمقابلة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة، وكان الأمير قد أعلن الثورة فى وجه الأتراك بعد أن اتصل بـ (مكماهون) المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، وبعد أن وعده هذا المندوب بأن حكومته تمنح الاستقلال للعرب الذين يقدمون مساعدات فعالة للحلفاء (كذا)، قال إسرائيل كوهين: وأدرك فيصل أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضى التى ستضم للدولة العربية الهاشمية، عندما زار لندن ووقع بصفته مندوبًا عن الدولة العربية اتفاقًا مع (وايزمان) بوصفه ممثلاً للفلسطينيين! قال: وفى ٦ فبراير (شباط) ١٩١٩م أشار الأمير فيصل رئيس وفد الحجاز فى مؤتمر الصلح إشارة رسمية إلى فلسطين، حينما ذكر أن تترك مسألتها ذات الطابع الدولى ليتولى دراستها أصحاب الشأن، وفيما عدا ذلك طالب باستقلال المناطق العربية الواردة فى مذكرة وفد الحجاز! انظر كيف يبنى زعماء إسرائيل وطنًا لقومهم، وكيف يبنى أمراؤنا مُلكًا لأنفسهم؟!

إن الفتنة المحيرة أن يتصدى لخدمة الإسلام أناس تجردوا من فضائل الإيمان ومن فضائل الرجولة جميعًا، على حين يتصدى لخدمة النزعات الأخرى

قوم لهم عقول لمّاحة وهمم سبّاقة، وما يكون مصير عراك تفاوتت أركانه وأنصاره على هذا النحو؟ حق تنصره الشهوة وباطل يشده الإيثار؟ دين عطل من أولى الأيدي والأبصار، وإلحاد يعينه العباقرة والعمالقة؟ إن النتيجة المخزية لا محيص منها!.

فى ١٣ فبراير سنة ١٩١٩م وقف رشدى غانم رئيس الوفد السورى فى مؤتمر الصلح يطالب بإنشاء دولة ديموقراطية مستقلة فى سورية. أما عن فلسطين فقد صرح بأنها تعد الجزء الجنوبى من سورية، إلا أن الصهيونيين يطالبون بها، ولما كان السوريون قد قاسوا من الآلام مثلما قاسى اليهود؛ فإنهم يتركون لهم أبواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها، وليأت كل من عانى الاضطهاد وذاق العذاب، ولتمنح استقلالاً ذاتيًا على أن تنضم لسورية فى صورة اتحاد (فيدرالى)! قد يكون من حق العرب أن ينقموا على الترك لبطشهم بهم، ولكن ليس من حق العرب أن يتذرعوا بذلك إلى إهدار الوطن الإسلامى العام ووحدة المسلمين الكبرى. إن للجنسين العربى والتركى خصائص بعضها عظيم وبعضها تافه. وقد حكم العرب باسم الإسلام وحكم الترك باسم الإسلام؛ فلم يخل كلا الحكمين من أعمال تسربت إليها النزعات الصغيرة، وربما كان الأتراك أشد أثرة وأقسى قلوبًا، غير أننا لا ننسى أن استبداد سلاطينهم قد أساء إليهم مثلما أساء إلى غيرهم. وعندى أن فظاظة الترك فى معاملة العرب جريمة ما كان قصاصها أن ينضم العرب للإنجليز فى حربهم للترك، إن هذه الخيانة المظلمة أخذت ـ فى ظاهرها ـ طابع الثأر من دولة الخلافة الجائرة، بيد أنها فى باطنها لا تعدو أن تكون مطامع أفراد، إن تصوير هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة واتتها فرصة التحرر فتشبثت بها، أمر بعيد عن الحقيقة.

لقد أفلحت سلطة الاحتلال فى مصر فى أن تجند نحو مليون ونصف المليون عامل كانوا سندها فى إبادة الجيش التركى فى المعارك التى دارت بصحراء سيناء وجنوب فلسطين، ووثب الأعراب المشايعون للشريف حسين على الحاميات التركية فى الحرمين وأنحاء الجزيرة وأمكنهم أن يفنوها فى مجازر رهيبة! وأكمل اليهود هذه السلسلة من الهزائم الشائنة، فعندما دخل اللنبى مدينة «أورشليم» تألفت منهم عدة فرق اشتركت فى مطاردة الفلول العثمانية المثخنة بجراح الغدر والوقيعة. قال إسرائيل كوهين: فلم تمض سنة حتى كانت

فلسطين مطهرة من العناصر الأجنبية، وهكذا انقضى عهد الأتراك بعد أن دام أربعة قرون! وأتم مصطفى كمال أتاتورك فصول المأساة فأعلن كفر الدولة بالإسلام والعرب، ووفى اليهود لدينهم وتاريخهم وحالفوا إنجلترا فاحتضنت قضيتهم.

ترى أى الفريقين كان أبصر بمواقع قدميه وأحفظ ليومه وأمسه وغده؟!

طبيعة شعب

الملاحظ للتاريخ يرى أنه عندما سقط بيت المقدس مرة أخرى فى حرب صليبية جديدة قال مارشال (اللنبى) الإنجليزى وهو يدخل بيت المقدس: الآن انتهت الحروب الصليبية.. وقال جنرال (غورو) الفرنسى وهو يقف أمام قبر صلاح الدين فى دمشق: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين.

والقصة ـ كما قلت ـ قصة تاريخ: كان العرب هنا قديمًا ثم طردوا، لماذا؟ لأنهم نسوا الله، ودخلوا فلسطين بالإسلام، ثم لما خانوا الإسلام أخذت منهم فلسطين، ثم تابوا إلى الله، وجاء رجل كردى ـ صلاح الدين ـ واستطاع بالإسلام أن يستنقذ فلسطين، وأحب أن أشير إلى طبيعة الشعب المصرى، الشعب المصرى له طباع فيها تناقضات، إذا فجَر فيهم ذو سلطة قال: (أنا ربكم الأعلى) وإذا آمن أحد منهم كان إيمانه فى القمة، فسحرة فرعون كانوا كفرة فجرة، عاشوا طلاب مال، طلاب دنيا، فلما شرح الله بالإيمان صدورهم قالوا لفرعون بعد أن هددهم:

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

هذه هى طبيعة الشعب المصرى، أنكر ذاته، وسلم مقاليد الحكم للمماليك؛ لأنهم مؤمنون، ولم يفكر الشعب فى عنصرية ولم يسعَ لها.

وهل المماليك خانوا هذا الشعب؟ لا والله فـ «قطز» المملوك كان أشرف من معظم خلفاء بنى العباس القرشيين، لماذا؟ لأنه فى وقت المحنة وهو يواجه التتر فى زحف رهيب ـ التتر الذين داسوا بغداد وضربوا الخليفة بالنعل ـ اهتز «قطز» وصاح: وإسلاماه، فاجتمع الناس وألحقوا بالتتر هزيمة نكراء، ودخلوا بعدها الإسلام.

هذه طبيعة الشعب المصرى، مفتاح شخصيته الإيمان، وكل من حاول غير هذا فهو فاشل، نحن أمة مؤمنة.

أين قضية فلسطين؟ متى كانت قضية عنصرية أو إمبريالية؟ هذا كلام فارغ، الذى حدث أن القضية كانت إسلامية، وكانت عمامة (أمين الحسينى) هى التى تمثل الإسلام.

إننى أؤكد أن قضية فلسطين لاتزال بعيدة عن الحل، لماذا؟ لأن المسئولين عنها رفعوا شعار العلمانية، وهو شعار الهزيمة، والعلمانية شعار الهزيمة لكل شعب مسلم فضلاً عن الشعب الفلسطينى، لقد حاول ناس أن يضللوا الصحوة الفلسطينية، ولكن جذوة الإيمان عصفت بما فوقها من تراب، وتحرك الإسلام فى قلوب الشباب.

ومنذ مدة والمعركة الإسلامية مشتعلة، وحاول العلمانيون أن يلتحقوا بالركب، وحاول كثيرون أن يقولوا: إن الحركة غير إسلامية، وهو نوع من الكذب.

لكن الله شاء أن نعرف الوقائع كلها، وبدأ المسلمون يشعرون بصحوة إخوانهم فى فلسطين باسم الإسلام.

الذى أريد أن أقول: إن اليهود لهم فكرة وحيدة لا تتغير وهى: أنهم الشعب المختار، وأنهم سادة العالم، وأن ما فى العالم من مال هو لهم يجب أن يستردوه، وأنهم يجب أن يهدموا المسجد الأقصى؛ ليبنوا على أنقاضه هيكل سليمان، وسوف ينزل الرب ليحل فى الهيكل، ويحكم العالم عن طريق شعبه المختار، شعب بنى إسرائيل.

هذا ليس قضاء على الإيمان العام، بل هو قضاء على الإسلام وحده، وسكوت المسلمين فى أى بلد على هذا المخطط يعنى ارتدادًا عن الإسلام.

وبعد: فهذه حقائق، لكن طبيعة أمتنا كما قال شوقى:

نسيت روعته فى بلد

كل شىء فيه ينسى بعد حين

وأرجو ألا ننسى..

نتيجة الاختلال

قضية فلسطين من بدء التاريخ إلى اليوم قضية دينية، قد تسمعون كلامًا لبعض الناس يصورها قضية عنصرية أو قضية إمبريالية أو عنوانًا من هذه العناوين التى يتيه الناس فى فهمها وينسون الحقيقة التى لا تنفصل أبدًا عن هذه الحقيقة وهى أنها قضية دينية.

وأنا أؤكد أن حل مشكلة فلسطين لا يمكن أن يتم مع تجاهل التاريخ الذى مضى، ومع عدم معرفة طبيعة القضية وما حل بها من هبوط أحيانًا، أو صعود أحيانًا أخرى، إذا لم نعرف طبيعة القضية فى مراحل التاريخ، فلن نحل مشكلتها ـ المعاصرة ـ أبدًا.

لقد كان سكان فلسطين من أربعين قرنًا ـ تقريبًا ـ عربًا يسمّون الكنعانيين، وكنعان وعدنان وقحطان أسماء عربية لقبائل انتشرت فى الجزيرة وفوقها وتحتها. المهم أن هذه القبائل فى تاريخها المبكر استعصت على أمر الله، وأساءت إلى نفسها، ولقى الأنبياء العرب تكذيبًا متتابعًا من قومهم، كُذِّب هود فى عاد، وكُذِّب صالح فى ثمود، وكُذِّب شعيب فى مدين، وكُذِّب لوط فى قرى المؤتفكة.

فكانت النتيجة أن دمر الله على هذه القبائل كلها وجعلها خبرًا كان، وكذلك أصاب الكنعانيين فى فلسطين، فعندما تجبّروا فى أرضهم ونسوا ربهم سلط عليهم من كان أحق منهم يومئذ بأن يسكن الأرض، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾.

لقد كان اليهود جبناء على عهد موسى وأقل وأذل من أن يدخلوا على العرب أرضهم، فقد كانوا جبابرة، على نحو ما حكى القرآن عن عاد التى قالت: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

ومات موسى، ومات هارون، وشاء الله أن يدخل يوشع ـ فتى موسى ـ الأرض المقدسة وأن يدخل اليهود معه فى هذه الأرض، فهل كان اليهود بعدما سكنوا الأرض عبادًا صالحين لله؟ أم سرت إليهم عدوى المجرمين من قبل وتحولوا أيضًا إلى جبابرة؟

يقول التاريخ: إنهم سرعان ما تحولوا إلى جبابرة، أكثروا فى الأرض الفساد، وبدا منهم ما لا يليق، وأغضبوا رب العالمين!

لقد كان سيدنا موسى عليه السلام، يشعر بأن قومه فيهم عوج غالب، وأنهم ـ كما قال عيسى فيهم ـ قوم غلاظ الرقبة، وعندما قالوا لموسى وهم فى مصر: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

وفى الكلمة رنين اتهام غامض، كأن موسى يشعر بأن قومه عندما يلون الأمر سيكونون فراعنة، سيكونون أخبث من غيرهم.

ولقد كان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب، فقد وصفوا الكنعانيين العرب بأنهم كلاب، وكان عيسى ـ عليه السلام ـ مشهورًا بأن يشفى المرضى، وجاءته امرأة كنعانية ـ كما يقول إنجيل متى ـ وقالت له: يا سيد يا بن داود، بنتى مريضة جدًّا. وطلبت منه شفاءها، فقال لها: «اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب».

يعنى بالبنين: بنى إسرائيل، والكلاب: الكنعانيين!، ومع أن عيسى عليه السلام إنسان نبيل وأستبعد كل البعد أن تجرى على لسانه هذه الكلمة، إلا أن هذا ما ورد فى الأناجيل، والويل للمغلوب كما يقول الأوربيون. لقد تحول الشعب الذى كان جبارًا إلى شعب يوصف بأنه كلاب، ونعود إلى الرواية السابقة: تقول المرأة ـ وهى حريصة على شفاء ابنتها ـ: والكلاب أيضًا تأكل من تحت أقدام السادة.. فيقول لها: «عظيم إيمانك يا امرأة». ويشفى لها ابنتها.

أيًّا ما كان الأمر، فإن اليهود بقوا ما بقوا فى فلسطين، ثم ازداد فسادهم، وازداد ظلمهم، وكثر بلاؤهم، فشاء الله سبحانه وتعالى أن يسلط عليهم من يجتث ملكهم ويدمر هيكلهم، ويسوقهم أمامه أسرى وهو «بختنصر».

إن القرآن الكريم عندما يحكى لا يذكر التواريخ والأمكنة، إنما يعنيه العبرة، والعبرة التى ذكرت فى صدر سورة الإسراء أن الأمم تحكمها سنة كونية واحدة، هى: «أنها إذا اختل أمرها احتل الغرباء أرضها، إن الاختلال الداخلى يسبب الاستعمار الخارجى».

نســـوا اللـــه

مضى العرب فى طريقهم يحملون أمانات الوحى، ويبلغون رسالات الله. ولكن الطبيعة العربية بدأت تغالب تعاليم الإسلام. دعنا من ميدان العلم، فإن ميدان العلم بقى نظيفًا، وجلس الإمام البخارى رحمه الله إلى جانب غيره من القرشيين يعلمهم، وجلس الحسن البصرى رحمه الله يعلمهم.. فى ميدان العلم كانت تعاليم الإسلام سائدة، أما فى ميدان الحكم فإن تقاليد بعض الجماعات العربية المدعية للنبل وللرياسة وللجاه غلبت، وغلبت معها طبائع جنس، وطبائع جاهلية قديمة، وراح العرب يتبعون دينهم، وأبناءهم، وتاريخهم، ورسالتهم، وإذا هم ينشغلون بالشهوات والملذات، والاختلاف على المناصب والرياسات.

وكانت النتيجة أن هجم الصليبيون فى مطالع القرن الخامس الهجرى، هجموا على بيت المقدس ودخلوه، والذى ينبغى أن يعرف ـ ولا أدرى لماذا لا يدرس بإلحاح ـ أن الصليبيين فى أولى حملاتهم على الإسلام ما كانوا أهلاً لانتصار، ولا كان الانتصار ميسرًا لهم، لقد أكلوا الجيف من الجوع، وأدركهم الإعياء وهم يلهثون بعد مراحل طويلة قطعوا فيها من «فيينا» و«برلين» إلى «القسطنطينية» إلى «الأناضول» إلى «الشام» إلى «بيت المقدس»، قطعوا مراحل استهلكوا فيها، ولو أن أى جيش اشتبك معهم لهزمهم، ولكن التاريخ قال: سكتت دمشق، سكتت القاهرة، سكتت بغداد، سكتت مكة، سكتت المدينة، سكت العرب، وتركوا هؤلاء ينفردون ببيت المقدس ليذبحوا فيه سبعين ألف مسلم، وليؤسسوا فيه إمارة لاتينية ظلت تسعين سنة يعين «باروناتها» من «باريس» ويبارك هذا التعيين «بابا الفاتيكان».

ثم جاء رجل مسلم ليس بعربى، وهو «صلاح الدين الأيوبى»، وشعر بأسباب الهزيمة، أى دارس للتاريخ العربى يعلم أن العرب ينتصرون حين يؤوبون إلى ربهم، ويثوبون إلى دينهم، ويتمسكون بشرائعهم، ويعتزون بنسبهم السماوى، لا يحتاج الأمر إلى عبقرية، إن الحزام الذى يشد العرب بقوة ويمنع تفككهم هو الدين، فإذا انقطع هذا الحزام تفرقوا ولم يبق أحد إلى جانب أحد، فبدأ صلاح الدين بعملية إحياء كبيرة، قال المؤرخون: جند العلماء لتدريس العقائد بين الجماهير، ولجمع العوام على معاقد الأخلاق، ومكارم الشيم، وهل تنتصر أمة دون عقيدة؟!

وهل يقوم مجتمع دون أخلاق؟! إن الرجل بدأ البناء من الداخل، وفعلاً جمع الناس على الإسلام، ثم خرج بهم ليناوش عدوه، وكانت مناوشة رهيبة.

إننا نقرأ في التاريخ أن بيت المقدس أعيد، بسهولة أو في سطرين نقرؤهما على عجل، لكن الواقع أن المسلمين ضحوا كثيرًا، وأن القائد الإسلامي صلاح الدين كان على فرسه وهو يقود المسلمين، لكن قلبه كان يدق خشوعًا لله عز وجل، واستمدادًا منه، وخوفًا من غضبه، ورجاء في عفوه.. وكلما رأى الصليبيين يهجمون ويتقدمون وتنداح دوائر المسلمين أمامهم يصرخ: (كذب الشيطان). ويعود المسلمون مرة أخرى إلى الهجوم، فلما طويت أعلامهم وانكشفت خيمة ملكهم هوى صلاح الدين من على ظهر فرسه إلى الأرض ساجدًا لله، رجل ما كان مستكبرًا، ولا كذابًا ولا مدعيًا، إنما كان كأنه وهو يقود المسلمين في القتال إمام في محرابه، تدمع عينه، وتخشع جوارحه، وينتظر من رب الأرض والسماء أن يعينه، لذلك جاءت المعونة، وجاء النصر، وعاد بيت المقدس إلى المسلمين.

لقد هجم الأوربيون هجمتهم، كيف هجموا؟ كيف تسللوا؟ يقول التاريخ: ما تسللوا إلا في الفراغات الموجودة بين الشعوب الإسلامية، ظلم الترك العرب، وخان العرب الترك، وانقسمت الشعوب الإسلامية انقسامات مرة، في هذا الفراغ تسلل الإنجليز والفرنسيون، وعادوا مرة أخرى إلى بيت المقدس.. عادوا ليقول الجنرال الفرنسي «غورو» وهو يقف إلى جوار قبر صلاح الدين: «يا صلاح الدين.. ها نحن قد عدنا»، ويقول الجنرال «اللنبي»: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ما انتهت الحروب الصليبية، وإنما هي الأيام مد وجزر، عاد هؤلاء ليسلموا الأرض مرة أخرى إلى اليهود، واليهود شعب ما كذبت السماء عندما وصفتهم الوصف الجدير بهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

إن الغدر اليهودي ميراث أجيال وحقيقة لا يمكن إنكارها، ولا التغاضي عنها، واليهود يعلمون من أنفسهم هذا، وهم يؤكدون أنهم إذا كانوا قد ضربوا «مفاعلاً نوويًا للعراق» فهم مستعدون أن يضربوا أي بلد عربي له قاعدة يخشونها، أو له قوة يرهبونها، هذه طبيعتهم، ولست ألومهم، لكني ألوم الصف المختل، ألوم العين النائمة وسط العيون الخائنة، ألوم العرب الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

طلائع الهجرة

إن نجاح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى «يثرب» فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا عامًّا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن.

وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده فى تحصينه، ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة ـ بعد الهجرة إليها ـ نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله، فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها. وفى عصرنا هذا، أعجب اليهود بأنفسهم وعانق بعضهم بعضًا مهنئًا، لأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومى لهم، بعد أن عاشوا مشردين قرونًا طوالاً ونحن لا ننكر جهد اليهود فى إقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به، ومحاولة إحيائه وإعلائه.

ولكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم ـ أو بتعبير أدق: ما صنع لليهود اليوم ـ وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم، يوم هاجروا إلى «يثرب» نجاة بدعوتهم، وإقامة لدولتهم.

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف، وحاكوا مؤامراتهم فى ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله، فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء، فلم يستطع مليون عربى حصرتهم الخيانات فى مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئًا، فهاموا على وجوههم فى الأرض، نتيجة اتفاق أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا وبعض العرب على خذلان أولئك العرب التعساء، وبذلك قام الوطن القومى لليهود، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه، وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال فى أنحاء الدنيا.

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم وترفعت عن المآرب هممهم، وذهلوا عن المتاع المبذول والأمان المتاح واستهوتهم المثل العليا وحدها فى عالم يعج بالصم والبكم، ربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها،

وتبعوا صاحبها المكافح، وهو لا ينى يقول: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

إن المدينة الفاضلة التى عشقها الفلاسفة، وتخيلوا فيها الكمال جاءت فى سطور الكتب، دون ما صنع المهاجرون الأولون، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة.

إن المسلمين - بإذن رسول الله ﷺ - هرعوا من مكة وغيرها إلى يثرب يحدوهم اليقين وترفع رءوسهم الثقة، ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخبة.

إنها إكراه رجل آمن فى سربه، ممتد الجذور فى مكانه، على إهدار مصالحه وتضحيته بأمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه مستباح منهوب، قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش. فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رَضِىّ الضمير، وضَّاء الوجه؟

إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش، وإيمان بمن؟ بالله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير، هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهياب الخوار القلق، فما يستطيع شيئًا من ذلك، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾.

أما الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ فى «مكة» وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا - خفافًا - ساعة قيل لهم: هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمِّنون مستقبله. وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانًا، حتى كادت مكة تخلو من المسلمين، وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأرز إليها وحصن يحتمى به، وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة فى دعوة محمد وهاجت فى دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته.

حين عزم رسول الله ﷺ على ترك مكة إلى المدينة، ألقى الوحى الكريم فى قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

ولا نعرف بشرًا أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل هذا الرسول ﷺ الذى لاقى فى جنب الله ما لاقى، ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة فى استجماع أسبابه وتوفير وسائله.

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته، وأعد لكل فرض عدته، ولم يدع فى حسبانه مكانًا للحظوظ العمياء، وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شىء فى النجاح، ثم يتوكل ـ بعد ذلك ـ على الله، لأن كل شىء لا قيام له إلا بالله.

فإذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يلومه على هزيمة بُلِى بها، وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يُعذر المرء فيه.

وكثيرًا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجىء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار، كالسفينة التى يشق عباب الماء بها ربان ماهر، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها، فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر.

إنه مع استجماع الأسباب وتوفير الوسائل يأتى عون الله ونصره حتمًا.

أمـــــراض متشـــابهـــة

أمراض المسلمين على اختلاف أقطارهم متشابهة، قد تفلح المسكنات في علاجها هنا، على حين تتحول في أقطار أخرى إلى أوبئة جائحة، ولنأخذ مثلاً الهند كمثال لذلك.

لم أر في القارة الهندية علة غير معروفة لدينا، لكن هذه العلل هناك استفحل شرها، وطالت آثارها، وتوطنت جراثيمها، فالمسلمون منقسمون إلى سنة وشيعة، والشيعة ألوان، فهناك الإمامية الاثنا عشرية، وهم ينتظرون الإمام الغائب؛ ليملأ الدنيا عدلاً بعدما ملئت جورًا، وهناك الشيعة البُهْرَة، الذين يصلون ويسلمون على المعز لدين الله والحاكم بأمر الله، وهناك الإسماعيلية الباطنية، الذين يقدسون أغاخان مما يجعل جسده يوزن بالنفائس.

أما أهل السنة، فالانقسامات بينهم لا تقل خطورة: السلفيون يكرهون المتصوفة، ويعلنون عليهم حربًا شعواء، وهم مع أهل الحديث يكرهون أتباع المذاهب الأخرى، ويرون الاستنباط المباشر من السنن، وهناك حرب أخرى بينهم وبين الأشاعرة، والأحناف مع جمهرة المسلمين الأعاجم يلتفون حول مذهب أبي حنيفة، ويؤثرونه على غيره. ويوجد رجال الدعوة المشتغلون بالتبليغ، ويوجد إصلاحيون يقومون بنشاط عام يشبه نشاط الإخوان المسلمين في الشرق العربي، ويوجد قوميون، ومنحلون وغوغاء يطلبون العيش على أي نحو، وهناك فرق مرقت عن الإسلام، وظَاهَرها الاستعمار بقوة لتنال منه، كالقاديانية والبهائية، والآفة الجديرة بالتأمل أن كل تلك الفرق تعيش على هامش الحياة، وتحيا صريعة الفقر الشديد، والتخلف الحضاري المحزن.

وقد رأينا أن العالم المعاصر لم ير حرجًا في إيصال الذرة إلى الهند، ففجرت قنبلتها من بضع سنين، على حين حاصر باكستان وحاول منعها من اقتفاء أثر الهند، لكنه فشل، ونجحت باكستان في اللحاق بالهند، والواقع أن الهنود يتلقون دعمًا كبيرًا في كل ميدان، حتى قيل: ليس في الهند بقعة لم تزرع، وإنه ـ خلال سنين ـ ستكون الهند أمة صناعية مرموقة.

وأرى أن الأوضاع الإسلامية في الهند تحتاج إلى علاجات من المنبع، وأن

ترك الفرقة المذهبية، والاضطرابات الاجتماعية تفتك بالجماهير، معناه ضياع الحاضر والمستقبل.

ويمكن أن يقوم الأزهر بتوضيح العقائد والأركان والأخلاق التى يجتمع المسلمون عليها، وأن يتناول بحكمة أسباب الفرقة مهونًا من شأنها، ومنذرًا بعواقبها إن بقيت.

وحبذا لو تألفت لجنة للتقريب بين المذاهب السنية أولاً، بوصف أهل السنة هم كتلة الإسلام الكبرى، ثم تقوم هذه اللجنة بجهد آخر فى التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة.

من النصائح الحسنة: لا تجعل شمس اليوم تختفى وراء غيوم من المستقبل ينسجها الوهم والواقع، إن غيومًا من الماضى تنبعث بين الحين والحين، فتحجب الرؤية أمام المسلمين المعاصرين.

فى أول نصر للمسلمين قال الله لهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾. لما تسلل إلى النفوس تطلُّع تافه إلى متاع الدنيا.. ثم قيل لهم فى توكيد أسباب النصر: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾.

والواقع أن الخلافات العلمية لن تكون سبب وقيعة بين الشعوب، إذا صلحت السرائر، وزكت الضمائر، والأمر يحتاج إلى يقظة علمية وخلقية، فإن أعداء الإسلام أحدقوا به، وتحدثهم نفوسهم بأنهم موشكون على القضاء عليه.

وبقاؤنا متفرقين هو ذريعة الفتك بنا وبرسالتنا، فلنسارع إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة، والإفادة من المدنية الحديثة بالقدر الذى يمحو التأخر الشائع فى كل مكان.

عــــودة إلــى الأخــلاق

بم ينتصر العرب؟ أرجع مرة أخرى إلى تاريخنا، إن آباءنا فى عاد وثمود ـ العرب العاربة ـ هل مكن الله لهم؟ دفنهم فى أنقاض مخازيهم ومآسيهم إلى حيث ألقت!

ما تعمل الإنسانية بأجناس تعيش للكبر والرفاهية والشذوذ وسوء الخلق؟ وماذا تكسب الحضارة الإنسانية من عرب إذا ملكوا المال استغلوه فى خراب الذمم، وشراء الشهوات، واقتناص الملذات، وتحقير المآثر، ودفن آيات الوحى؟

ما يفعل الله بهم؟ لابد أن يدفنهم فى أنقاضهم، إن العرب بطريقتهم التى يعيشون بها الآن لن يضربهم اليهود وحدهم، بل تضربهم كلاب الأرض. العرب بالطريقة التى يعيشون بها لا يستحقون نصرًا، لكى يستحق العرب النصر يجب أن يسألوا أنفسهم، أو لكى يدخلوا بيت المقدس مرة أخرى يجب أن يسألوا أنفسهم: هل سنكون بأخلاق الجبابرة الذين سكنوا بيت المقدس قديمًا، فبعث الله إليهم «يوشع بن نون» فدمر عليهم، واستوقف الشمس فلم تغرب حتى ألحق بهم الهزيمة؟ إذا كان العرب بأخلاق الجبابرة الأقدمين فليأخذوا مصير الجبابرة الأقدمين.

أظن أن العرب يدخلون بيت المقدس مرة أخرى يوم يدرسون أخلاق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يكن الرجل عارض أزياء، ولم يكن داخلاً فى موكب الخيلاء، بل كان الرجل يخوض بناقته بركة، ويرى أن يعرض مبادئ تواضع الإسلام.

متى يدخل العرب فلسطين وبيت المقدس؟ يوم يرون رجلاً كصلاح الدين. قالوا: جمع الغبار من معاركه وأوصى أن يكون وسادة له فى قبره، حتى إذا حوسب قال للملائكة: هذا الغبار كان فى سبيل الله.

أين أخلاق صلاح الدين؟ أين أخلاق عمر؟

إن العرب لكى ينتصروا مرة أخرى ويعودوا إلى فلسطين يجب أن يعودوا بدينهم، وليعلم الجيل الحالى والجيل الذى يليه أن راية الإسلام وحدها هى التى

تجمع الشمل، وأن أية راية غيرها لا تنطلق بنا إلا وراء سراب خادع وأمل كاذب مع التفريط فى دين الله.. كل هذا لا ينتهى بأصحابه إلا إلى الضياع والدمار.

إننى أريد مرة أخرى أن أكذب شائعة سرت بين الناس، هذه الشائعة أن العصر الحاضر عصر العلمانية واطراح الأديان ظهريًا، وعصر الانطلاق وراء المقررات الإنسانية المجردة، إلى غير هذا الكلام. هذا كلام مكذوب، هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ما عدا الإسلام.

اليهودى التائه الذى كان يبحث عن حارة له فى روما أو باريس أو القاهرة أصبح يملك دولة، ما كان هذا له من أربعين قرنًا. (بيجين) البولندى الأفاق الذى جاء من «بولندا» ماذا يملك؟ جاء إلى أرضنا ليطرد العمد من قراهم وليقول: هذه أرضى أنا، وليخرج منها أى مسلم أو أى عربى.

باسم اليهودية يملأ فمه فخرًا، أولئك الذين يريدون ألا نفخر بالإسلام ويتركون هذا الإنسان يفخر باليهودية، ألا تحشى أفواههم بالنعال، والله ما يستحقون إلا هذا، تسكتون عندما يفخر الناس بيهوديتهم، فإذا تحدثنا عن الإسلام تنمرتم وقلتم: رجعية أو تعصب. كيف هذا؟

لقد كان الأوربيون يحتقرون الكنيسة ويحملونها أوزار التخلف ألف سنة؛ لأن العصور الوسطى كانت عصور الموت الأدبى فى أوربا، وعندما بدأ عصر الإحياء من مواريثنا نحن المسلمين سمى عصر الإحياء، لأن الجيف بدأت تتحرك، بدأ الأموات ينشطون من مواريثنا، وحمل المفكرون الكنيسة وخرافاتها وسقامها العقلى، حملوها وزر ظلمة أوربا فى ألف سنة أو يزيد.

الآن استطاعت أن تجند دول العالم الصليبى وغير الصليبى؛ لكى تخدم أغراضها، وما أغراضها؟ إنها تنسى الإلحاد والدعارة فى كل شبر فى الغرب، وتذكر شيئًا واحدًا هو أن دين محمد ﷺ يجب أن يزول.

هذا ما تذكره، وهذا ما تعمل له سياسات الغرب التى تظاهر إسرائيل ضدنا حتى الآن.



طبيعة خاصة

يقول ابن خلدون وهو أدق الرجال وصفًا للجنس العربى: «إنهم جنس لا يصلح إلا بنبوة، ولا يقوم إلا بدين، ولا ترقى مواهبه إلا بشرع السماء». فإذا ترك العرب النبوة والدين وشرائع السماء، تحولوا إلى قطعان تعبد الشهوة وتطلب المال لتبعثره ذات اليمين وذات الشمال تنفيسًا عن شهواتها.

جاءت النبوة الخاتمة لكى تجعل من العرب جنسًا آخر، ومضى تاريخهم، لكن قبل أن نتحدث عن تاريخ العرب بعد أن شرفهم الله بالإسلام، نريد أن نتحدث عن تاريخ غيرهم، عن تاريخ اليهود، فإن هذا الشعب ـ وهو ابن عم العرب ـ شعب غليظ الرقبة، بادى القسوة، شديد العناد، وعندما نزلت بهم لعنات الفراعنة، وصرخوا بموسى عليه السلام يقولون له: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾. نظر إليهم موسى عليه السلام نظرة ريبة وكأنه يقول لهم: ترى ماذا سيقع منكم يوم تنكسر عنكم القيود، ويوم تملكون حريتكم؟ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. كلمة ناضحة بأن الرجل متشائم منهم، وبأنه يدرى أنهم يوم يملكون القوة فسيكونون ألعن من الفراعنة.

وملك بنو إسرائيل القوة بعد لأى، حاول موسى عليه السلام بمنطق الإيمان أن يزحف بهم على فلسطين، يوم كان العرب الجبابرة يسكنونها؛ فغلبهم الجبن، وقالوا: ﴿ لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾. أى كرامة لكم يوم تدخلون فلسطين وليس فيها أحد من العرب؟ ولذا قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾.

تاهوا فى سيناء أربعين عامًا حتى هلكت الأجيال الجبانة الخوارة، ونبت جيل آخر قاده نبى الله يوشع عليه السلام، ودخل فلسطين وقهر الجبابرة وأقاموا دولة لهم.

وما مضت إلا فترة محدودة حتى أخذت قشرة التدين تتقلص، وحتى أخذت الطبيعة الرديئة تبرز، وغرائز السوء تطفح، وإذا اليهود يفسدون فى الأرض، ويسفكون الدم، ويملأون أقطار دولتهم مظالم، فماذا يفعل الله بهم؟ سلط عليهم «بختنصر» فهزم دولتهم، وهدم هيكلهم، وساق عشرات الألوف من الشباب اليهودى أسرى أمامه إلى بابل، وفى السجن البابلى أذيقوا أشد العذاب.

ثم عفا الله عنهم، ويسر لهم حاكمًا ردهم مرة أخرى إلى بلادهم، فهل عادوا ليرعووا، ويعدلوا، ويصلحوا؟ لا.. سرعان ما عادت إليهم طباعهم السوء، فما هى إلا جولة وأخرى حتى انقض عليهم الرومان، وأمر القائد الرومانى «تيتوس» بتدمير الهيكل، فدمر الهيكل مرة أخرى، وبدا أن الشعب الإسرائيلى بعد عدة مئات من السنين لا يصلح للحكم، وأن أداة الحكم فى يده تجعله مفتاح شر، وتجعل أصابعه الطائشة تطلق قذائف من الدمار والفساد على أهل الأرض، فما ينجو أحد من بلائهم.

حاولوا قتل عيسى عليه السلام وفشلوا، وحاولوا قتل محمد ﷺ وفشلوا، وإن كانوا قد نجحوا فى قتل أنبياء آخرين.

ثم كان من فضل الله عز وجل أن هيأ للإنسانية مستقبلاً آخر، ونقلت قيادة الوحى من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل، ونقلت لغة الوحى من العبرية إلى العربية، ونقلت عاصمة الوحى من بيت المقدس إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتولى أمر التربية محمد ﷺ من سموه، ومن سناء روحه، وارتقاء ضميره، ورسوخ تقواه، سكب فى أولئك العرب ما حولهم خلقًا آخر، فإذا هم يخرجون على الدنيا وكأنهم ملائكة، تحول الجبروت الجاهلى إلى سناء واهتداء وافتداء فى سبيل الله.

درس من الماضى

إن أمتنا من أزمنة قديمة كانت تبتلى بكثرة الأعداء، وطالما امتحنت بالحروب الطاحنة، تسعر ضدها فى أكثر من جبهة، ويشعل نارها خصوم أشداء الوطأة، ومع ذلك ما أثر عنها قط أنها وهنت أو استكانت، وفى زمن النبوة شغل المسلمون بقتال أحزاب الوثنية، وعصابات بنى إسرائيل، وفى زمن الصحابة شغلنا بقتال فارس والروم، ثم مشى تاريخنا إلى الأمام ثابت الخطو، فإذا هو يصطدم بزحفين همجيين ما كان يظن لليلهما نهار، زحف التتار من الشرق، وزحف أوربا من الغرب، وبعد جلاد مر المذاق، خرجنا من هذه الغمة منصورين موقرين، ورددنا الفوضى المقبلة من هنا ومن هناك.

وقد تنادى الأعداء علينا مرة أخرى، وتضافرت قوى الاستعمار مع اليهود لتقضى على بلادنا وإيماننا ومثلنا ومقدساتنا، وها نحن أولاء نخوض المعركة التى فرضتها الأحقاد والأطماع، وعلينا أن نؤدى الواجب كاملاً، لنخرج منها مثلما خرجنا من معاركنا التاريخية القديمة.. علينا أن نقوى صلتنا بديننا، ونوثق أواصرنا بربنا، وننمى إخلاصنا لما بين أيدينا من هدايات غالية، فإن الإيمان الراسخ ليس قوة نفسية فقط، بل هو حصانة جماعية تعتصم بها الأمة والدولة ضد المتربصين والخائنين، ثم علينا أن نعبئ مواردنا المادية والأدبية كلها، وأن نبذل كل ما أوتينا من طاقة لدعم حاضرنا وتأمين مستقبلنا.

والإسلام فى جهاده للطغاة والبغاة يستثمر كل مورد، ويحشد كل جهد، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

وعن أبى ذر رضى الله عنه: قلت يا رسول الله: أى الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: **«الإيمان بالله والجهاد فى سبيله»**. وقال ﷺ: **«أفضل الأعمال عند الله إيمان لاشك فيه، وغزو لا غلول فيه»**.

وروى الحاكم عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «**مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل عند الله من عبادة ستين سنة**».

إنه ما من حاكم صالح ولى أمور هذه الأمة إلا اعتمد فى سياسته على استثارة خصائص الخير فيها وإحياء قواها الكامنة، خصوصًا إذا هاجت الدنيا بمطامع الأقوياء، واضطرمت الحياة بفتنتهم ومآربهم.

وأتذكر عندما أحاط بمصر فى خريف سنة ١٩٥٦م جيوش ثلاث دول، تضرب أرضها من البر والبحر والجو..

تحركت عصابات اليهود لتحتل غزة، والتقت على موعد بثمانٍ وثلاثين سفينة حربية إنجليزية وفرنسية، شرعت ترجم المدينة بقذائفها، لتكرهها على الاستسلام لليهود، وفى الوقت نفسه ظهرت ثلاث بوارج أمريكية لتنقل رعايا الولايات المتحدة، ومراقبى الهدنة، وموظفى وكالة إعانة اللاجئين، وذلك لتدور المجزرة بين المسلمين وحدهم!

إن أمريكا دولة حريصة على دماء بنيها ومن على ملتهم، ومن والاهم، وما أن طلع الصباح الأخير؛ حتى كان الجيش الإنجليزى يحتل غزة، ثم انقضت فترة الظهيرة، وأقبلت بعدها عدة سيارات تحمل اليهود الذين قيل عنهم: إنهم هزموا العرب، ودخلوا المدينة ظافرين.

أما فى خان يونس فإن المناضلين المسلمين ردوا اليهود مرة بعد أخرى، وألحقوا بهم خسائر فادحة حتى تدخل الإنجليز واستولوا على القرية الجريحة بعد أن استشهد فيها نحو ألف بطل.

وكذلك الحال فى رفح، وفى شبه جزيرة سيناء، كانت القوات الفرنسية والإنجليزية تمهد السبيل أمام اليهود، وتستطيع بتفوقها الهائل أن تفتح لهم المغاليق، وتزيح العوائق، ثم ينطلق اليهود بعد ذلك ليضعوا أيديهم على البلاد وأهلها.

وتنطلق ألوف الإذاعات فى الوقت نفسه تنوه بانكسار العرب، وذوبان مقاومتهم أمام حماس اليهود، ونظامهم، ورجحان كفتهم!

كل ما تغير بعد القرون الطوال أن اليهود يشرعون أسلحتهم فى وجوهنا مستندة إلى أمريكا والغرب، بل إن هذا الحليف الجديد لا يكتفى بمساندتهم، بل

يقويهم إذا ضعفوا، وينصرهم إذا انهزموا، ويغنيهم إذا افتقروا، ويؤيدهم فى كل مجال بما يطلبونه من ذخيرة أو سلاح أو رجال.

وقد كان فى قدرتنا أن نكسر صولة اليهود لو أنهم هاجمونا وحدهم، غير أن عبء الكفاح تضاعف علينا، بعد سيل المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى زود الاستعمار الغربى بها اليهود، هذا العبء الثقيل لا يرتاع له مؤمن، ولا تتوجس منه أمة تعتمد على الله الكبير.

تســـامح هنـا وتعصـب هنـاك

فى اعتقادى أن عمل النبى الخاتم ﷺ هو المعجزة التى لم يعرف العالم لها نظيرًا من بدء الخلق إلى الآن، كيف أمكن ترويض هذا الجنس وحشد قواه ليتحول إلى زلازل تدمر الإمبراطوريات التى شمخت جدرانها على الطغيان قرونًا، ما استطاع أحد أن يهدها حتى جاء المسلمون فغيروا الدنيا.

كانت هناك إرهاصات روحية، أو بدايات معنوية فى ليلة الإسراء والمعراج عندما انتقل النبى ﷺ إلى بيت المقدس وصلى بالنبيين الأسبقين، ثم تحققت هذه الإرهاصات فيما حدث بعد ذلك، فإن بيت المقدس الذى دمره البابليون مرة، ثم أعيد بناؤه، ودمره الرومانيون مرة أخرى، عاد إليه العرب فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد الإرهاصات الروحية التى كانت ليلة الإسراء والمعراج، وذهب عمر رضى الله عنه بالعرب، ونظر الناس فاستغربوا، كان القائد المحلى أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يرى أن يدخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس فى موكب الفاتحين، وفى أبهة المنتصرين، وذلك أنه كان يرى أن أولئك بقايا الاستعمار الرومانى، وأن المناظر الهائلة قد تترك فى نفوسهم انطباعات معينة، لكنه فوجئ بما أذهله، فإن الخليفة الراشد عمر رضى الله عنه جاء على ناقته من المدينة، وأبى أن يكون فى موكب.

ويحكى التاريخ أن مخاضة ماء اعترضت ناقة عمر رضى الله عنه، فنزل الخليفة، وحمل نعليه إلى عنقه، ومضى بناقته يخوضان الماء، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه: ما يسرنى أن أهل المدينة يستشرفونك على هذا النحو. فقال له عمر رضى الله عنه: ويحك يا أبا عبيدة، لو غيرك قالها جعلته نكالاً لأمة محمد، لقد كنا أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله.

عمر لا يدخل بيت المقدس عارض أزياء، عمر لا يدخل بيت المقدس فى موكب فاتحين، عمر لا يدخل بيت المقدس وهو يحمل شارات العمالقة، لا، لا ثياب مارشال، ولا ثياب جنرال، دخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس تابعًا من أتباع محمد ﷺ، دخل رجل دين وبر وتقوى، دخل متواضعًا لربه ليتسلم بيت المقدس. ورأى الناس من الفاتح الذى تسلم بيت المقدس، رأوا منه العجب، كان اليهود

ممنوعين أن يدخلوا القدس، وطلب النصارى من عمر رضى الله عنه ألا يسمح لليهود بدخول فلسطين أو القدس، هذه واحدة، وكان الرومانيون الذين يسلمون القدس يرون أن أندادهم من النصارى ـ المصريين والشوام ـ ليسوا أهلاً لأن يكونوا عبادًا معهم فى كنيسة، وعندما دخل المسلمون مصر كان البطريرك مسجونًا، وكان أخوه قد أُحرق ورُميت جثته فى البحر الأبيض، لكن الفاتح الجديد نقل إلى العالم «بدعة» التسامح الدينى.

نحن العرب، نحن المسلمين، الذين أخرجنا للناس «بدعة» التسامح الدينى، ما يعرف هذا التسامح تاريخ إلا تاريخنا نحن، «بدعة» التسامح الدينى هى التى جعلت عمر رضى الله عنه وقد قال له بطريرك بيت المقدس عندما أدركته الصلاة: «صل حيث أنت». قال: «لا..لو صليت هنا لوثب المسلمون على المكان وقالوا: هنا صلى عمر. وأخذوا الكنيسة منكم». وذهب فصلى بعيدًا. لو كان فاتحًا ممن يحتقرون وجهات النظر الأخرى، ويدمرون على غيرهم لصلى فى المكان واغتصبه.. لكنه لم يفعل شيئًا من هذا، والغريب أن أبشع مشاعر الجحود تتدارس الآن بين يهود العالم ونصاراه تريد اتهام المسلمين بالتعصب، وهم الذين علموا هؤلاء وأجدادهم ما التسامح، ولو أراد المسلمون ألا يبقى غيرهم فى الشرق الأوسط ما بقى أحد، ولكنهم أبقوهم اتباعًا للإسلام، لأن الإسلام لا يعرف الإكراه، ولا يعرف الغصب والجبروت.

لم يجئ الخليفة ليملى شروطه، بل جاء الخليفة ليتسلم العاصمة القديمة للوحى، ويجعلها من الناحية العملية حرمًا ثالثًا للحرمين الشريفين..

هذا هو الإسلام.

تبـــدل الحـــال

كيف يشعر الإنسان بالحاجة الملحة إلى إمام حكيم يؤنسه بالله، ويعده للقائه إعدادًا حسنًا، ويلقى على روحه رواء طهورًا يجعله فى هذه الدنيا ملكًا يفكر فى الخير وحده ويهفو إليه أبدًا. إنك تربح نصف الطريق إلى الحق يوم توفق إلى الهادى المدرب اللبيب، وفى طريق الدعوة إلى الله يوجد علماء وخطباء وقادة وساسة وعباد ونقدة ومجتهدون ومقلدون، وفى الطريق كذلك يوجد الأغرار والمهرة والأتقياء والفجرة والمتحدثون والمجاذيب، ترى كم من الجهد يوفر والعناء يقتصد، يوم يقع المرء على قائد استدرج النبوة بين جنبيه، ففى فمه شعاع ينطق بالحكمة وفى ضميره روح يلهم الصواب؟ إن صحبة الأنبياء والاستماع إليهم والاهتداء بهم مجد تالد، وقد غمر الله شعب إسرائيل بهذه الأمجاد، إلا أن كل مبذول مملول، وكل مرتخص مهمل. ألف اليهود مئات الرسل يغدون بينهم ويروحون، فما أكبروا لهم قدرًا ولا اقتبسوا منهم خيرًا، بل لقد تجرءوا عليهم، وغمطوا حقهم، فإذا وقف نبى أمام هوى جامح ليرده ويحمى الأمة شره لم يجد الأشقياء حرجًا من التخلص منه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كأنه كاد يبطئ بها، فقال له عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم بها، وإما أن آمرهم أنا بها، فقال يحيى: أخشى إن سبقتنى بها أن يُخسف بى أو أُعذب.. فجمع الناس فى بيت المقدس،**

فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن: أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله، بذهب أو وَرِق، وقال: هذا دارى وهذا عملى، فاعمل وأد إلى، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله تعالى أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك مثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك كلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى أتى على حصن فأحرز نفسه منهم، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى». أتدرى ما كانت نهاية الرجل الذى أسدى لقومه هذا النصح؟ إن صدودهم عن الحق وقلة انتفاعهم بالتذكير جعلاه يبطئ - أو كاد - فى تبليغهم، فلما ثابر على دعوتهم، وكافح الفساد الشائع فيهم أهدروا دمه، وقتلوه، وتبدلت حال الأمة الكبيرة، فبعد أن كانت تحمد فى العالمين، وتعد أفضل أهل الأرض، تَنَزَّل السخط عليها فى الآفاق، وسارت بذمها الركبان، فإذا هى ملعونة حيث حلت وحيث ارتحلت، وعلى لسان من طعنت هذه الأمة؟ إن الحملة عليهم لم يقدها صحافيون مرتزقة، ولم تتوسع فيها دعايات مغرضة، كلا، إن أنبياء الله أنفسهم هم الذين تولوا قمع هذه الأمة، وإذلال كبريائها وفضح خباياها: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾. ثم غرست هذه اللعنة فى أرض إسرائيل لتثمر الغضب والنقمة على كر الدهور، ولتنتقل من الأجداد عدوى الغدر إلى الأحفاد، ولتنتشر الكراهية فى

أنحاء الدنيا للذرارى النابتة بعد الأجيال المنقرضة، وكلما تجمعت مشاعر المقت فى أحد العصور ثار مغامر جبار فقاتل اليهود واستباحهم استجابة للّعنة الخالدة، وتمشيًا مع قول الحق فى كتابه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. إنه على قدر عظمة النعمة تكون بشاعة الجحود، وتكون صرامة العقاب، وليس ذلك قانونًا خاصًا بجنس، إنه عدل الله فى أهل الأرض طرًّا، فما يؤثر الله أمة إلا بمقدار ما تنطوى عليه من خير، وما يهين أخرى إلا بمقدار ما تسلف من إثم: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ومدخل الشر إلى نفوس الأفراد والجماعات هو سوء الظن بالله، أعنى الظن بأن الله يخفض ويرفع دون حكمة باعثة على الخفض والرفع، وهذا ضلال كبير.

عـــراك بـــين أمتـــين

ليس لبنى النضير، ولا لبنى قريظة عرق قديم فى جزيرة العرب، بل إن القبائل اليهودية التى انتشرت شمالى الحجاز بدءًا من المدينة، حتى خيبر كانت طارئة على البقاع التى نزلت بها، ويتجه جمهور المؤرخين إلى عدهم لاجئين بأنفسهم وأموالهم فرارًا من سطوة الرومان، لاسيما بعد اعتناقهم النصرانية، فإن رأى اليهود فى المسيح بالغ الشناعة، وهيهات أن يقر لهم قرار مع القول به، ولا يعاب اليهود على هربهم بعقائدهم من وجه الاضطهاد النازل بهم، وإنما يعاب عليهم أنهم حيث نزلوا يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، وسلالة أنبيائه الكرام، ولو صحت هذه الدعوة لكلفتهم أن يعيشوا ربانيين بررة يفعلون الخير ويأمرون به، ولكنهم جعلوا مزاعمهم وسيلة إلى الرفعة بأنفسهم والاستهانة بغيرهم، واقتناص المال من كل سبيل، وبناء كيانهم على أنقاض سائر الناس، وبدا ذلك جليًا مع بعثة خاتم الرسل ﷺ، فإن القوم ناصبوه العداء، وساندوا الوثنية ضده، وتألموا لهزائم المشركين، ورثوا قتلاهم وصادقوا المنافقين المختبئين داخل المدينة، وشدوا أزرهم..

ومع أن النبى الكريم ﷺ عقد معهم معاهدة حسن جوار إلا أنهم ما وجدوا فرصة لنقضها إلا فعلوا، وكان من أفحش مظاهر الغدر أن النبى ﷺ ذهب إلى دورهم آمنًا مسترسلاً؛ ليطلب إليهم تنفيذ بعض ما تنص عليه هذه المعاهدة، فإذا هم يستدرجونه ليحاولوا قتله، وأحس النبى ﷺ اليقظ بمكرهم السيئ؛ فانسحب على عجل، وقرر إعلان الحرب عليهم ومحاصرتهم حتى الجلاء، إنهم ما أحسنوا الجوار، ولا احترموا الذمة، فلا حق لهم فى بقاء، وليذهبوا من حيث جاءوا. وفى سورة الحشر ـ وتسمى سورة بنى النضير ـ شرح للأخلاق التى استجمعها اليهود فحق عليهم الطرد، والشمائل التى تحلى بها المسلمون فاستحقوا بها النصر، والقرآن الكريم يؤرخ للأحوال النفسية التى تبت فى مصاير الأمم ويجب أن تتناقلها العصور لترعوى وتستقيم.

بدأ السورة بتسبيح الله، والتسبيح حق الله فى كل وقت وكل وضع، فهو المنزه عن كل نقص والمبرأ من كل عيب، لكن للتسبيح هنا ملابسة خاصة، فإن الناس

إذا أحاطت بهم الكوارث ولم يبد لليلها صبح اضطربت أفئدتهم وبدأت الظنون المزعجة تساورهم، وتدبر قوله تعالى فى غزوة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

وقد علا شأن اليهود فى الجزيرة، فما علا بهم إيمان ولا خلق، وإنما انتشر الربا والخنا، وشاعت عبادة الهوى والتصق الناس بأطماع الأرض، إن الجاهلية الأولى زادت ولم تنقص مع الوجود اليهودى، كأن أهل الكتاب رأوا فى ظلام الوثنية فرصة للصيد والكيد، ولما ظهر الإسلام حسب اليهود أنهم قادرون على إطفاء نوره واستمدوا من حصونهم جرأة على إيذاء أهله وهم آمنون، وخيل للناس أن هذا بلاء ليس منه شفاء، وأن الأقدار لن تتدخل لحسمه، حتى ضرب الإسلام ضربته فإذا القلاع الحصينة تدك، وإذا المتشبثون بها يستسلمون، وإذا الباطل العاتى يترنح، ونزل الوحى يبدد كل تهمة، ويؤكد سنن الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ ﴾.

والضربة التى نزلت باليهود تناولتهم مع حلفائهم من منافقى المدينة واليهود فهم لا يحاربون وحدهم، وإنما يعتمدون على ظهير يشد أزرهم، فهل أجداهم ذلك شيئًا؟ إن المسلمين الذين ظُنَّ بهم الضعف أملوا كلمتهم بقوة، وأكدوا أن أحدًا لن يستطيع حماية المجرمين، ماذا يصنع المنافقون لهم؟ :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

إن القدر قد يطاول العصاة، بيد أنه لا يمهلهم.

ويلفت نظرنا هذا التعبير الدقيق: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ ماذا يعنى؟ ونرى أنه إيماء إلى حشر آخر، سوف يتعرض له القوم فى تاريخهم المديد المتقلب، حشر يخرجهم

مرة أخرى من قرى بنوها وحصون شادوها، وهنا ينتقل بنا الحديث إلى لب المعركة، إن إخراج اليهود من مستعمراتهم فى صدر الإسلام لم يتم إثر نزاع طويل أو قصير بين القومية العربية والقومية اليهودية.

إن العراك كان بين أمتين: إحداهما أسلمت لله وجهها وأخلصت دينها، والأخرى عتت عن أمر ربها ورسله، فكان حسابها شديدًا وعذابها نكرًا.

المعركة كانت بين أخلاق وأخلاق، وأجدر الفريقين بالبقاء من كانت صلته بالله أشرف ونفعه للناس أقرب.

فلسـطين.. الدولـة المغتصبة

الحديث عن (فلسطين والقدس) حديث ذو شجون؛ لأننا سنعود القهقرى إلى تاريخ طويل مضى وغارت جذوره فى الأرض، لكن ما هناك بد من البحث فى هذا التاريخ خصوصًا أن اليهود جاءوا إلى الأرض المقدسة فى هذا القرن وهم يستصحبون ذكريات مضت، وينبشون التاريخ عن رفات توارى طويلاً فى الثرى، وما هناك بد من أن نذكر هذا التاريخ؛ لأننا نحن العرب كثيرو النسيان، ويجب لكى نحسن العمل فى حاضرنا، ولكى نحسن العمل لمستقبلنا أن نعرف ماضينا جيدًا، وماضى الأمة العربية الغائر فى التاريخ جدير بالدراسات والاعتبار؛ لأن هذه الأمة كشفت تجارب الماضى والحاضر - على سواء - عن أنها ما تحيا إلا بدين؛ إذا كان السمك يحتاج إلى الماء ليحيا، وإذا كان البشر يحتاجون إلى الهواء ليحيوا، فإن الجنس العربى يوم يفقد دينه يفقد أسباب حياته، ويستحيل أن يبقى له على ظهر الأرض وسم ولا رسم، لابد أن نعرف طبيعة جنسنا، وعندما نذكر هذه الطبيعة فيجب أن ننبش فى التاريخ الماضى، إن اليهود جاءوا ليقولوا: نحن أصحاب فلسطين، لقد كانوا أصحاب فلسطين يومًا، ولكن قبل أن يكونوا أصحابها كانت هذه الأرض ملكًا للعرب، وكان العرب ينتشرون فى جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها، وفوق الشمال، ولكنهم كما قلت اختبروا اختبارًا مرًّا؛ كى يكون لهم دين يحيون به، فلما تمردوا على هذا الدين عصف بهم، وحصدت خضراؤهم، وحل بهم من عقوبات السماء ما سود وجوههم وأنزلهم حضيضًا لا يخرجون فوقه أبدًا. ما يسمى بـ (أورشليم) هو فى الحقيقة (أورسليم)، اللغة العبرية تنطق السين شينًا، يقولون: (موشى) وهو (موسى)، (أورسليم) بلد سليم أو محلة سليم، كان هناك مكان للعرب، كان للعرب وجود فى فلسطين، كيف كانوا هم الجبابرة الذين يسكنون هذه الأرض؟ هؤلاء الجبابرة امتداد لإخوانهم فى جنوبى جزيرة العرب، فى جنوب الجزيرة كانت توجد ديار الأحقاف، وفيها: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾، وفيها سبأ وجنَّاتها النضرة التى أغرقت لما كفرت.. وندع الجنوب إلى الشمال فنجد «ثمود» ومدائن صالح،

والخراب الذى حل بهذه القبائل لما كفرت بنبى الله صالح عليه السلام بعد أن كفر إخوانهم فى الجنوب بنبى الله هود عليه السلام، ثم نصعد فنجد مدين التى كفرت بشعيب عليه السلام، ونصعد فنجد قرى المؤتفكة ـ فى الأردن الآن ـ التى كفرت بنبى الله لوط عليه السلام، ونصعد فنجد فلسطين والجبابرة الذين سكنوها من الكنعانيين العرب، ونصعد فنجد الفينيقيين ـ وهم جيل سامٍ ـ امتداد الجنس العربى.

هؤلاء العرب الأقدمون دمر الله عليهم، وبعد أن ذكر الأنبياء العرب الذين حاولوا أن يرتفعوا بمستوى الجزيرة وأن يصلوها بالسماء، وأن يجعلوا حضارتهم تشرب الروحانية بدل القسوة، والتواضع بدل الكبر، والعدالة بدل المظالم والإنصاف الاقتصادى بدل الغش والاحتكار ـ لما أبى العرب هذا دمر كل ما بنوا، قال جل شأنه فى سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

كان العرب الكنعانيون فى فلسطين وكانوا جبابرة، وكما قلت: الجنس العربى جنس فى غرائزه قوة، وفى طباعه صلابة، وفى مواهبه امتداد، إذ سخر للخير ارتفع بمواكب الحق إلى الأوج، وإذ سخر للشر ركبته شهواته، ومضى به إبليس يمنة ويسرة فأسف وفعل المناكر، هذا هو الجنس العربى، وكما قال ابن خلدون ـ وهو من أدق الرجال وصفًا للجنس العربى: إنهم جنس لا يصلح إلا بنبوة، ولا يقوم إلا بدين، ولا ترقى مواهبه إلا بشرع السماء، فإذا ترك العرب النبوة والدين وشرائع السماء تحولوا إلى قطعان تعبد الشهوة، وتطلب المال لتبعثره ذات اليمين وذات الشمال تنفيسًا عن شهواتها..

العرب من غير دين شعوب يأكل بعضها بعضًا ومن أجل ناقة ظلت حرب البسوس أربعين سنة، ومن أجل خيل مضت فى السباق ـ داحس والغبراء ـ انطلقت الحروب عشرات السنين..

إنه جنس يدمر يومه وغده ما لم يربطه دين، وما لم تعصمه آيات الوحى، وما لم تلجم غرائزه بهدايات السماء.

هؤلاء هم العرب.. أين عاد؟ أين ثمود؟ أين مدين؟ أين قرى المؤتفكة؟ أين غيرهم؟ دمر عليهم.

ثم جاءت النبوة الخاتمة؛ لكى تجعل من العرب جنسًا آخر بعد أن شرفهم الله بالإسلام.

صدقـــك وهـــو كـــذوب

يقـول الله تعالـى فـى كتابـه الحكيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾. جاء هذا النداء بتقوى الله والتأهب للقائه فى الغد المحتوم، ثم جاء بعد ذلك نهى عن الغفلة الشائنة التى أذهلت اليهود عن الحق، فهم المعنيون بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾. ويبدو أن كاتب أسفار موسى الخمسة فى أول العهد القديم ـ وهى التوراة عند القوم ـ شغله التأريخ لجنسه عما عداه، فلم يورد لفظ «جنة» إلا عند الحديث عن مهد آدم، وكيف أخرج منها، وهذا الحديث المبتور جعل اليهود يتصورون جنتهم ونارهم على ظهر هذه الأرض، وجعلهم أحرص الناس على حياة: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ ﴾. على أن اليهود جاءهم بعد ذلك أنبياء ذكروهم بالدار الآخرة، وخوفوهم من عذاب النار، غير أنك عندما تطالع العهد القديم على طوله لا ترى قضية البعث والجزاء لافتة للأنظار، وما تستغرق إذا ذكرت إلا سطورًا قلائل، وما تورث قارئها رغبة أو رهبة. ولعل ذلك ما جعل بنى إسرائيل مشدودين إلى هذه الدنيا وحدها، فإذا خوفهم ناصح بعذاب الله قالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ ﴾. أما المسلمون فهم مؤمنون باليوم والغد، بيوم التكليف ويوم الحساب، ولذلك قال الله موضحًا حال الفريقين: ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾. والتصور اليهودى للدين أفسد الفكر والخلق والسلوك، فماركس بموارثه التاريخية فى عقله الظاهر والباطن أبعد الناس عن الله وأنكر وجوده ولقاءه، وفرويد جعل السلوك الفردى والجماعى مقيدًا بالشهوة الجنسية، وفلسفته من وراء السعار الحيوانى الذى يملأ القارات.

ولما كان العهد القديم ركيزة للعهد الجديد وكان النصارى ملزمين به على

الإجمال، فإن تجسد الإله أمسى شيئًا مألوفًا، وإسفاف الأنبياء أمسى خُلقًا شائعًا، ومن ثم مضت الحضارة الحديثة دون حادٍ أمين، تستهين بالملونين وتسرق حقوقهم وتزرى بمكانتهم، ومن أجل ذلك وعظ الله المسلمين أن يبتعدوا عن سيرة من سبقهم من أهل الكتاب، وأن يقيموا حضارة ربانية تنزه الله وترتبط به وتأتمر بأمره وتنتهى بنهيه، القرآن رسالة عالمية وليس هناك شعب مختار، ومحمد ﷺ عبدالله ورسوله، ومبلغو الوحى الإلهى معلمون وحسب، رب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وميدان السباق ممهد للبشر كلهم يتقدم فيه الأتقى لا الأوجه أو الآصل، والولاء كله والهتاف كله لله وحده: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾. هذه معالم الحضارة الربانية التى رسمها الوحى الأعلى بعد انتصار المسلمين على عدوهم وطردهم من ديارهم فى أول حشر لبنى إسرائيل. قد تقول: ومتى يقع الحشر الآخر؟ وأكتفى فى الإجابة على هذا السؤال بذكر القصة التالية ـ سمعتها عندما كنت فى الأرض المحتلة من فلسطين الجريحة:

قال الراوى: طلب موشى ديان من أحد أعيان العرب أن يتناول الغداء معه فى بيته، فذهب العربى إلى أسرته يخبرها الخبر، ويستعد الغداء المفروض عليه، وكان للرجل ابن متحمس عميق الإيمان، خاصم أباه، وأعلن سخطه على مجىء ديان إلى بيتهم، ولكن الأب أعلن ألا مفر، ولابد من قبول الأمر الواقع، وقال لابنه: اترك البيت حتى يتم الغداء، وخرج الولد مقهورًا ولكنه مكث قليلاً بعيدًا عن بيته، ثم عاد ليقول لموشى ديان: جنرال، لا يغرنك النصر الذى أحرزته، إنه نصر موقوت، وقد عرفنا نبينا أننا سنقاتلكم وننتصر عليكم، حتى يقول الحجر: يا مسلم ورائى يهودى تعال فاقتله. فضحك ديان وقال للشاب المتحمس: يستحيل أن يقع هذا مادمنا نحن نحن، وأنتم أنتم!

أقول ـ والعهدة على الراوى: إن موشى ديان ينطبق عليه القول المأثور:

صدقك وهو كذوب.. إننا لم نستكمل بعد أسباب النصر، فإن طائفة من أخلاق الهزيمة التى خذلت اليهود قديمًا تسللت إلى صفوفنا واستنزفت قوانا، ولو صدقنا الله لصدقنا الله، إننا ابتعدنا عن أصالتنا السماوية وأخلدنا إلى الأرض، فكان ما كان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ صدق الله العظيم.

أخلاق النصر وأخلاق الهزيمة

الذين يتخذون الدين نسبًا يفخرون به وحسب، ثم يمضون فى الحياة وفق مآربهم وغرائزهم الدنيا، ناسين أو متناسين حق الله عليهم، هؤلاء لن يدركوا نصرًا، لذلك قال الله فى طرد يهود بنى النضير من مستعمراتهم:

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

واطرد السياق القرآنى يشرح هذه المشاقة التى أغضبت الله سبحانه، إن المؤمنين حقًّا يوجلون من الله ويسارعون فى مرضاته، ويخشونه ولا يخشون أحدًا غيره، ولا يخافون فى الله لومة لائم. فهل كان اليهود كذلك؟ كلا، لقد جاء فى وصفهم: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾. إنهم يخافون كل شىء إلا الله! وجاء فى وصفهم أنهم حراص على الحياة تفرقهم مطالبها وتتوزعهم مطامعها، قال تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

هذه أخلاق الهزيمة، أما أخلاق المسلمين يومئذ فقد عرفوا بأنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، يطلبون الآخرة كما يطلب غيرهم الدنيا، يقاتلون فى سبيل الله كأنهم صف مرصوص.

ترى عند تبادل المواقف، وتبادل الأخلاق والمسالك أتتغير النتائج؟ كلا.. كلا، إن الذين يستجمعون أخلاق النصر سوف ينتصرون، والذين يستجمعون أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون، ومن ظن أن الله يحابى أمة ما، فيرفعها وهى تسف؛ فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحى الله وتاريخ الناس شهود على ذلك.

قديمًا وحديثًا ظهرت نزعات عنصرية تجحد الدين فى سريرتها وتستخدمه فى علانيتها، وما ينطلى ذلك على الله. ظهرت الفاشية تريد جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإعادة مجد روما القديم، وسيرت كتائبها تذبح مسلمى ليبيا وتتأهب لاقتحام وادى النيل، وظهرت النازية بصليبها المعقوف تنادى بسيطرة الجنس الآرى وتحتقر السامية، وشهرت الصهيونية تحت علم التوراة تبغى حكم العالم بعد بناء هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى.

إن العروبة التى تعد محمدًا ﷺ بطلاً قوميًا وتستبعده رسولاً عالميًا، وتقدم العلمانية على شريعته المنزلة، هذه العروبة لا تعدو أن تكون نزعة عنصرية كالنازية والفاشية والصهيونية، ولو وصفنا محمدًا بكل أمجاد الأرض وجحدنا رسالته التى اختاره الله لها، فما نقص كفرنا ذرة، وما نؤمن بمحمد ﷺ إلا يوم تكون تعاليمه أساس الفرد والمجتمع والدولة، والذين طاردوا بنى إسرائيل قديمًا وانتصروا عليهم انتصارًا مبينًا كانوا ـ كما وصفت سورة الحشر ـ صنفين من الناس: مهاجرين زهدوا فى المقام بأرضهم إعلاء لعقيدتهم، وأنصارًا فتحوا قلوبهم وبيوتهم لإخوان العقيدة، وقد اشترك هؤلاء وأولئك فى بناء دولة تستمد وجودها من الوحى الأعلى وترفض ضروب العصبيات التى تشد أصحابها بعيدًا عن هدايات الله، ووجهه الأعلى، قال تبارك اسمه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ . وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾. وكل من اعتنق الإسلام بعد هؤلاء إلى قيام الساعة فهو فى آثارهم يسير، وبأخلاقهم يقتدى، وصوته ينضم إلى أصواتهم فى استهداء الله واستغفاره وجعل الحياة له والموت فى سبيله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

أين مكان الاعتزاز بالجنس والإهمال للوحى بين هؤلاء الأسلاف الكرام؟

عندما يترك الناس ربهم، ويأبون إرشاده؛ فسيكلهم فى الدنيا إلى خصائصهم المادية والأدبية، وسيتهارشون تهارش الوحوش فى الغاب، قد يقتل النمر الذئب أو يقتله الذئب، وقد يقتل الثعلب الكلب أو يقتله الكلب، ثم.. إلى الله المصير.. وفى هذه السورة نداء فريد، لا نداء غيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

الأمر بالتقوى والإعداد ليوم الحساب شائع فى القرآن الكريم، فَلِمَ نقف عنده هنا؟ الواقع أن هذا الأمر تذكير بما أعرض عنه اليهود وتناسوه عامدين، فالمطالع لأسفار موسى الخمسة فى أول العهد القديم - وهى التوراة عند القوم - لا يجد فيها أى حديث عن الآخرة، لا يجد فيها ترغيبًا فى جنة ولا ترهيبًا من نار.

وعجيب أن يخلو كتاب دين عن ذكر الروح وخلودها والدنيا وفنائها والحياة الآخرة، وضرورة التعلق بها..

أى دين يكون هذا الدين؟ما أشبهه بفلسفة ماركس وسارتر وغيرهما من عبيد الأرض وجاحدى الألوهية!

وثنـــيـــة جـــديـــدة

الإنسان السليم لا تغتاله الأعراض الطارئة مهما اشتدت وطأتها، قد يسقط فى الطريق فينكسر عظمه، ثم لا يلبث أن ينجبر، وقد يصاب بجرح نافذ، ثم لا يلبث أن يندمل.

ذلك أن قوة المقاومة فى بدنه، ووفرة الحياة المذخورة عنده تجعلانه يتحمل الطعنات والصدمات، فإن استكان لها حينًا لم تمر عليه أيام حتى ينتفض من وعكتها، ويستفيق من شدتها، ثم يستأنف سيره فى الحياة كأن لم يمسسه سوء.

وهناك جسم كمن فيه الداء، واستشرت فيه العلة، يمشى على ظهر الأرض وهو يكاد يتهالك وحده، إنه يوشك أن يخر صريعًا قبل أن تنوشه ضربة، أو تلقاه صدمة، فكيف إذا اعترضه خصم لدود يبغى له الأذى؟

إن الأمم كالأفراد فى هذه الأحوال، وقدرتها على تحمل الهزائم المرة والآلام المبرحة ترجع قبل كل شىء إلى ما يستكن فى أعصابها من طاقة، وما يتدافع فى كيانها من حياة.

عندما انهزم المسلمون فى معركة أحد لم تكن هزيمتهم ختام رسالة ومصرع إيمان، بل اعتبرت الهزيمة جرحًا عارضًا يجب أن يتحمله الأقوياء فى غيرما ضجة. ونزل قول الله:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

وما لنا نطلع المسلمين اليوم على تاريخهم القديم؟ فلينظروا إلى ألمانيا فى الغرب، واليابان فى الشرق، كلتا الدولتين تلقت فى الحرب الأخيرة ضربة هائلة، وتحملت فى الأنفس والأموال خسائر طاحنة.

ومع ذلك لم تمض أعوام قلائل حتى بدأ العمالقة يخرجون من خلال الأنقاض، وعلى شفاهم ابتسامة الرجولة والمصابرة، وعادوا يديرون مصانعهم ومدارسهم ويمدون حضارة العالم، بإنتاج كثيف، جعل الأعداء قبل الأصدقاء يخطبون ودهم ويقدرون صلحهم.

لكن أمتنا الإسلامية أصيبت منذ قرن بسلسلة من الانكسارات العسكرية دوختها، وهدت قواها، ولاتزال حتى الآن تضطرب فى عقابيلها، وتترنح مكانها.

ذلك أن الداهية لم تأتها من انهزام حربى طارئ، بل من داء متغلغل سرت جراثيمه فى دمها سرياناً خبيثاً، فلو لم تسقط أمام خصومها الذين يناوشونها لسقطت وحدها مغشيًّا عليها، كما يسقط المنهوك أو المحموم.

كانت الوثنيات السياسية والاجتماعية والعقدية تنخر فى عظامها، وتنشر ضباب الخرافة فى آفاقها وتعزلها عن قافلة العالم المائج بالاكتشافات الباهرة وتستهلك آخر ما تبقى لديها من مواريث الحضارة التى آلت إليها عن الأسلاف الصالحين.

كانت الخلافة الإسلامية فى ملكها العريض تسمى حكومة الرجل المريض، وكانت أوربا تعد الساعات القلائل الباقية فى أجل المحتضر الهالك، لتقتسم تركته، وتتوزع بينها ثروته.

لم تكن مصائبنا إذن من اندحار عسكرى مفاجئ، بل من مرض متغلغل قديم، ومن هنا هب المصلحون فى بقاع شتى من الوطن الإسلامى الكبير يعالجون العلة الدفينة ويستنقذون عقيدة التوحيد من ضروب الوثنيات التى أوشكت على إتلافها - سياسية كانت أو مادية - ويحاولون بناء الحضارة الإسلامية على أصولها الأولى، من حرية العقل والضمير.

وقد كان محمد بن عبدالوهاب، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وحسن البنا كان هؤلاء الأئمة الأبطال يحترقون دأبًا فى تعريف الجماهير الغافلة بالله وحده ويمسحون عن قلوبها الذليلة أرجاس العبودية للأوهام والأسماء، بيد أن الوثنية السياسية لاحقتهم بأذاها فقتل محمد على باشا دعوة ابن عبدالوهاب وقدم رجالها قرابين لسيده فى الأستانة، وقتل فاروق - حفيد محمد على - دعوة حسن البنا، واغتال الرجل الكبير بعدما أرسل وزراءه إليه يستدرجونه إلى مصرعه.

وأمل الوثنية السياسية من وراء هذه المذابح أن تبقى على تألهها وسط قطعان من الخدم والسدنة والعبيد، لولا أن الله لم يخيب جهود المصلحين من عباده، فإن الزعماء القتلى لم يتركوا الحياة حتى خلفوا من ورائهم من يحمل اللواء، ومن يعاهد الله على تحطيم الأصنام ما بقى حيًّا.

العرب ينتحرون بترك الإسلام

ماذا تنتظر عندما يخرج الإسلام من الميدان، ويبقى فيه المنادون بالتوراة، وحدود التوراة، وآمال التوراة، فإن اليهود لا يقاتلون عربًا ولا مسلمين، فقد اختفى هؤلاء وأولئك باختفاء الإسلام، وبقيت شخوص لها أسماء عربية ولا عروبة، وأسماء إسلامية ولا إسلام. ومن ثم فإن حربى سنة ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، كانت إعلانًا عن انتحار جماعى لمن ينتمون زورًا إلى العروبة والإسلام، وكانتا فرصة من ذهب لتوكيد خرافة الجيش الذى لا يُقهر، والحق أن القادة الذين أخرجوا الإسلام من المعركة أسدوا يدًا طولى لليهود، وأكسبوهم نصرًا تجاوز الأحلام، وظاهر أن اليهود أحرزوا غنائم باردة، وانتصروا من غير قتال، ومشوا فى أرض خلت جنباتها من الحراس، وأدركت جماهير المسلمين حقيقة ما حدث، فلم يكن الإسلام الغائب بداهة مسئولاً عن هذا الخزى العظيم، المسئول عنه نفر معروفون من الناس، وأنظمة أكرهت الشعوب على الخضوع لها بالحديد والنار.

ولعل أغرب ما يروى فى هذه الهزائم أن المسئولين عنها قالوا فى تغاضب: ماذا حدث؟ إن خسارة الأرض والناس والسمعة والمكانة لا تعنى شيئًا، لقد كان المطلوب الذهاب بنا نحن وبأنظمتنا التقدمية، وذلك ما لم يتم، لقد بقينا وهذا وحده نصر.

الحق أن تاريخ الصفاقة لم يشهد مثل هذه الوجوه، ولن يشهد أبدًا، وقال كل من له لُبّ: إن اليهود يدفعون مليار دولار لكى تبقى هذه التقدمية تحكم العرب، وتعين عليهم، وتبعث على الضحك منهم، وغاص المسلمون داخل أنفسهم يتميزون غيظًا، ويبكون أسفًا، وعلموا أنه لا عاصم لهم من الهلاك إلا الإسلام، فجهروا بالحنين إليه وخاصموا التنكر له والخروج عليه، وقد كنت واحدًا من عشرات الدعاة الذين انطلقوا فى ضفاف قناة السويس وأطراف الصحراء الشرقية يتحدثون عن الإسلام بحرقة، ويحدثون الجنود بصراحة.

كانت الآلام النفسية والبدنية تعصر الرجال الذين اتهموا بما هم منه براء، وحملوا أوزارًا اقترفها غيرهم، وكانت وجوههم ترمق السماء بأمل، وتنتظر لقاء لابد منه مع اليهود الذين أسكرهم نصر صنعه لهم الخونة. وجاء العاشر من

رمضان ١٣٩٣هـ وكلف الرجال بعبور القناة، وتدمير خط (بارليف) الذى صنعته العبقرية العسكرية (الصهيونية ـ الصليبية). لقد صدر الأمر فى ظروف صالحة كل الصلاحية، فإن الإنسان المسلم ثابت إليه خصائصه الرفيعة من عمق فى الإيمان، وصدق فى التوكل، ورضًا بالقدر، وترحيب بلقاء الله، كان الرجال الصائمون يستعدون ليكون إفطارهم فى الجنة، وغلبت صيحات التكبير دوى المدافع، وتملك المقاتلين شعور بأنهم أبناء الصحابة الذين أدبوا الجبابرة وقمعوا الباطل، فإذا الجبهة الطويلة تسير عليها روح وصلت خواتيم القرن الرابع عشر بأوائل القرن الهجرى، وما هى إلا أيام حتى كانت الحصون المستبدة تنهار تحت عزمات الرجال، وتصبح أثرًا بعد عين، وما هى إلا أيام أخرى حتى كانت العساكر المشاة تمزق فرق المدرعات اليهودية الرابضة خلف الحصون، وتبعثرها شذر مذر، وجاءنى خبر استشهاد الأخ المهندس أحمد حمدى وهو يشرف على إقامة الجسور فوق القناة لتستطيع الأسلحة الثقيلة العبور، إننى عرفت أحمد حمدى فى مسجد الجمعية الشرعية بالمعادى، وكنا نصلى الجمعة معًا، وما كنت أدرى أنه سيكون طليعة الشهداء الذين تنفتح لهم أبواب الجنان فى هذه الأيام.

إن المقاتلين المسلمين فى هذه المعركة مضوا على طبيعتهم التاريخية، ونسوا كل شىء إلا أنهم مجاهدون فى سبيل الله، نعم نسوا أنهم استحلفوا يمينًا على أن يكون قتالهم من أجل حماية المكاسب الاشتراكية، كما شاء ذلك من كلف بإبعاد الإسلام عن المعركة، لا، إنهم يقاتلون اليوم ابتغاء وجه الله، وانتظار رضوانه الأعلى، وإحقاقًا للحق وإبطالاً للباطل، ودفاعًا عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وقد شرعوا بعد نجاحهم فى العبور ينطلقون شرقًا لا تثنيهم عقبة، فإن الجيش اليهودى الذى زعموه لا يقهر بدا على حقيقته العارية وجدوه جبانًا، طالب حياة، مستكينًا بعدما فقد الجدار الذى يحارب وراءه.

لكن القيادة (العربية) كانت من الناحية الروحية دون الإيمان المنشود بمراحل كبيرة، ومن الناحية الفنية دون العمل بمشورة أهل الخبرة، والانصياع لآرائهم، فتوقفت جامدة فى مكانها لا تصنع شيئًا، فماذا حدث؟ إن اليهود كانوا قد تلاشوا، فليس لهم أثر، ولكن (الحبل من الناس) الذى حزمهم من قبل تحرك على عجل كى يستبقى الخرافة التى صنعها، خرافة الجيش الذى لا يقهر، وقامت جسور جوية تحمل الدبابات العملاقة والقاذفات الثقيلة، وتنقل أحدث ما أنتجته

المصانع العالمية من ذخائر وأسلحة، وخرج اليهود من جحورهم فى حماية الأقمار الصناعية، وصاحت الفئران الهاربة تقول: نحن أسود.

قلت لصديقى وأنا أنظر بعيدًا: لو بقى وحى العقيدة، وظهر إخلاص القادة، ما تغيرت نتيجة المعركة، فإن هذه النجدات المجلوبة انهزمت فى فيتنام، والرجال المسلمون أجرأ وأشجع من ثوار فيتنام، إن العقيدة الإسلامية التى يملكونها أقوى من القنبلة النووية.

يا صديقى، إن إخراج الإسلام من المعركة بين العرب واليهود هو طريق العار والنار.

الجيش الذى لا يقهر أكذوبة لها تاريخ

هناك جهود كبيرة تبذل سرًا وعلنًا ليستقر فى الأذهان أن الجندى الإسرائيلى مقاتل ذو بأس، وأن الجيش الإسرائيلى - كما يزعم الخرافيون - قوة لا تقهر، وقد فحصت الشائعات التى تطلقها مؤسسات شتى، ورجعت البصر فيما تكتبه وتذيعه دور شرقية وغربية، واستمعت إلى تصريحات بعض الساسة وتعليقات بعض المراقبين، فوجدت هؤلاء وأولئك يتواصون بالكذب، ويريدون إقناع العرب والمسلمين أنهم يقاتلون فى معركة ميئوس منها، لماذا؟ لأن الإسرائيليين فى التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه كانوا رجالاً أولى فداء وبلاء، وأن انتصاراتهم فى المعارك التى خاضوها فى الشرق والغرب طبقت الآفاق، مطلوب من العرب والمسلمين أن يصدقوا هذه الفرية، وأن يقبلوا شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، مطلوب منهم أن يقبلوا الدولة الإسرائيلية على ترابهم، وأن يؤمنوا بأن الشعب الذى غاضب الله فغضب عليه الله، وكتب عليه الذلة والمسكنة هو شعب شجاع لا يقهر، صلب لا يلين.

ومن سبعة قرون ونيف انطلقت هذه الشائعة بين أيدى التتار الذين أغاروا على العالم الإسلامى، وأسقطوا الخلافة العباسية، ودمروا المدائن والقرى، ووقر فى نفوس الناس أن الجيش التتارى لا يهزم، وأن جحافله إذا انطلقت لا ترد، وللشائعات سلطان على الدهماء، وقد يكون لها فى ضعاف القلوب موقع، وقد ظهر ذلك عندما التقى التتار والمسلمون فى (عين جالوت).

كانت الرهبة من الجيش (الذى لا يقهر) تخامر النفوس، وهذه الرهبة وحدها سلاح قاتل كاد ينال من الجيش الإسلامى لولا الصيحة الهائلة التى قصفت كالرعد فوق رءوس الناس، صيحة القائد المظفر قطز يقول: «وإسلاماه..» فإذا اليقين يعمر الأفئدة، والحماس يلهب الأنفاس، وانطلق من بين المسلمين إعصار يطلب الآخرة ويدمر ما أمامه، فما هى إلا جولة تتبعها أخرى حتى كان التتار بين مقتول وهارب، وسقطت فى الوحل قصة الجيش الذى لا يقهر، وأخذ الوجود التتارى يتقلص مع الأيام حتى اختفى إلى الأبد.

إن التاريخ يعيد نفسه اليوم، والمحاولات ماضية فى إلحاح لإشعارنا أن الإسرائيليين اليوم هم تتار الأمس الذين سفكوا وأهلكوا ولم يوقفهم أحد.

والواقع أنهم أقل وأذل من أن ينهضوا بهذا الدور، وأن مؤامرات القوى الكبرى هى التى تريد توكيد هذه الخرافة، وهى تتدخل سافرة لترجيح كفتهم إذا انهاروا حتى يظلوا شبحًا مرعبًا فى المنطقة التى نكبت بهم، إنهم شبح يهول فى ظلمات الخداع، وغيوم الفوضى التى تزحم الأجواء.

أما العنصر الفذ الفعال فى نصرة المسلمين فهو موقفهم من دينهم لا موقف غيرهم منهم، وهو عنصر لا تنال منه شائعات موهومة ولا حقائق معلومة. فقد المسلمون هذا العنصر أواخر الخلافة العباسية التى استهلكها الترف، وأخملتها المآرب الدنيا، فكانت العقبى أن تمكّن منهم الأعداء، ومزقوهم شر ممزق.

كانت ريح الدعوة راكدة، وسوق التقوى كاسدة، وكانت الخلافة الداخلية توهى الكيان الكبير، وتنشر فى جنباته الفتوق، وكما تقوم شجيرات طفيلية إلى جوار الجذع الباسق فتعطل نموه، بل تسلبه الحياة، قامت ممالك كثيرة فرضت وصايتها على الخلافة العظمى، وجعلتها شاخصًا لا روح فيه، وأخذت تتصرف وحدها تصرفات آذت العالم الإسلامى كله.

وقد سجل ابن كثير فى موسوعته التاريخية (البداية والنهاية) كيف أن أحد الملوك المسلمين فى ذلك العهد الغابر استفز جنكيز خان، وظلم بعض رعاياه، فكان سببًا فى الدواهى العظام التى حلت بالإسلام وأمته.

وقد دخل التتار بقيادة قائدهم الطاغية بغداد عاصمة الخلافة وأهلكوا الحرث والنسل، وعاثوا فى الأرض فسادًا، وقد دخل التتار فى الإسلام بعد ذلك، وأحسب أنهم لو وجدوا من يعرض الإسلام عليهم قبل غارتهم الشعواء لدخلوا فيه وأخلصوا له، وأنى يجدون الدعاة الواعين الصادقين مع انشغال المسلمين بأنفسهم عن ربهم، وبدنياهم عن آخرتهم؟

وقد دفعنا الثمن قديمًا، ويبدو أننا ندفعه الآن مرة أخرى، ترى هل نتدبر قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

إن اعتصامنا بالله وحرصنا على رضاه هو اللواء الوحيد الذى نقاتل تحته



ليقودنا إلى النصر، والصراع بين العرب واليهـود خضـع قديمًا لهذه الآية: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

وقد حرم الله عليهم النصر تحريمًا قاطعًا فى كل حرب خاضوها مع سلفنا الأوائل، ثم شرح مستقبلهم آخر الزمان فبين أنهم لا يقومون وحدهم أبدًا، فإما اصطلحوا مع الله وتركوا ما هم فيه، وإما حملهم بعض الناس ليستخدموهم فى الإفساد والإضرار: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فأما حبلهم مع الله فمقطوع، وبقى الحبل الآخر... ولا أريد الحديث عنه، فالحديث ذو شجون.

صناعة أكذوبة

لاحظ معى أن هناك أمرًا فى غاية الغرابة موجود على الساحة الدولية فاليهود يأخذون من الغرب الصليبى ونحن نعطى، واليهود يسبون عيسى وأمه ونحن نوقرهما، ومع ذلك فالغرب الصليبى هو الذى يقول: خُلقت إسرائيل لتبقى، وهو الذى يقول: يجب أن ترجح قوتها قوة العرب كلهم، مهما كثرت دولهم، وهو الذى يسارع إلى إنهاضها إذا كبت، ولم تغن عنها كل الضمانات، وهو الذى يؤكد الأكذوبة التى اختلقها هو: أن الجيش اليهودى لا يقهر.. لم كل هذا؟ لأن بغضاءه لمحمد عليه الصلاة والسلام لاتزال تستعر فى دواخله، لا تنطفئ جذوتها آخر الدهر. وقد وضعت الدول العظمى خطتها على أساس محو أمة وإثبات أمة أخرى، محو تاريخ ورسالة وإثبات تاريخ آخر ورسالة أخرى، والتوسل بكل شىء لإدراك هذه الغاية، ونريد أن ننظر إلى ما وقع ويقع لنتبين أن هذه الدول العظمى كانت ومازالت تصنع (دولة إسرائيل) وترسل الشائعات الكاذبة حول عظمتها وشجاعتها. ولو قدرت على جعلها مؤسسة لهيئة الأمم لفعلت، ولمنحتها حق (الاعتراض) المقرر للدول الخمس المؤسسة للهيئة الموقرة، كانت هناك خطة معقولة سهلة يقدر بها العرب على هزيمة اليهود، ومنع قيام دولة لهم، هى تشجيع المجاهدين الفلسطينيين، وإمدادهم بالسلاح، وإمدادهم بآلاف المتطوعين الراغبين فى الشهادة، وجعل فلسطين كلها جبهة أمامية، والعالم الإسلامى كله قاعدة خلفية للكر والفر، وهذه الخطة هى التى تبعها الجزائريون فسحقوا فرنسا، وهى أعتى وأدهى من اليهود.

وكان القادة الفلسطينيون الأصلاء لا يرجون إلا دعم إخوانهم لهم بالسلاح والرجال، وقد استطاعوا وحدهم أن يهزموا اليهود أو يوقفوا تقدمهم عشرات السنين، بيد أن الاستعمار العالمى كان يريد شيئًا آخر، كان يريد إلحاق هزيمة مزدوجة بالأمة الإسلامية لا بالعرب وحدهم، إحداهما عسكرية، والأخرى نفسية، فدفع بدول الجامعة إلى حرب رسمية أعد مكانها وزمانها بمهارة، وارتقب نتائجها بثقة، ولم لا؟ وأهم هذه الدول لاتزال محتلة بجيوشه، وتعتبر مدنيًا وعسكريًا فى مجاله الحيوى، وقادتها دمى بين أصابعه؟ وعندما تسجل الهزيمة

على الدول العربية ـ والحالة هذه ـ فسيكون ميلاد (إسرائيل) دوليًا لا ريب فيه، ألم تنهزم أمامها حكومات العرب؟ فكيف ينكر وجودها؟ لكن هذه الخطة الماكرة اعترضها ما كاد يودى بها، فإن بقايا الإسلام فى دماء الجماهير، ورجولة البدو فى حماية الذمار، واستبسال الجماعات الإسلامية فى طلب الشهادة، كل أولئك شد سواعد المجاهدين وأعانهم على تشتيت شمل اليهود، وفتح ثغرات واسعة فى صفوفهم، وفوجئت أوربا بالعرب على بعد أميال من (تل أبيب) عاصمة الدولة المزعومة، وأن أيامًا قلائل ثم يتم الإجهاز عليها، وهنا تدخلت هيئة الأمم الموقرة لتفرض هدنة إجبارية على المقاتلين جميعًا، وخلال عشرة أيام من إعلان الهدنة كانت سيول من السلاح والرجال تجىء إلى العصابات اللاهثة، ثم صدرت أوامر لبعض الجيوش العربية بالانسحاب، ثم اصطنعت هزيمة للعرب كلهم أمام اليهود، ويومئذ ولدت خرافة أن الجيش اليهودى لا يقهر، وأوعز الاستعمار إلى سماسرته بتضخيم الأكذوبة ونشرها على نطاق واسع لكى تتم هزيمة العرب نفسيًا، فلا يفكرون فى حرب أخرى، على أن الصهيونية والصليبية أحستا أن خطر الإسلام على مطامعهما لايزال كبيراً، وأن صيحة «الله أكبر» لو سمعها العاصى أفاق من سكرته، وانطلق إلى ميادين الفداء لا يلوى على شىء، فلابد إذن من إخراج الإسلام من المعركة الدائرة، واستبقاء اليهودية يتنادى بها الشعب المختار، وتسعفه فى إفناء العرب المرتدين، ونجح الاستعمار فى إنشاء أنظمة عربية تتنكر لكتاب الله وسنة رسوله، وترفع شعارات أخرى: إما صريحة فى رفض الإسلام، وإما خرساء لا تذكره فى مواطن، ولا تعتمد عليه فى تربية، ولا تستمد منه فى تشريع، ولا توثق به رباطًا، ولا تبعث به على تضحية، وبدل صيحة «الله أكبر» قبل خوض الغمرات سمعت صيحات غليظة تمثل الوحش عندما يلقى فى الغاب عدوه.

وقد استمعت أنا إلى هذا الحوار النابى وأثره المحقور، وتساءلت: أهذا هو البديل المختار لكلمة التوحيد؟ هذا والله هو المسخ والضياع.

والعرب عندما يطرحون الإسلام وراء ظهورهم يطرحون سعدهم ومجدهم ورفدهم، ويفقدون الطاقة الروحية والمادية التى يتماسكون بها أمام عدوهم.

ليس اضطهادًا بل سيطرة

على الرغم من كل الجرائم التى ترتكبها الصهيونية تحت سمع العالم وبصره، فإن فريقًا مخدوعًا من الناس لايزال يصدق تلك الأكذوبة التى أطلقوها وهى أن اليهود مضطهدون فى الأرض ومحاربون فى كل مكان، ولهذا وغيره فإن بعض الدول تحبوهم عطفًا خاصًا مما ستدرك خطره عما قريب.

والصهيونيون فى كل شعب الأرض هم مصدر نكبته، واختلاط أمره، لأنهم يعملون فيه على الكسب الحرام ويتجرون فى أقواته وأرزاقه، حتى إذا امتلأت خزائنهم بالذهب سول لهم حقدهم أن ينزلوه من مثله العليا إلى الدنس.

إننا لم نر على تعاقب القرون أن الصهاينة قد اعترفوا بالفضل لأحد، أو شكروا معروفًا أسدى إليهم، فالأمة التى تبسط عليهم جناح رحمتها وتلتقطهم من مفازات التشرد لا يطيلون أمد انتظارها لتجد فيهم معاول هدمها وعناصر فنائها.

والتاريخ يشهد أنهم النغمة النشاز فى لحن البشر المتجانس، ولهذا فإن الدول تضيق بهم كما يضيق المريض بدائه.

إن الصهيونية قد أعدت عدتها فى القرن التاسع عشر لتحقق الغاية الكبرى من نضالها الطويل، فقد حشدت قوتها وعبأت جهودها لتسيطر على التجارة والصناعة فى العالم حتى تهيمن عليه اقتصاديًا وتتحكم فى «رأس المال الدولى» ولم يعد خافيًا على أحد أنها أصابت فى ذلك حتى الآن نجاحًا ما كانت هى نفسها تحلم به، وما ظنك بطائفة لايزيد تعدادها فى العالم كله على (١٣) مليونًا تملك ما يقرب من نصف رأس المال العالمى؟

وهذه النتيجة الرهيبة لم تصل إليها الصهيونية مصادفة، أو نالتها ثمنًا للذكاء والسعى الشريف، وإنما سلكت إليها سبلاً كلها تبييت وسرقة واستغلال، ذلك أنه إذا اعتكر الجو العالمى وماج بالفتنة فيها شره المال تحتكر الأسواق لتختان الأرزاق والأقوات معتصرة فى هذا بكلتا يديها الغالب والمغلوب جميعًا.

إن الصهاينة فى أمريكا وفرنسا وإنجلترا ملوك غير متوجين، فإن نفوذهم



الاقتصادى جعل منهم حكامًا حقيقيين فى واشنطن ولندن وباريس، وبيوتهم المالية هناك تتضاءل إلى جانبها خزائن بعض تلك الدول، وهذه عوائل الصهيونية تملك مصارف كبرى فى: لندن وفيينا ونيويورك وباريس وبرلين.

إن الصهيونية بعد أن نجحت فى استعمارها الاقتصادى لدول الغرب بدأت تفرض نفسها هناك، وتدس أنفها فى شئون الحكم.

ولقد أصابت الصهيونية هذا النجاح لأنها اعتمدت على وسائل هى فى جل أمرها ترجع إلى ما برعوا فيه من إثارة الحروب، والفرقة بين الشعوب، وتسخير الحكام الضعفاء، وإشاعة التحلل الدينى والوطنى وكان سبيلهم إلى ذلك الجمعيات السرية ذات الطابع الإنسانى ظاهريًا.

تلك كانت سريرتهم فى الماضى والحاضر فهل نعى الدرس فى مستقبل الأيام؟

رجـــال الحـــق

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾.

فى هذه الآية دلالة على أن الله عز وجل اختص نفوسًا معينة بمعرفة الحق على وجه كامل مثمر، فهى لا تضاء به من داخل فحسب بل تبسط أشعته أمام الناس عامة ليسيروا على هداه ويطمئنوا إلى سناه.

وهم كذلك يحكمون بالحق، فإذا اختلطت الأمور، وخيفت المظالم، قضوا بين الناس بالعدل، فجاء قضاؤهم العادل نورًا يمحو الظلم والظلام، أولئك هم المصطفون الأخيار من عباد الله، وأولئك هم أمل الدعوات الكبرى والنهضات العظمى حين تبدأ مسيرها فى الأرض فتعترضها السدود والهضاب وتردها العوائق والصعاب.

كنت أعجب أول أمرى لماذا وصف الحق بالمرارة، وغصت به حلوق كثيرة؟ حتى سرت فى مركز الدعوة إلى الله، ورأيت أن قول الحق جهاد ثقيل الأعباء شاق التكاليف، جهاد قد يكلف المرء دق عنقه إذا اصطدم بفرعون جبار.

وربما كان أيسر البذل أن يتقهقر المرء فى مجتمع يتصدره المهرجون والكذبة، والذين يهدون بالحق فى هذه الأحوال يجب أن يكون لهم من اليقين ما يجعلهم يزدرون الجاه الذى حصل عليه المبطلون، وما يحقر أمام أعينهم البقاء فى الدنيا، إذا لم يقدروا على قول الحق والهداية به.

ما أجمل الحق وما أجل رجاله، بنفسى أولئك الأبطال الذين داسوا وساوس الضعف، وكبروا على فنون الإغراء، وتألقوا بين ركام العوام، وتنكروا للحاضر الذى يكرهونه، وتفانوا فى الغد الذى يتمثلونه، ومضوا قدمًا إلى غايتهم فإما نجحوا وإما فشلوا.

إن النجاح والفشل لا يحكم على النيات، ولا ينقص الأجور، «فحمزة» الصريع المهزوم فى «أحد» ليس دون «خالد» القائد المنتصر فى عشرات المعارك بل ربما كان خيرًا منه.

وكم فى عصرنا هذا من نهضات كبت أن تبلغ هدفها، وطوى تاريخها طيًا محزنًا، ذلك أن التاريخ يكتبه غالبًا المنتصرون وما أكثر ما يأفكون ويزورون.

لكننا ـ ونحن أصحاب المبادئ ورجال المثل ـ نريد أن نهتك هذا الزور، وأن نحيى أصحاب الحق سواء قتلوا فى الطريق أم وصلوا إلى القمة.

أجل إننا نريد رجالاً يعشقون الحق، ويعيشون به وله، صرحاء ولو غضب لصراحتهم ألف ملك ووزير، حنفاء ولو أطبق الجهال على تمجيد الأوثان وحرق البخور بين يديها، أعزة بأنفسهم لا يبالون أن تصدر الأوامر «العليا» بإقصائهم من المحافل الرسمية ولا المناصب الضخمة، غاضبين لله عنادًا وإصرارًا وحاقدين على الباطل مع ترفع واحتقار.

نريد رجال الحق فى عالم عز فيه نصراء الحق، فى بلاد سخر فيها الدين كما سخرت الدنيا لحراسة الجور وتمجيد الفسقة لأن السلطان فى أيديهم وتحت أقدامهم.

نريد رجالاً لا يدوسون المثل العليا باسم المرونة السياسية ولا يأمنون أولاً على أنفسهم وأموالهم وأنصارهم ثم يعلنون بعد ذلك الجهاد لنصرة الإسلام، كأن نصرة الإسلام سمن وعسل.

إن ترك الباطل يمر دون نكير ـ أمر خطير جد خطير، وليس المهم أن تكسر شوكته بحولك فقد تكون ضعيف الحول، ولكن المهم إذا رأيت المبطلين سادرين فى جرائمهم متجاهرين بمناكرهم أن تقول ـ عند ظهور عجزك واستحالة مقاومتك ـ مقالة العبد الصالح لوط لقومه لما ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

أما الذهاب إلى فاعل المنكر وإبداء الاحترام فلا.

أما مشاركة الكذبة فى الهتاف للمجرم فلا. وما أكثر الذين أسرفوا وهتفوا للمجرمين!

والأمم التى يخرس صوت الحق بين كبارها وصغارها، والتى تتوارث هذا الصمت المعيب، تمشى حثيثًا فى طريق الانقراض.

ومن حق الحياة النظيفة أن تخلو منها.

مـــلام وكـــلام

«نشكرك اللهم، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك».

هذه كلمات يتلوها المصلون فى قنوتهم، ويتوجهون بها إلى الله عز وجل، قد يناجون ربهم فى صلاة الصبح ليستقبلوا النهار بعهد موثق، أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة، وقد يناجون ربهم فى صلاة الوتر، ليختموا المطاف بعد جهاد اليوم الطويل، مؤكدين العهد أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة.

وسواء قالوها أول النهار أو آخره، فإن العهد مأخوذ على كل موحد أن يضاد المجرمين، وأن يوهن كيدهم، وأن يجعل عواطفه وأفكاره حربًا عليهم.

أجل يجب أن تبغض الظالم من أعماق قلبك إن كنت لله موحدًا، وأن تؤيد المصلح كذلك وتمنحه محض ودك.

روى الحاكم عن عائشة، رضى الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شىء من الجور، أو تبغض على شىء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض؟ قال الله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**».

هل الدين إلا الحب والبغض؟ إن الدين هو هذه العاطفة المشبوبة بمحبة الخير، وكراهة الشر وأحزابه، وهو هذه العاطفة الدافقة المنسابة كالفيضان الموار، لا تجد مستقرها إلا حيث تبلغ أهدافها، لا يهمها أن تغمر سفحًا أو تطوق قمة.

إن الدين هو هذه العاطفة الحرة اليسيرة التى قد تتمثل فى اشمئزاز من مسالك الفسقة، يقبض يدك عن مصافحتهم، ويجعل جمرة الغضب تصبغ وجهك لجرأتهم على ربهم وحينها قد تتمنى أن تُخسف الأرض من تحتهم، أو تقيم الدنيا وتقعدها من حولهم، وإلا فإن أقعدك العجز سكنت سكون المقهور على ما يلسعه من عار، لا سكون البليد على ما وصل إليه من قرار.

أعرف قومًا فقدوا هذه العواطف الملتهبة، أى فقدوا الخصائص الأولى لدينهم، فهم أكوام من التراب البارد، أولئك قوم ليسوا من الله فى شىء.



وأعرف آخرين أرهبم جبروت الفساق، وسلطان الظلمة فلاذوا بأضعف الإيمان ورأوا أن يغيروا المنكر بقلوبهم فحسب.

ونحن لا نخرج الجبناء من حظيرة المؤمنين، ولكننا نستغرب ثم نستغرب أن يكون عمل الكثير من المشتغلين بالدعوة إلى الله هو هذا الإنكار القلبى، فما بقاؤهم فى ميدان الدعوة؟ وما تقدمهم فيه؟ وبأى حق حملوا هذا الوصف العالى وسموا أنفسهم دعاة؟

لقد علم الغبى والذكى، والقاصى والدانى، أن بلاد الإسلام سقطت فريسة وثنيات سياسية مدمرة، وأن الإسلام نفسه ضاع فى حريق الشهوات التى تتطلبها هذه الوثنيات المجنونة، وأن مراكب الحضارة التى تتراكض وثبًا إلى الأمام فى سائر الدنيا تتراجع متقهقرة فى بلادنا وحدها، وإن جماهير العمال تضرب فى «أمريكا» والعالم الحر طالبة المزيد من فنون الراحة والدعة، على حين تكلف الجماهير الفقيرة عندنا بأن تجوع وتعرى لإبطار فرد سادر فى غلوائه، فرد مستطار الشر خبيث الشره.

إن هذه الوثنيات المسعورة لم يبق معها دين ولا سلمت دنيا.

فماذا صنع المشتغلون فى ميدان الدعوة إلى الله لمكافحتها؟ وأعنى بالمشتغلين الهواة والمحترفين جميعًا، وأين جهودهم لإنقاذ البلاد والعباد من ويلاتها؟

إن هذا النفر من الرجال الذين يعيشون على تملق الظلمة، وستر مساوئهم واختلاق المحامد لهم وإرسال الدعاء الحار بحفظهم وتأييدهم ـ ليس دخيلاً على ميدان الدعوة الإسلامية فقط، بل هو وصمة فى وجه الإسلام نفسه وليس له هدف إلا تدعيم هذه الوثنيات الطائشة وإقرار بطشها وفسقها.

حـــدود الشـــرف والوفـــاء

نشبت أربع معارك متتابعة بين اليهود والمسلمين فى صدر الإسلام بدأت مع بنى قينقاع ثم بنى النضير ثم بنى قريظة ثم المعركة الأخيرة معهم فى خيبر، أربع معارك متتابعة مع قبائل اليهود المسلحة المحصنة المستعدة المعبأة انتهت جميعًا بهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم.

إن الإسلام ما كان عليه من بأس أن يبقى اليهود إلى جواره يعيشون بدينهم أبدًا، دون أن يخرجوا ودون أن يرهبوا لو أنهم لزموا حدود الشرف والوفاء، ولكنهم لما تبجحوا بقواهم العسكرية، وظنوا أنهم بهذه القوى يستطيعون سحق الإسلام، اشتبك الإسلام معهم فى حروب على النحو الذى مر، فلما قلم أظافرهم وانتزع أنيابهم وجردهم من الأسلحة التى استعملوها فى الغدر والخيانة ـ قَبِل أن يبقوا فى جزيرة العرب مواطنين يهودًا يتبعون دينهم ويعاملهم المسلمون معاملة حسنة.

يروى البخارى فى الأدب المفرد، عن عبدالله بن عمرو أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودى؟ أهديت لجارنا اليهودى؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

جار يهودى.. رأى تلميذ رسول الله أن يكرمه وفق تعاليم رسول الله ﷺ.

إن هذه الأقليات يوم تكون مجردة من القوة، يوم تكون بعيدة عن الإيذاء والشر، يوم تكون بريئة فلا تشتغل عميلة لأحد، يوم تحب أن تبقى على دينها فقط فإن الإسلام يقبلها ويحسن إليها.

إن الإسلام يكره الغش والخديعة والتآمر. لعل التاريخ لا يعرف إنسانًا مخالفًا فى الدين يعيش فى بلد كثرته مسلمة، سلطته مسلمة، حكومته مسلمة، ثم يقول لرئيس الدولة ورجلها الأول وقد جاء يشترى منه شيئًا: لا أعطيك إلا بالثمن أو برهن.

يهودى فى المدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بمدة بسيطة جاء الرسول ﷺ يطلب منه بضاعة والرسول ﷺ يومئذ سيد الجزيرة العربية، كانت جيوش الإسلام قد هزمت الرومان وخوفت الفرس وكسرت العسكرية اليهودية ومرغتها فى الوحل، وكسرت ظهر الوثنية عابدة الأصنام، وجعلتها تلقى السلم.



الرجل الأول الذى يملك كل هذه السطوة وكل هذه القوة يعطى مخالفيه فى الدين الحق فى كل شىء، فيشعر اليهودى فى المدينة المنورة، عاصمة هذه الدولة، بأنه آمن على نفسه، وعلى عرضه، وعلى ماله، وعلى أولاده، وعلى حرياته، وعلى كل شىء له، وأنه يجد من نفسه الجرأة ليقول لمحمد: لا أعطيك حتى تأتى برهن. فيعطيه ﷺ درعه رهنًا.

إنما كان هذا ليعلِّم الناس طبيعة الأمة الإسلامية، وأن الإسلام يرعى القلة بشرط ألا تجحد الصنيع، ألا تبيت الشر، ألا تكون عميلة لأعداء الإسلام، وقنطرة لانتقال العدوان إليه.

إن الإسلام دين شرف يحب الشرف، ودين حر يمنح الحرية، وقد دلل الأقليات فى أرضه الواسعة حتى بطرت معيشتها.

إذن لم تكن الحرب التى ضاع اليهود فيها حرب إكراه لليهود على دخول الإسلام، فإن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه، ولكن الحرب كانت لمنع الذئاب من أن تتخذ من أنيابها الحادة وسيلة لعض الآمنين، وترويع الذين يريدون أن يعيشوا هنا أو هناك بدينهم وضمائرهم وأفكارهم دون حرج.

لكن اليهود ظلوا على خلالهم السيئة، لقد استبقاهم الرسول ﷺ فى (خيبر) على جزء من زراعتها، وذهب إليهم الجابى كى يأخذ حق المسلمين من الأرض، فإذا هم يحاولون رشوته، ويريدون أن يشتروا ذمته، وينظر الرجل المسلم إليهم، ويقول لهم: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى، وما ذاك يحملنى أن أحيف عليكم. فلما رأى اليهود أمانة الرجل قالوا له: هذا هو العدل به قامت السماوات والأرض.

إذا كان العدل به قامت السماوات والأرض فلم لا تعدلون؟

فاضطر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد محاولات مختلفة من هذا النوع أن يجلى اليهود من جزيرة العرب نهائيًا، وكان ذلك، وعاش اليهود بعدئذ قلة فى العالم الإسلامى، ما أساء إليهم أحد، لكنهم هم الذين أساءوا إلى ثقافتنا وإلى مجتمعنا وإلى أحوالنا.

وليس الملوم أولئك اليهود، إنما الملوم مَن ظَنَّ السماحة تعنى الفوضى، ومن ظن الحرية للأديان تعنى أن يعرض الإسلام ـ مانح هذه الحريات ـ لشتى المؤامرات الخسيسة.



بـــأى أرض نمــوت ؟!

المسلم عبد للإله الواحد، الذى خلقه ورزقه، وجعل له الأرض فراشًا والسماء بناءً، ورسم له غايته من محياه، وعقباه بعد مماته، ثم قال له ولإخوانه المؤمنين: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾. وليست بقعة فى الأرض أحق من أخرى برسالة المسلم؟ ولن يكون المسلم عبدًا فى مكان ما فى هذه الدنيا يعلق بترابه ويرتبط بأسبابه، إنما هو ابن رسالته الكبرى، وهذه الرسالة الكبرى تربط فؤاده بالناس ورب الناس، وتوسع أفقه حتى يتسع للعالمين ورب العالمين، إنه يحب وطنه الذى ولد فيه، واستمتع بخيره وعاش قطعة من تاريخه، وهو يؤدى حقوق هذا الوطن ويستشعرها أكثر مما يستشعرها غلاة المتعصبين للنزعات القومية المحدودة. لكنه ـ مع ذلك ـ يخدم حقيقة أكبر من أقطار الأرض وآفاق السماء، لأنه يصل قلبه ولبه برب الأرض والسماء، ومن ثم انداحت الدائرة التى يعمل فيها، وذابت الحدود التى تحصرها، وقد عرف سلفنا الأولون هذه الحقيقة وبنوا عليها سلوكهم الاجتماعى والسياسى، فكان علم «الجغرافيا» يسمى فى مصطلحهم علم «تقويم البلدان»، كأن الغاية من دراسته هى الغاية التى تقصدها من مطالعة «دليل» تشتريه من محطة السكة الحديد لمعرفة المحطات المختلفة، ومواعيد وقوف القطار بها، وكان المسافر ينزع من المغرب ليصل إلى الصين فلا يحمل معه «جواز سفر» ولا يلقى أمامه «حرس حدود»، وكان نصف الدنيا مفتوحًا له ينتقل فى مشارقه ومغاربه كيف شاء، وكانت نظرته للعالم تجرئه على التسرى فى مجاهيله والتغلل فى أعماقه فإذا اطمأن به المقام فى ناحية حط بها رحاله وفى نفسه قول الشاعر:

وكـلُّ امـرئ يُـولِـى الجمـيـلَ مُـحـبَّـبٌ
وكـلُّ مـكـانٍ يُـنـبِـتُ الـعِـزَّ طـيِّـبُ

ولاشك أن هذه الحياة المتحركة كانت استجابة لتعاليم الإسلام وفهمًا لسنة رسوله الكريم. روى عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: «**مات رجل بالمدينة، وكان قد ولد بها، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: يا ليته مات بغير مولده، قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال ﷺ: إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده إلى منقطع أثره فى الجنة**». فانظر إلى هذا التحريض على الهجرة والضرب فى الأرض، من الذى استجاب له واستمسك به؟ أنحن الذين صنعنا ذلك؟ كلا إن طلاب الحياة وصناع المجد، هم الذين طوفوا فى البلاد، وتركوا طابعهم عليها، أما القاعدون خلف أسوار بلادهم فقد استكانوا للدعة والخمول، ومرت عليهم القرون متهالكة مريضة، ثم استيقظوا فجأة فإذا هم أسارى فى أيدى الأقوياء، الذين تركوا بلادهم إلى بلادنا مستعمرين ينشدون الثروة والجاه. نظرت لبنى وطنى فى هذه الأيام، فهززت رأسى أسفًا: ما دهاهم حتى قبعوا فى أماكنهم لا يفكرون فى هجرة ولا رحلة؟ بل يحسبون الانتقال من بلد إلى بلد غربة يستحب البكاء معها، وتجاوز الأمر إلى أن المواطن أصبح يحب أن يبقى مواطنه إلى جواره حيًّا، فإذا مات أحب أن ينقل رفاته إلى جانبه، لأنه يعز بعاده ولو صار من الهالكين، إن وحشتكم لرحيل المجاهدين وحسرتكم لوفاتهم وتلهفكم على استرجاع ما بقى من عظامهم إن دل على شىء فعلى قصور الهمة وهوان التفكير، وإن إبداء هذه المشاعر الضعيفة عمل شنيع يكشف عن قلوب هواء، وإيمان هباء، وإنه لمن الموجع أن أقول: إن هذا الجزع لم تنفعل به قلوب الكافرين وإن هذا لطلب لم يجر له على ألسنتهم ذكر قط. فى الطريق إلى مشارف غزة مقبرة تضم جثث الجنود الإنجليز الذين قتلوا فى الحرب العالمية الأولى، عندما اشتبك الغزاة الصليبيون بالجيش التركى المدافع عن مواقعه فى فلسطين، رأيت المقبرة تحتل مساحة فسيحة من الأرض، وترتفع فوقها الصلبان، ويلفها سور من الأشجار النامية ويتعهدها حارس وظفته الحكومة الإنجليزية وقتها للعناية بأبنائها الذين ذهبوا فداء الإمبراطورية الضخمة. وما لنا نذهب إلى غزة؟ إن مقابر الجنود الإنجليز بشواهدها ودلائلها لاتزال فى أماكنها العتيدة من أرضنا فى التل الكبير وفى القاهرة وفى الخرطوم، ما ذكرت أم ولا طالَبَ أبٌ بمفاتحة الحكومة الإنجليزية فى لندن أن تجمع عظام الغرباء المبعثرة فى شتى البلاد لكى يحج إلى مزارها القريب أب محزون أو أم ثكلى، تعلموا منطق الإيمان فى مجابهة الشدائد وأعدوا أنفسكم لدنيا لا تهدأ ميادينها ولا تنقطع مغارمها وربوا الأجيال الجديدة على روعة الفداء.

رســـول الرحمــة

كان الرسول الكريم محمد ﷺ معين لا ينضب من الرحمة المطبوعة والبر العميق بالناس، هو الذى جعل الرسول موطأ الأكناف لصنوف من الأتباع تتباين أمزجتهم وخلائقهم، وتتفاوت طباعهم ومسالكهم، فهو يهش لحاضرهم، ويتفقد غائبهم ويفرح لسرورهم، ويبكى لأحزانهم، ويعيش مع كل امرئ منهم، وكأنه له صديق العمر، وهذه الدعامة المكينة لابد منها فى بناء كل عظمة إنسانية صحيحة.

ولذلك يقول الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾.. وعنصر الرحمة الغالبة لا يعنى أن صاحب الرسالة لا يغضب ويقاتل.. كلا، فإن أحوال الدنيا وأغلاط الناس توجب على الإنسان أن يقف أحيانًا مواقف لابد منها لحماية مثله وفضائله:

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تَكُنْ له
بوادرُ تحمى صَفْوَه أنْ يُكَدَّرا

والرحيم حين يقسو كالمحب حين يغضب، فغيرته على عاطفته وتوجسه ممن يريدون مصادرته ومصادرتها ذاك هو الذى يجعله يتوجس ويهتاج، وفارق كبير بين هذه النفوس الخيرة، وبين ذوى الطبائع الشرسة الحقودة التى تسعى وراء الشر، وتتوق إلى حوك المكايد، وتأجيج العداوات، وترى لذاذتها فى الدم المسفوح، والعبرات المراقة، والوجوه الساهمة.

وكم فى الدنيا من مساعر حروب، ومشاعل فتنة، ولكن رسل الله أجمعين وحوارييهم الأمناء، أبعد الناس عن هذه الميادين الخسيسة، إنهم إذا أبغضوا لله ولدينهم فهم يكرهون الجريمة فى المجرم، والكفر فى الكافر، وما يقاتلون هذا وذاك إلا باعتبارهم ممثلين للجريمة والكفر، فليست كراهة شخصية.

وهذا هو الفارق بين الحرب التى يوقدها المسلمون لله وبين الحرب التى يشنها غيرهم جهالة وعمى، لا لشىء إلا لأنهم: ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

والشدة على الكفر مصدرها حينئذ الغيرة على الإيمان والسعى لصيانته من العابثين والملحدين، ولذلك وصف الله النبى وصحابته بالوصفين معًا فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.. وقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾..

فعلى المدافعين عن الإسلام فى هذا العصر أن يشيدوا أخلاقهم أول الأمر على الرحمة الشاملة.. فإذا ألجأتهم سيئات الناس إلى النفير فآخر الدواء الكى:

ولى فرسٌ للحِلم بالحِلم مُلْجَمٌ

ولى فرسٌ للجهل بالجهل مُسْرَجُ

فمَن شاء تقويمى فإنى مُقَوَّمٌ

ومَن شاء تَعويجى فإنى مُعَوَّجَ

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتم فاثبتوا**».

صدق الرسول الكريم ﷺ، رحمة فى موضعها ودفاع عن الحق والمثل والدين الحنيف إلى النهاية إذا دعا الداعى حتى يظهر الحق.

مـــــن أخـــلاق النبـــوة

من الناس من يظهر على صفحة الحياة، ثم يختفى كالرغوة التى تصنعها الأمواج فى عراكها الدائم مع الرياح ومنهم من يزود بقوى أكبر، ومواهب أبرز، فيمر بالدنيا ثم ينسلخ عنها وقد ترك آثارًا تدل عليه وتحمل طابعه، تبقى بعده حينًا، ثم تدركها طبيعة الفناء بعد أيام أو أعوام أو أجيال، فتتلاشى وتبيد.

تَـتَـخـلَّـفُ الآثـارُ عـن أصـحـابِـهـا

حـيـنًـا ويُـدركـهـا الـفَـنَـاءُ فَـتَـتْـبَـعُ

وهناك طائفة أخرى من الناس طرقت أبواب الوجود، وانسابت مع تيار الحياة المتجدد، ولا حقت موكب الزمن المنطلق فبقيت على حين فنى غيرها.

ومازالت بعد قرون متطاولة على موتها المادى تعيش بيننا، توجه الأحياء إلى الخير، وترسم للحائرين المنهج، وكأن فكرها الثاقب، وقلبها الخافق، وصوتها الجهير، لم يعد عليه البلى، وتطوه جنادل القبور.

أحق الناس بالذكر من هؤلاء رسل الله الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، وأحق أولئك جميعًا بأن تدرس حياته وتترسم خطاه وتتعلم عنه وتتبع هداه، صاحب المجد وجماع عرى المجد محمد ابن عبدالله ﷺ.

إن هذا الاسم الكريم «محمدًا» لم يصبح علمًا على شخص ولد فى سنة معينة ودرج فى بلد معين، بل أصبح حقيقة من حقائق الخير السارية فى الأزمنة على تواليها، والأمكنة على تغايرها فما يختص به عصر دون عصر، وما تنفرد به عاصمة دون عاصمة. لقد أصبح عنوانًا على المثل التى تصنعها الخيالات، ويستهدفها كل سائر إلى الكمال.

ولئن كان علماء الأخلاق يرون «المثل الأعلى» الذى يجرى الإنسان نحوه وهو يبتغى العلو.. وهمًا، فنحن ندعو صانعى الأوهام لأنفسهم أن يرمقوا سيرة هذا الإنسان محمد بن عبدالله ﷺ ليروا كيف تجمعت المثل العليا للشجاعة، والكرم، والبر، والأخلاق، والصبر، والكفاح..

كيف تجمعت هذه المثل فى مثال واحد، نفخ الله فيه من روحه، فجعله بشرًا سويًا، ورسولاً نبيًا؟!

ويوم تتعلق العيون بهذا المثل، وتحاول التأسى به، والنسج على منواله فإنا موقنون بأن العالم يكون قد اكتشف فى عالم الأخلاق قوة أفعل وأزكى أثرًا من قوة الكهرباء فى عالم الطبيعة.

وعندى أن العنصر الأصيل فى عظمة محمد ﷺ هو الرحمة، الرحمة التى تجعل الإنسان يرق للناس أجمعين، بل يرق لكل ذى كبد رطبة، والتى تجعله يتصل بالحياة وفى نفسه عواطف غامرة من الشوق والرغبة والسلام.

فهو لين الجانب لمن حوله، سليم الصدر لمن خاصمه، يتمنى عودته وأوبته أكثر مما يرجو تأنيبه وعقوبته، وقد مضت سنة العظمة خلال الكرام على هذا النسق السمح، وقديمًا قال عنترة:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَنْ تعلو به الرُّتَبُ
ولا يَنَالُ العلا مَنْ طبعُه الغضبُ

وقد كان محمد رسول الله ﷺ جياش الفؤاد بهذه الرحمة السامية النبيلة، فكان إذا عرض الهداية على رجل فرفضها، ثم تجهم لصاحبها وأدبر معرضًا عنها، كان النبى الكريم ﷺ ينظر إلى هذا الشقى الفارِّ عن الخير، نظرة الوالد الرفيق إلى ابنه العاق، الذى آثر العوج على الاستقامة، أى أن أساه لغباوة ابنه أكثر من غضبه لصدوده عن الحق.

وقد طالت أحزان الرسول ﷺ لجهالات الناس حتى خشى منها على نفسه وعلى رقة فؤاده، وإرهاف حسه فقال الله له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

ومع أن القرآن تهدد هؤلاء الأجلاف العاقين لأبر الناس بهم: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾. لكن هذا التهديد لما أوشك أن يتحول إلى لعنة ماحقة بعدما آذى المشركون نبيهم، واستباحوا دمه، وقتلوا أصحابه فى غزوة

أحد، وعرض على النبى ﷺ أن ينتقم منهم، قال: «**اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون**».

وقد أشاد القرآن بهذا الخلق العظيم فى شمائل صاحب الرسالة، فأبان للناس كيف أن عنتهم يعز عليه، وكيف أنه متشبث بهم، حريص عليهم، بالمؤمنين رءوف رحيم.

لغـــة القــرآن

يقول دريد بن الصمة فى رثائه لمن مات من أحبائه:

فــوالــلــه لا أنســى قــتــيــلاً رُزئــتــه

بــجــانب قــوسـى مــا مشيت علــى الأرض

ثم تراجع الرجل واعترف بأن الحياة ليست كذلك، فقال معتذرًا:

عــلــى أنــهــا تشــفــى الــكــلــوم وإنما

تــوكــل بــالأدنــى، وإن جــل مــا يمضــى

وقد ترد كلمة «ذو» بمعنى الذى، وهى لغة طيئ، وفى ذلك يقول الشاعر متحدثًا عن عفته، إذ ألجأته الظروف فكان ضيفًا على بعض الناس:

ولستُ بــهــاجٍ فــى الــقــرى أهــلَ مــنــزلٍ

عــلــى زادِهــم أبــكِــى، وأُبــكــى الــبــوَاكــيَــا

فــإمَّــا كِــرامٌ مــوسِــرُون أتــيــتُــهــم

فــحَــسْــبِــىَ مِــن «ذو» عــنــدِهــم مــا كَــفَــانــيَــا

وإمــا كِــرامٌ مُــعسِــرُون عــذَرتُــهــم

وإمــا لــئــامٌ فــادّكَــرتُ حَــيَــائِــيَــا

ومن أدلة العطف على اسم بالرفع قبل تمام الخبر، قول الشاعر عن نفسه وحصانه، واسم الحصان قيار:

فــمَــن يَــكُ أمسَــى بــالمديــنــةِ رَحْــلُــه

فــإنِّــى و«قــيــارٌ» بــهــا لَــغَــرِيبُ

وبعض الجهلة يحسب ذلك خطأ، ويتهجم على القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إن هذا ميدان لو مضيت فيه لم أنته منه، وإنما أبحث لنفسى وارتضيت للقارئ ما فعلت، لأنى أريد شرح الطريقة التى تعلمنا بها العربية من ستين سنة.

كل قاعدة يرى المؤلف نفسه مطالبًا بالاستدلال عليها من التراث الأدبى فى اللغة.

والسؤال: هل سيظل الاستدلال على القواعد مطلوبًا إلى قيام الساعة؟!

إن اللغة تدرس كى نحسن الكلام فى الحاضر والمستقبل، ويبدو أن أساتذتنا لم يلتفتوا لذلك كما ينبغى.. وخلت دروس النحو والصرف والبلاغة إجمالاً من التطبيقات والأمثلة التى لابد من أن تكون كثيرة وفيرة، فكان ذلك طعنة نافذة إلى اللغة وتداولها.

ثم جاءت مدرسة الجارم ومَن بعده، فعالجت هذا الموضوع علاجًا جيدًا، وكان لها جهد مقدور فى ترقية الأداء العربى وتقويته.. ولكن هذه المدرسة اضمحلت مع ضغط الاستعمار الثقافى، وانتصار التفاهات فى شتى الساحات.

لقد لاحظت أن قاعدتى النحت والاشتقاق تكادان تكونان معطلتين فى مواجهة الحضارة الحديثة الزاحفة علينا ماديًا وأدبيًا، كما لاحظت أن هناك خلطًا قبيحًا بين تعليم اللغة العربية للعرب وللأعاجم مسلمين أو غير مسلمين.

وهناك فوضى فى تعليم جموع التكسير وضبط المصادر القياسية والسماعية واشتقاق الأفعال بين المضارع والماضى.

إن عناية الإنجليز باللغة بضبط لغتهم ونشرها أمر معروف، وما فى لغتهم إلا ما يكسب المهارة فى بعض العلوم الحديثة، ولا أدرى ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن، ويبصرون الدنيا بمعالم الوحى الأعلى؟ إن تعلم العربية فريضة على أمة رسالتها عالمية، وتفريطها فى ذلك خيانة فاضحة، ويوجد فى هذه الأيام المهزولة المهتزة قادة للعرب إذا تكلموا كانوا أطفالاً لا رجالاً، وكانوا نماذج للهزل لا للجد.

إننا نقترف خيانة فاجرة عندما نترك العربية تموت بين أيدينا، وعندما نعد تعلمها حرفة لبعض الشيوخ المغموضين.. هذا كفر أو دونه الكفر.

الإســلام والعربيــة

تعلمت الإسلام والعربية فى الأزهر الشريف، قضيت شرخ الشباب فى مراحل الدراسة المختلفة، وعندما أخط هذه السطور أمزج بين العلم والأدب والمجتمع، وأضم أشتاتًا من الذكريات التى استنبطنا فيها القواعد من الشواهد.

نعم إن الأسلوب الذى تعلمنا به اللغة العربية يقوم على شرح القاعدة وسوق الدليل عليها من الكتاب أو السنة أو التراث الجاهلى والمخضرم وأوائل التاريخ الإسلامى.

وأشعر صادقًا بأن الشواهد التى قابلناها، أو الأدلة التى عايناها كانت زادًا فكريًّا وعاطفيًّا عامرًا بأنواع العواطف والأمزجة وصور الحس والأداء العالى.

وأريد من القارئ أن يسترجع معى جملة من الأمثلة ليس بينها رابط، وأن يعيش فى جوها كما عشنا، وأن يستفيد منها معلومات نحوية لا بأس بها ولا تخضع فى سياقها لترتيب معين، يقول الشاعر:

وفـتـيـانِ صـدقٍ لستُ مُـطْـلِـعَ بـعضِـهِـمْ

عـلـى سـرِّ بـعضٍ غيرَ أنِّـى جِـمـاعُـهـا

ويقول آخر:

ولـيـلٍ كـمـوجِ الـبـحـرِ أرخَـى سُدُولَـه

عـلـىَّ بـأنـواعِ الـهـمـومِ لِـيَـبْـتـلِـى

البيت الأول يصف أمانة الكلمة واحترام الأسرار، والبيت الثانى يصف ليل المهموم، وحرف الواو فى أولهما يسمى «واو رب» يجر الاسم بعده وجوبًا، ويعرب جملة اسمية، مع خبر المبتدأ.

ويقول الشاعر:

لا يَـبْـعَـدَنْ قـومـى الـذيـن هُـمُ

سـمُّ الـعـداةِ وآفـةُ الجُزْرِ

الـنَّـازِلـين بِـكُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ

والـطَّـيِّـبُـونَ مَـعَـاقِـدَ الأُزْرِ

يصف الرجل قومه بالشجاعة التى تخيف منهم عدوهم، وبالكرم الذى يستهلك الأموال، وبالجراءة التى تقحمهم فى كل معركة، وبالعفاف الذى يعصمهم من ارتكاب الفواحش.

والشاهد هنا فى «النازلين» التى نصبت على الاختصاص ثم عطف عليها نعت مرفوع.. وهذا مأنوس فى الأداء العربى، وإن جهله الجاهلون وحسبوا فى الكلام لحنًا.

وتقول عاتكة بنت زيد لما مات زوجها عبدالله بن أبى بكر.. وقد أصيب بسهم قاتل فى حصار الطائف:

آلَيْتُ لا تَنفكُّ عَيْنِى حزينةً
عليك ولا ينفكُّ جِلْدِىَ أَغْبَرا
فلله عينا مَن رأى مثلَه فتًى
أكرَّ وأحمى فى الهياجِ وأَصْبَرا
إذا أشرعتْ فيه الأسنةُ خاضَها
إلى الموتِ، حتى يتركَ الموتَ أحمرا

وعاتكة تبلغ القمة فى وصف زوجها الراحل وشجاعته وجلادته، يقول عنها شارح الحماسة: كانت صحابية شاعرة فصيحة لها جمال وكمال، وتمام فى عقلها ومنظرها وجزالة فى رأيها، تزوجت بعبدالله بن أبى بكر الصديق، فلما مات عنها كما حكينا، تزوجها عمر بن الخطاب، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام، فلما قتل بوادى السباع تزوجها الحسين بن على فلما قتل بكربلاء كانت أول من رفع خده عن التراب ثم تأيمت بعده.

ومن الطرائف أن عبدالله بن عمر كان يقول ـ فى شأنها: من أراد الشهادة فى سبيل الله فليتزوج عاتكة.

وأحسب أن هذه السيدة لو كانت فى عصرنا لتشاءم منها الناس.. إن الأولين كانوا على فطرة سليمة، وتجاوب شريف مع الطبيعة البشرية، أما نحن فتقوم تقاليدنا على المراءاة والاستهانة بالمرأة والرغبة فى تنقصها.

فقـــراء إلـــى الأخـــلاق

إن الخلاف الفقهى فى ديننا - إذا استوفى شرائطه العلمية والخلقية - لا يسمى معصية أبدًا، بل كل مجتهد مأجور بإجماع الأمة.

والذين يتذرعون بالخلاف فى الفروع للغمز واللمز، والتمزيق والتفريق جديرون بالتأديب.

ولا أصدق أن رجلاً مؤمنًا استجمع الأخلاق الربانية يسف إلى هذا المستوى.

ونتحدث الآن عن الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف... إلخ وإنما سميتها كذلك لأنها عامة تشمل المسلمين وغيرهم.

وأضداد هذه الأخلاق هى أركان النفاق، قال رسول الله ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

والغريب أن الفجور فى الخصومة، والعبث بالعقود والعهود، والاستهانة بالكلمة، والإضاعة للأمانات، كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين، وإن المسلمين لا يلتزمون بما ورثوا من دين فى ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم الله.

على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرون فى معاملاتهم ومسالكهم مكارم الأخلاق، ويترفعون عن الفوضى والإسفاف والتسيب.

وقد قلت: إننى نظرت فى تراث العظماء، فلم أجد أغنى ولا أزكى ولا أوسع ولا أرفع مما تركه محمد ﷺ فى ميدان الأخلاق، فما الذى باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها؟

إن الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر المتماسكة المتكاملة، تلتقى فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية.

ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة ولا سماع درس، إنه صناعة شاقة، وتجارب متكررة، وتكلف مستمر ينتهى بأن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة.

وقد لاحظت أن جهودًا شيطانية بذلت ليكون الإيمان عقيمًا بالتأويل والتعطيل المتعمدين.

فقد يكون الإيمان عند البعض كلمة فقط لا عمل معها، وقد يكون العمل نافلة يزدان بها وقد يستغنى عنها، وصور العبادات تؤلف أسفار فى ضبطها، أما جوهرها الباطن فقلما يكترث به.

وقد نشأت عن ذلك مفارقات رجحت كفة المجتمعات الكافرة، وهوت بكفة المجتمعات المؤمنة، فقول الزور فى ديننا يعادل الشرك: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾.

وقول الزور كبيرة فى قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين، ولكننا فى العالم العربى مثلاً نصنع انتخابات مزورة بجهاز يشترك فيه عشرات الألوف من الناس، وتتواصى الأطراف المعنية بقبول نتائجه وتسكت الجماهير الغفيرة مغضبة أو عاجزة، وهذا الوضع لا تعرفه أمم علمانية، تحتقر الزور وتحترم الحق، وتنظر إلى الكلمة المنطوقة على أنها رباط خطير، وكأنها هى التى نفذت قول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾. إننا فقراء إلى الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية على سواء.

وقد أدرت ظهرى لمتدينين قصروا ثيابهم وتمنوا الموت الزؤام لمن يخالفهم فى أن لحم الجزور ينقض الوضوء، وأن شهادة المرأة لا تقبل فى الحدود والقصاص... إلخ.

من الأخلاق الربانية والإنسانية بنيت الأمة الإسلامية، والبناء باقٍ ما بقيت هذه الأخلاق، فإذا وهت تصدع الصرح كله، وتعرض للضياع.

إن العقائد هى التى تصنع المثل العليا والمثل العليا هى التى تهيمن على السلوك وتوجهه والعقائد طور للنفس الإنسانية ينقلها من الميوعة إلى الثبات والصلابة، والأخلاق هى القوالب التى تصاغ فيها حركات المرء وسكناته ويستحيل أن يتوفر الاحترام لأمة لم تستقر عقائدها وأخلاقها.

عناصر التربية

إن التربية ليست وضع البذور فى أرض على رجا مطر يجىء أو لا يجىء ولا جهد وراء ذلك، كلا، إنها بذر وسقى وتعهد ومطاردة للحشرات والأوبئة، ومتابعة دائبة حتى أوان النضج.

والمربون هم البيت ـ وأساسه المرأة ـ والمدرسة والمسجد، والشارع والدولة بما ملكته فى العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية.

والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة جعلت منهم الجيل الذى حول الحضارة الإنسانية من حال إلى حال.

وأشعر اليوم بشىء من الأسى واليأس لأننا لا نجمع من عناصر التربية ما يجعل أمتنا تنبت فى مغارسها وتجدى على رسالتها، ذاك فى وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن، ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع.

لا بأس أن أقسم الأخلاق إلى قسمين: أخلاق ربانية وأخلاق إنسانية، ولأرجئ الحديث الآن فى القسم الثانى، مع أن كليهما ضرورى لصدق الإيمان واكتماله.

المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. فمن نضب فؤاده من التفويض إلى الله فقد الأخلاق الربانية.

والمؤمن الناضج الاعتقاد يتبع هودًا وهو يقول لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾. فمن خلا قلبه من هذا التوكل فقدْ فَقَدَ دعامة من معالم الربانية، وانطلق فى الحياة محصورًا داخل نفسه.

والمؤمن الناضج الاعتقاد يقتنع بقول الله له: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فمن حسب أن أحدًا يكشف ضره بعيدًا عن الله، أو ذا سلطان يسوق إليه الخير بعيدًا عن الله، فقد تجرد من الأخلاق الربانية.

والمؤمن يكتفى بنظر الله إليه، ورقابتـه عليه، ويعى بعمق قول اللـه: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾. فمن رمق وجهًا آخر، وأمل الخير عنده فقد عرى عمله عن الإخلاص، وفقد الأخلاق الربانية.

وعلماء القلوب شحنوا كتبهم بهذه المعانى، لأنهم موقنون بأن معاصى القلوب أخطر من معاصى الجوارح، فهذه المعاصى القلبية سرطان يأتى على الإيمان من القواعد.

وقد لاحظت - وأستغفر ربى وأستعيذ به - أن عددًا من قادة الثقافة ورجال السياسة مبتلون بهذا السرطان، وأن عبادة الذات والتقوقع فى مطامعها يسيطران عليهم.

ويشاركهم هذا البلاء أذناب يطنون حول مآربهم ومجالسهم طنين الذباب.

أمراض القلوب لا الخلاف الفقهى أخطر شىء على الدنيا والدين.

ما الخلاف الفقهى؟ إنه كالخلاف بين المحافظين والعمال فى إنجلترا أو كالخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين فى أمريكا، هؤلاء الناس متفقون على الأصول الرئيسية والأهداف العامة، وربما تفاوتت أنظارهم فى الترتيبات الداخلية لنظام البيت.

أما فى أمتنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلالى على هذا الخلاف، ويخرجون منه بنتائج مدمرة.

لنفرض أن رجلاً يتبع أبا حنيفة ولا يتبع ابن حزم أو بالعكس، ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوى؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو الصواب، إنه خلاف عقلى فى نطاق محدد، ومن السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحدة الأمة.

فلو تصورت أن مخالفًا لابن حزم - أيام سلطانه - وشى به إلى الصليبيين كى يبطشوا به، فأنا أعد الواشى مرتدًا، أو هو من سلالة أبى لؤلؤة أو ابن ملجم.

ومثله فى الزيغ من يفضلون أن تحكم أفغانستان الشيوعية ولا يحكمها أبو حنيفة أو من يسوون بين الشيوعيين والأحناف.

ويوجد متدينون فى عصرنا ينحدرون إلى هذا الدرك من الغباء أو الحقد، وقد آذوا الله ورسوله بهذا الفكر الوضيع وذاك سر حملتى عليهم وضيقى بهم.

طريـــق واضـــح

إن انتشار الفساد السياسى والاقتصادى وتكاثر جراثيمه وتنامى نتائجه واستشراء الترف الاجتماعى وانشغال علماء المسلمين بقضايا جزئية ومسائل جدلية ـ هذا البلاء تصاعد حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة، ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية فى الأندلس، والتى كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة.

صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة، واستطاعوا فى زحف باهر أن يخترقوا شرق أوربا حتى النمسا، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية، ولم يكونوا فجرًا ثقافيًا جديدًا، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم والبلاغ المبين؛ لكان لهم فى الأقطار المفتوحة شأن آخر.

إنهم رفضوا أن يتعربوا كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم، وأن يتركوا السلطان لغيرهم، فكان التوسع الإسلامى خاليًا من بذور الحضارة الأولى، ومن أسباب الحياة الصحيحة، فسرعان ما انهار، وانهار العالم الإسلامى بعده، وأصبح أثرًا بعد عين.

أما الأوربيون، فبعيدًا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية، ووضعوا «الماجناكارتا» بعد قتل الملك المستبد، حدث ذلك فى إنجلترا.

واشتعلت الثورة الفرنسية وكانت هى الأخرى كافرة بالدين،ووضعت لأصحابها نظامًا آخر، وكانت ثورة تتسم بالبطش وتسرف فى الفتك.

ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء،وألوان من الوحشية، وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها، ومصاب الإسلام فى الاتحاد السوفيتى، يحتاج إلى دراسات واسعة.

المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله، وإن كانت قد انتفعت ببعض الأفكار الإسلامية والإنسانية فى نهوضها.

بيد أن شيئًا مثيرًا قد حدث مع بدايات القرن الأخير، فإن الصليبية لعقت جراحها، وأخذت تقترب من المنتصر، تتودد إليه، وتعرض عونها عليه، وكذلك

فعلت الصهيونية، واصطلح الجميع على إحراج الرسالة الخاتمة، والاستيلاء على ميراثها الضخم، وقد بدا لكل عين أنه ميراث لا صاحب له أو بتعبير آخر لا حارس له، وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم.

واستيقظت نوازع الحياة فى الأمة المنكوبة، وشرع المدافعون فى ميادين العلم والتربية، والاقتصاد والعمران، يتنادون لإنقاذ الرسالة التى أحدق بها العدو من كل ناحية.

إن البلاء شديد، ولكن طريق الخلاص منه واضح ـ وبقدر ما نثوب إلى رشدنا ونستمسك بكتابنا ونقف على أساس من التربية الصالحة على نحو ما فعل سلفنا الأولون ـ تقوى الحصون ويتراجع العادون.

معاصى القلوب

التربية عمل يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، ومن الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضع سنين يعقبها استجمام واسترخاء، المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظًا طول الطريق، وإلا فقد يهلك فى ساعة إغفاء.

وقد ألفنا فى حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل، وأن نمنح الدارسين إجازات أو شهادات تدل على ما نالوا منه.. فهل التربية كذلك؟ لا، إن الأقساط التى ننالها من الاكتمال النفسى لم توضع لها سلالم واضحة ولم ترصد لها علامات، يبدو لأن علم ذلك عند الله وحده أولاً، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة، يقاس تحصيلنا فيها حينًا بعد حين.

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال، سائرًا إلى ربه بثبات، والسائر إلى الله يترضاه بفعل ما أمر وترك ما نهى، ولايزال سائرًا يطوى مراحل حياته حتى إذا قارب النهاية قيل فيه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لقد طابت نفسه طيب الثمر على أغصانه، ثم يجىء الحصاد فى إبانه، فإذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواح: الأولى شعوره بنفسه - أعنى عبادة الذات - فالشعور الإيجابى بالذات يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس، وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور، وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء، وهو مصدر الحقد والحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنة.

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها، لا يصلح لشىء ولا يصلح به شىء، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال الجوارح، وأن معاصى القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى.

ولـن يـنـجـو المرء مـن هـذا الـداء إلا إذا وثـق روابـطـه بـالـلـه، وصـفـى نـيـتـه معه،وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده، وجعل هضم النفس، واحتقار العاجلة أغلب على سيرته، وأوضح فى شتى معاملاته.

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافًا واسعًا. نعم، إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام، وهناك من يحب النساء، وهناك من يحب المال، وهناك من يحب الشهوة، وقد يضحى بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه.

والتربية الصحيحة تستبقى من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة، وتراقب بحذر ما فوق ذلك، وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة بهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب الجامع بين الدين والفلسفة والأدب، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها محمد عليه الصلاة والسلام.

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة، وهناك معالم سيرة إنسانية طهورة، تسبح فى فلك لا يسف أبدًا، قد يهوى النجم ولكن محمدًا يستحيل أن يهوى.

وطريق الاكتمال والتسامى هو التزام هذه الأسوة، والاستمداد الدائم منها، ويتطلب ذلك نوعًا من المعاناة والمجاهدة يعجز عنها إلا من عصم الله.

محاسبة نفسية

درسنا فلسفة اليونان، وآداب الفرس والهند والصين، ودرسنا سير الملوك الذين حكموا، والقادة الذين فتحوا، ووازنا بين تراث وتراث، وآثار وآثار، فما وجدنا بعد التمحيص والتدقيق إلا ما يُفْرد رسالة محمد بالصدق وقدره بالشرف.

أنا لست من المسحورين بقادتهم، ولا المفتونين بتراثهم، وفى عقلى نافذة مفتوحة أبدًا لتلقى الشبه والأسئلة والاعتراضات والوقوف قليلاً أو طويلاً بإزائها، ومع ذلك فعلى طول تلاوتى للقرآن لم أزدد إلا يقينًا، وعلى طول تفرسى فى سيرة نبيه لم أزدد إلا إعجابًا، وأحتقر من يثير الشكوك ليقال إنه ذكى، ومن يكتم إعجابه ليظهر بأنه مستقل لا تابع.

ومعاذ الله أن أفقد الإنصاف مع من يتحدثون عنى بانحراف، أو أستهين بالمواريث الأدبية والمادية التى جعلت أكثر البشر لا يعرفون الإسلام ولا يدينون به، وربما حقدوا على أهله وظنوا بهم الظنون.

سأبقى إلى الممات وفيًا لمواثيق الفطرة التى أخذها الله علىَّ، ومقتفيًا آثار النبيين الذين ربطوا حياتهم بواهب الحياة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

غير أنى أمقت الخداع والمن، وقد سمعت رجلاً من شيوخ إنجلترا أو أمريكا يقول لحكومته: لا يجوز أن نرسل أولادنا ليموتوا فى معركة الخليج لتحرير الكويت فى سبيل بعض دول النفط.

إن هذا القائل يعلم أن الجيوش التى جاءت من أوربا وأمريكا إنما جاءت لتحمى موارد النفط - الذى هو شريان الحياة الصناعية - وتستبقى ضخَّها لمصالح شتى، آخرها مصلحة الذين يتحدث عنهم هذا القائل، وفى الحياة يكثر أن يختلط النفع والضر، والإثم والبر، وعلى أولى الألباب أن يتريثوا طويلاً فى معالجتهم لبعض المشكلات.

إن للنفط العربى قصة تبعث على الأسى والسخط، فإن مناجم هذا المعدن

كثرت فى بلادنا، بيد أننا كنا مشغولين عنها بشئون أخرى جعلتنا نسرح بقطعان الضأن والمعز فوق هذه المناجم،دون فكر فى استثارتها أو ارتفاقها.

إن الذى كشف هذه المعادن هم الخواجات، أما نحن فكنا نتنازع: هل حديث التوسل صحيح أم ضعيف؟ هل كرامات الأولياء حق أم وهم، هل الحكم لبنى هاشم أم لأسر أخرى؟

إن أهل القرآن خانوه خيانة فاجرة، واتخذوه مهجورًا، فى الوقت الذى أنسوا فيه بباطل من القول، وسخف من الجدل وغرقوا فى غيبوبة عجيبة من المباحث التى ما عرفها السلف الأول، ولو عرفها ما أفلح أبدًا، ولا افتتح قطرًا، ولا أنشأ حضارة.

وعندما قام الأوربيون بتصنيع النفط وتلوين مشتقاته، ثم صنعوا الناقلات العملاقة فحملته إلى أرضهم، أعطونا ثمن السلعة التى ابتدعوها، فماذا صنعنا بهذا الثمن؟

ذهب أقله فى خيرنا، وذهب أكثره فى ضرنا.

ولن أتحدث عن مخزاة السرف فى مواطن الشهوات، ولا المجازفات المجنونة بمال الله فى إرضاء الشيطان، ولا الأرصدة التى تعمر بنوك أوربا وأمريكا، وتجمدها كلما حلا لها، ولا.. ولا.. فالحديث مهين لأمتنا كلها.

إنما السؤال عن سر هذه المحنة من الجذور؟ ما الذى جرنا إلى هذا القاع السحيق؟ فجعلنا نأخذ ولا نعطى؟ وجعلنا نتحرك فى موضعنا أو إلى الخلف؟ وجعل بيننا وبين كتابنا بعد المشرقين؟

إن هذه الكلمات «محاسبة نفسية» لمواقفنا فى الحاضر والماضى، ولن يصلح لنا مستقبل إلا إذا دققنا فى هذا الحساب، ووضعنا أيدينا على أسباب العوج.

وكل محاولة لاقتحام المستقبل بفكر عصور الانحطاط لن تزيدنا إلا خبالاً.

زوايا متواضعة

كنت أقرأ أسماء الأسلحة الحديثة فأشعر بهول ما بلغه القوم من قوة، هذه صواريخ جو جو، وجو أرض، وأرض جو، وأرض أرض، وهذه طائرات قاذفة وتلك مقاتلة، وهذه سمتية، وهذه مزودة بمدافع للهجوم، وهذه تفلت من شبكة الرادار، أما المقذوفات من شتى الأسلحة ففنون وجنون، هذه فخاخ ألغام، وهذه.. إلخ، قلت: ما أكثر ما أعد هؤلاء لنصرة معتقداتهم وقيمهم، فهل أعد المسلمون شيئًا من هذا فى بلادهم بتفوقهم الصناعى ومهاراتهم الخاصة؟ كلا اللهم إلا ما نشتريه منهم فيبيعون لنا ما يستغنون عنه، ثم يمدوننا بذخائره بين الحين والحين، ما أعرف فشلاً فى نصرة الدين والشرف، والأرض والعرض أقبح من هذا الفشل، بم شغلنا عن مثل هذا الإنتاج؟ بالجدل المحموم فى غيبيات نهينا عن التقعر فيها، بتجسيم الخلاف الفقهى - وإيقاد الشرر منه، مع علمنا القاطع بأن وجهات النظر كلها مأجورة من الله سبحانه ولا لوم على مخطئ إن عُرِف خطؤه - بالانصراف عن شئون الدنيا مع نسيان حقيقى لخالق الدنيا والآخرة، إنه انصراف بلادة وغباء، وليس تجردًا لتقوى، ولا ترفعًا عن شهوة، هل يشعر المسلمون بأن لهم رسالة كبرى تزحم البر والبحر وتشغل الإنس والجن؟ ما أخالهم يشعرون، إنهم يعيشون فى زوايا متواضعة متقاصرة من الأرض، ينظرون إلى التقدم الحضارى بعيون ناعسة، وينظر العالم كله إليهم نظرة استهانة، ربما أعطاهم شيئًا من العود المادى الذى يسألون، وربما تصدق عليهم بشيء من العون الأدبى الذى إليه يرنون، إننى أجزم بأن فلسفة الكون فى القرآن الكريم بعيدة جدًا عن أفهام قرائه، وأن جمهرة المسلمين لا تسمع من هدير الآيات شيئًا طائلاً، فهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

قرأت قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ثم قلت: إن ضمير الجمع للمخاطب تكرر خمس مرات فى هذه الكلمات، كأن الله يقول للسامعين: هذا كله لكم، لكم أنتم،

لكم وحدكم، ومن السامعون؟ أبناء آدم جميعًا، أهل الأرض كلهم، كما قال فى موضع آخر ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقـال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، ومع هذا كله فقد سألت نفسى: هل العرب والمسلمون من بين جمهور المخاطبين، هل الكلام يتناولهم مع سائر الناس؟ أم هم مستثنون من الناس؟ إنهم غرباء بين الأرض والسماء، حتى الفلاحة وهى حرفة بدائية أجادها غيرهم، وأكثر ثمارها، وهم يحرزون أرغفتهم بشق الأنفس، وقد صور غيرهم الخيرات فى باطن الأرض وشرع يستخرج السائل والجامد من معادنها، ونحن ننظر دهشين، وبعض شطارنا يفتى بأن التصوير حرام. وسالت فوق ثبج البحار بوارج ومدمرات، وشقت أعماقها غواصات تحمل الردى، وناقلات نفط عملاقة وغير عملاقة، ما صنع شيء من هذا كله فى موانينا الجميلة، إننا نرمقها معجبين بعد أن يتم غيرنا صنعها، تساءلت: أين نحن من دنيا الناس؟ وتساءلت مرة أخرى: أين نحن من ديننا؟ وهل ننصفه أو نشرفه بهذا التخلف السحيق؟ بل هل نستطيع حمايته يوم تسكر القوة أصحابها، وما أكثر سكراتها، فيتحركون للنيل منا والإجهاز على بقيتنا؟ إن المسلمين أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة وقد تهز بعضهم غرائز الدنيا فيصيح ويسعى، لكنه لا يفعل شيئًا ولا يبلغ هدفًا؛ لأنه ما استفاد من النعمة التى يسرها الله له، أعنى أنه ما استفاد من الوحى الذى مهد له سبيل الكمال وعلمه كيف يؤدى حق الله، وكيف يحتفظ بحق نفسه.

هذا الكتاب لا غير تلقفه آباؤنا الأقدمون فصححوا به مسار الحياة، وأبدعوا حضارة أرقى وأزكى مما عرف السابقون، فما بالنا نقرؤه دون وعى ونخر على آياته صمًّا وعميانًا؟

تزكيـة النفـس الإنسـانية

هل حدة الذكاء وسعة العلم تغنيان عن طيب النفس وشرف الخلق؟ كلا، إننا نمقت الذكى الشرير ونوجل من معاملته ونعتقد أن النفس الصغيرة لا تزيدها المعرفة الكبيرة إلا قدرة على الأذى، وطاقة على الإساءة.

ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة، إذا لم يكن الدين كبحًا للهوى، وامتلاكًا للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه.

وقد أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هى الغاية من شتى التكاليف، والتزكية المنشودة هى التربية الصحيحة، هى تصفية المعدن الإنسانى من شوائبه وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح.

والناظر فى الحضارة الحديثة يراها ارتقت كثيرًا فى ميادين الكشوف الكونية، واستغلت المطابع فى نشر ألوف الألوف من الكتب والصحف، واستغلت الكهرباء فى إنشاء دور الإذاعة المختلفة، وفى تسخير الأقمار الصناعية لمزيد من الاطلاع والتعليم، فهل كان ذلك تقدمًا إنسانيًا حقًا؟

إن الأثرة الفردية والجماعية ضريت مع هذا التقدم وتفاحشت الشهوات والمظالم، وظهر الفساد فى البر والبحر، واتسعت دائرة الإلحاد والتدين الجاهل، مما يجعلنا نقرأ الآية الكريمة: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

إنه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح، عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾.

وأشكال العبادات لا تصنع ذلك التغيير الحاسم إذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد من نفسك، فلا صلاة لك، السجود الحقيقى ليس انطواء الجسم أمام الله

بل هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه، الخيط المعقد لا ينحل ويسترسل إلا بفك عقده عقدة عقدة، ولا تفيد فى ذلك تغطية ولا تحلية، النفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها إلا بعد ذهاب عللها، وعودة العافية إليها.

فإذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف، وإذا قبلها الله، وأعان الضارع فى ساحته فأصلح نفسه، وأقام عوجه فالعبادة صحيحة مقبولة وإلا فالوضع لم يتغير.

إننى أراقب نفسى وأراقب من حولى فأرى أن بيننا وبين الصلاح الحق بعدًا سببه أننا قد نعرف الدواء ولا نحسن التداوى ولا نصبر على مطالبه.

وهناك من يجهل أنه مريض، ويقاوم من يطلبون له الشفاء بل قد يزعم أنه هو الطبيب الخبير بكل شىء.

فلنعد مرارًا إلى فهم الآيات الكريمة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾.

لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق، ربما عاملنى شخص ما بلطف، ونظر إلىّ بوجه طليق، وهذا شىء أحمده له، لكن ما العمل إذا كان هذا الشخص لا يذكر لله عهدًا، ولا يشكر له نعمة، ولا يدين له بولاء؟

هل أعد هذا الشخص فاضلاً لأنه أحسن معاملتى فى حين أساء معاملة ربه؟

أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الإلهى وأسقطته من كل حساب لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها.

الإنسان الخير لا ينقسم على نفسه فيكون طيبًا هنا وخبيثًا هناك بل تسود خلاله صبغة واحدة ووجهة ثابتة.

نحن نعد أعداء المجتمع البشرى مجرمين؛ لأنهم يعتدون وينحرفون والقرآن الكريم يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد فى دينه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾. صدق الله العظيم.

أسـبـاب ونتـائـج

من أهم ما كتب الدكتور أحمد صبحى منصور: هذا الفصل النفسى فى النقد الذاتى للتاريخ الإسلامى، ننقله عنه مقدرين الفكر الذكى الذى أملاه، من بين عشرات السفاحين الذين أهلكوا الحرث والنسل يتمتع «هولاكو» بمكانة خاصة فى تاريخنا الإسلامى والعربى، فهو السفاح الذى أطاح بالدولة العباسية والذى قتل فى بغداد سنة ٦٥٦هـ ما يقرب من ٢ مليون نسمة، إنه سجل دموى يستحق عليه هولاكو - بلا شك - كراهيتنا واحتقارنا، ولكن المسئولية لا يتحملها هولاكو وحده! اللوم ينبغى أن يوجه أولاً إلى أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسى الذى حمل أمانة المسلمين ففرط فيها، والذى مازال بعضنا يذرف الدموع حزنًا عليه وعلى الخلافة العباسية التى تمثل حتى الآن حلمًا من أحلام اليقظة لدى بعض الناس فى عصرنا، وقد وصفه المؤرخ ابن طباطبا بقوله: «كان مستضعف الرأى ضعيف البطش، قليل الخبرة بالمملكة مطموعًا فيه، وكان زمانه ينقضى فى سماع الأغانى والتفرج على المساخر، وكان أصحابه مسئولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام». وقد يقال: إن المؤرخ ابن طباطبا كان شيعى المذهب يتحامل على الخليفة المستعصم المشهور بتعصبه لأهل السنة، إلا أن مؤرخًا سنيًا موثوقًا فيه مثل ابن كثير يتفق مع ابن طباطبا فى رأيه يقول عنه: «كان محبًا لجمع المال، ومن ذلك أنه استحل الوديعة التى استودعها إياه الناصر داود بن المعظم، وكانت قيمتها نحوًا من مائة ألف دينار، فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وأدى نهم الخليفة بالمال وحرصه عليه إلى أن عرض الخلافة للخطر حين هددها المغول، إذ إنه قطع عن الجنود أرزاقهم فى وقت هو أحوج ما يكون إليهم فيه، يقول ابن كثير إنه: «صرف الجيوش ومنع عنهم أرزاقهم حتى كانوا يتسولون على أبواب المساجد وفى الأسواق، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله». على أن شح الخليفة المستعصم بالأموال على الجند فى وقت حاجته لهم يقابله فى الناحية الأخرى إسرافه الشديد فى الإنفاق على خدمه وأتباعه من الظلمة الذين يأكلون أموال الناس، وكان أولئك الخدم من الجهال وأراذل العامة والمماليك الذين صعد بهم الزمن الردىء فى عصر انحلال الدولة العباسية فاحتكروا الثروة بينما عاش العلماء والأشراف يتضورون جوعًا،

ولنضرب أمثلة تاريخية على ما جرى فى أواخر الدولة العباسية حين أغدقت الأموال على الخدم فأصبحوا أعجوبة فى الثراء ومنهم:

١ ـ علاء الدين الطبرسى الظاهرى، كان دخله من أملاكه نحو ٣٠٠ ألف دينار، وكانت له دار لم يكن ببغداد مثلها وحين تزوج دفع صداقًا قدره ٢٠ ألف دينار.. ووهب له الخليفة المستنصر ليلة زفافه ١٠٠ ألف دينار، وألحقه بأكابر الدولة ومنحه ضيعة كانت تدر له دخلاً يزيد على ٢٠٠ ألف دينار سنويًا.

٢ ـ مجاهد الدويدار، قيل عن أملاكه: إنها كانت «مما يتعذر ضبطه على الحساب» وفى ليلة زفافه حصل على هدايا من الجواهر والذهب ما يزيد على ٣٠٠ ألف دينار، وفى صباح زواجه أنعم عليه الخليفة المستعصم بـ٣٠٠ ألف دينار، وكان إيراده السنوى من مزارعه وأملاكه أكثر من ٥٠٠ ألف دينار.

٣ ـ عبدالغنى بن فاخر، شيخ الفراشين فى قصر الخلافة كانت داره تشمل عدة حجرات وفى كل حجرة جارية وخادمة وخادم، ثم رتب لكل جارية عملاً، فواحدة لطعامه وأخرى لشرابه، وأخرى لفراشه، وأخرى غسالة، وأخرى طباخة.

وفى المقابل كان أعظم العلماء وقتها لا يتقاضى أحدهم أكثر من ١٢ دينارًا شهريًا فحسب!! وذلك هو المرتب الذى كان يأخذه علماء المدرسة المستنصرية! وابن القوطى وابن الساعى أشهر مؤرخى ذلك العصر كان كلاهما يأخذ راتبًا شهريًا قدره عشرة دنانير، فأين أولئك من شيخ الفراشين فى قصر الخليفة؟! وفى ذلك الوضع المقلوب لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأى إمبراطورية على وشك السقوط بغض النظر عن اللافتة التى ترفعها، سواء كانت إمبراطورية فارسية أو بيزنطية أو رومانية أو عباسية، لابد أن تتفشى الرشوة وتكثر مصادرة الأموال وتتفاقم الاضطرابات الداخلية مع الانحلال الخلقى والانشغال بالتوافه عن الخطر الذى يدق الأبواب، يقول الغسانى صاحب كتاب «العسجد المسبوك» يصف السلطة العباسية فى أواخر أيامها: «واهتموا بالإقطاعات والمكاسب وأهملوا النظر فى المصالح الكلية، واشتغلوا بما لايجوز من الأمور الدنيوية، واشتد ظلم العمال ـ أى الحكام ـ واشتغلوا بتحصيل الأموال، والملك قد يدوم مع الكفر ولكن لايدوم مع الظلم»، صدقت يا غسانى «إن الملك قد يدوم مع الكفر ولكن لايدوم مع الظلم».

لا تلعنوا هولاكو وحده

القاعدة الإلهية تقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ولايمكن أن يحل التدمير إلا إذا استشرى الظلم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ويذكر فى التاريخ أن أمير المؤمنين المستعصم العباسى لم يستوعب الدرس ولم يعرف أن عقوبة الفساد مستمرة وإن تنوعت أساليبها، وقد رأى الخليفة المستعصم بنفسه طرفًا من ذلك قبل أن يقتله المغول رفسًا بالأقدام!

يقول الهمذانى فى كتابه «جامع التواريخ»: إن هولاكو بعد أن اقتحم بغداد دخل قصر الخلافة وأشار بإحضار الخليفة المستعصم وقال له: «أنت مضيف ونحن الضيوف.. فهيا أحضر ما يليق بنا» فأحضر الخليفة وهو يرتعد من الخوف صناديق المجوهرات والنفائس، فلم يلتفت إليها هولاكو ومنحها للحاضرين، وقال للخليفة: «إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهى ملك عبيدنا، لكن اذكر ما تملكه من الدفائن ما هى وأين توجد؟» فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر فحفروا الأرض حتى وجدوه وكان مليئًا بالذهب الأحمر، وكان كله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال.

واستحق الخليفة احتقار هولاكو السفاح الدموى، إذ تعجب هولاكو، كيف يكون للخليفة كل هذه الكنوز ثم يبخل على الجنود بأرزاقهم؟

ولم ينس هولاكو أن يذكر ذلك فى منشوره الذى أرسله إلى حاكم دمشق ينذره بالتسليم ويخوفه من مصير الخليفة العباسى وما حدث لبغداد، ويقول فيه عن الخليفة المستعصم: «واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة فجمع المال ولم يعبأ بالرجال».

وقد أورد المقريزى خطاب هولاكو بالتفصيل.

ونعود إلى الهمذانى وهو يروى ذلك اللقاء بين هولاكو والخليفة فى قصر

الخلافة فيقول: إن هولاكو أمر بإحصاء نساء الخليفة فكانوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة! وتضرع له الخليفة قائلاً: «من على بأهل حرمى اللائى لم تطلع عليهن الشمس والقمر».

يقول الهمذانى: «وقصارى القول: إن كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل».

وبسبب ذلك الكم الهائل من الكنوز التى ورثها هولاكو من الخليفة العباسى فإنه صهرها جميعا فى سبائك وأقام لها قلعة محكمة فى أذربيجان.

لقد كان هولاكو، ذلك الهمجى السفاح يعى تمامًا أنه عقاب إلهى للخلافة العباسية والحكام الظلمة فى المنطقة، وحرص على إبراز هذا المعنى فى رسائله إلى الحكام، يقول فى رسالته إلى حاكم دمشق: «إنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها»، ويقول فى رسالته إلى السلطان قطز فى مصر: «يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها.. إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه.. فإنكم أكلتم الحرام ولا تعفون عن كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة».

وربما استفاد السلطان قطز من هذه الرسالة فكف المماليك عن الظلم، واستعاد شعوره الدينى.

وفى غمرة عين جالوت حين أوشك جنوده على الفرار صرخ: «واإسلاماه» وألقى بخوذته ونزل للمعركة بنفسه فكان الانتصار.

هكذا تقوم الدول وتنهار، وأساس الانهيار يبدأ من الداخل، وقد يأتى تدخل خارجى ليعجل بالسقوط، ولكن يظل الانهيار الداخلى هو بداية النهاية وعاملها الأكبر، ويأتى الانهيار الداخلى حين تتكون طبقة مترفة تتحكم فى الثروة وفى الجماهير فتنشر الظلم والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة، وتتضاءل فيه الفوارق بين الحياة والموت.

والقرآن الكريم يضع العلاج فى تشريعاته الاقتصادية التى تمنع تركز المال فى يد فئة واحدة، ويأمر فى الوقت نفسه بالزكاة والإنفاق فى سبيل الله، بل يأتى

الأمر أحيانًا في صورة التهديد كقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومعناه أنه إذا لم يكن هناك إنفاق في سبيل الله فالتهلكة هي المقابل، وإذا كان هناك إنفاق في سبيل الله فلا مجال إذن لتركز المال في طبقة قليلة العدد يتحول ثراؤها إلى ترف.

ويقول تعالى مهددًا المسلمين في عصر الرسول ﷺ: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾.

لقد أساء المستعصم في تعامله مع خدمه وأتباعه فأغدق عليهم في المناسبات مئات الألوف من الدنانير في الوقت الذي كان يتضور فيه العلماء والشرفاء جوعًا.

أبعد هذا نظل نلعن هولاكو وحده؟؟؟!!!

طفولــة فــجـــة

شرائع الأنبياء التى آلت إلينا، واتضحت معالمها فى رسالتنا، وانتفى عنها كل خطأ وعوج، تقوم على أمرين جليلين: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وإقامة الدين تعنى دعم قواعده، وتوسعة سرادقه، مع إحصاء لشعب الإيمان كلها، وتنشئة الأجيال الحاضرة واللاحقة عليها.

أما النهى عن التفرق فيه، فإن الكيان الحى لا ينقسم على نفسه، بل ينتشر الحس فى جميع أعضائه وأجزائه فإذا اتجه إلى غرض اتجه كله بعزم واحد، لم ينشط البعض ويتخلف أو يفتر البعض الآخر.

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ كيان واحد يلتف حول سياج واحد! ولم ذلك؟ لأن الأعداء متربصون به، هم به ضائقون ومنه نافرون، وله كائدون، إنهم يكرهون عقيدة التوحيد وما انبنى عليها، ويشمئزون منها، ويتجهمون لأصحابها ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

من أجل ذلك لخص القرآن الكريم واجبات حكمة الحق فى هاتين الجملتين ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

ما أيسر النطق بهما، وما أصعب الحفاظ عليهما.. وقد نظرت إلى أمتى الإسلامية، واستشعرت عجبًا من مواقفها!

أنا وصاحبى نؤمن بجملة العقائد المطلوبة، وأنا وهو مشغولان بما يستنفد العمر وفاء بأعباء الحق وتكاليفه، ومع ذلك نهدر الكثير المتفق عليه، ونحتفى بالقليل الذى يظن فيه خلاف! أنا وهو مثلاً نؤمن بأن الله حق، وأنه واحد، وأنه لا شريك له، وأنه لا يشبه المخلوقات: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وتبعات هذا الإيمان المجمع عليه كثيرة فى ميادين الأخلاق والأعمال والدعوة والجهاد، وشئون الحياة كلها.

ومع ذلك فقد يرد فى دين الله مثلاً أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير، فيغفر للمستغفرين ويجيب السائلين.. إلخ.

فنقول جميعًا: يستحيل أن يكون النزول على حقيقته المادية، يخلو منه المكان الذى تركه، ويشغل به المكان الذى قصده، ونتفق على أنه على كل شىء شهيد ومهيمن ومقتدر.. إلخ، ثم يقول بعضنا: المقصود بالنزول التجلى، ويقول الآخر: هو نزول يخالف ما نألف، ولا ندرى كنهه.

هل هذا التفاوت فى الفهم أو التعبير، فى هذه القضية وأشباهها يجعل الأمة أحزابًا متباغضة، وأقسامًا متنافرة، وفرقًا يضرب بعضها بعضًا، كى يهى صفنا كله أمام الكافرين بالله، الكارهين لوحدانيته وجلاله؟

لقد تدبرت هذه الحال ونتائجها، وتذكرت قول رسولنا: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل**».

بل لقد ساءلت نفسى: هؤلاء المولعون بقضايا الخلاف صغراها وكبراها، والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها، والفرح بخذلان مخالفهم، هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها؟ لماذا ننسى القواعد التى تجمعنا ونهش للدروب التى نتفرق فيها؟

الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفجة، والزيغ الضار بأهله من ميدان الحق؛ لأنه كثير التكاليف، إلى ميدان آخر لا مشقة فيه ولا تزحمه واجبات ثقال.

المسلك الراقى

أتألم وأنا أنظر إلى الماضى وذكرياته المؤذية.

وإلى الحاضر المحرج للأمة الإسلامية، وهى خمس العالم من ناحية التعداد.

تبحث عنها..

فى حقول المعرفة.. فلا تجدها..

فى ساحات الإنتاج.. فلا تحسها.

فى نماذج الخلق الزاكى، والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة اليانعة.. فتعود صفر اليدين!

بماذا أشغلت نفسها؟

بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى.

واستغرقها هذا كله، فلم تعط عزائم الدين شيئا من جهدها الحار، وشعورها الصادق.

فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضاريًّا وخلقيًّا واجتماعيًّا آخر أهل الأرض فى سلم الارتقاء البشرى!

حكومات فرعونية إقطاعية، وجماهير تبحث عن الطعام، وفن يدور حول اللذة وطرقها، ومتدينون مشتغلون بالقمامات الفكرية وحدها كأنما تخصصوا فى التفاهات.

أما العالم المتقدم فهو يعبد نفسه، ويسعى لجعل الشعوب المتخلفة - وأولها المسلمون - عبيدًا له، وأرضهم مصادر للخامات التى يحتاج إليها، أو الأتباع الذين يستهلكون ما يصنع.

ثم.. هناك بعيدًا عن الأعين بنو إسرائيل يمكرون ليقيموا الهيكل، كى يحل الله فيه ويحكم بهم العالم، أو جماعة الكرادلة والكهان الذين يعملون لإقامة مملكة الرب، تمهيدًا لنزول المسيح - عليه السلام - له المجد!



وأنا رجل مسلم امتَنَّ علىَّ الحق فعرفت دينى بعد دراسة نقية للوحى الأعلى ولا بأس أن أذكر بعض ما أعتمد عليه وأنا أتحرك هنا وهناك أشعر أحيانا بفخر وأنا أقول لنفسى: إننى مع الملائكة أشهد لله بالوحدانية والعدالة.

أليس يقول الله تبارك اسمه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صدق الله العظيم.

إننى مع كل ذى معرفة شريفة نشارك الملأ الأعلى فى إعظام الله وإجلاله، والانسياق مع أسمائه الحسنى.

العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين، وقضية النزاع الموهوم بين العلم والدين لا صلة لها بالدين الصحيح، قد يقع النزاع بين العلم وبين البوذية أو البرهمية أو عقائد اقتبست منهما، أو متدينين انتسبوا إلى الله وظنوا أنهم يسيرون على طريقه المرسوم، فغضب عليهم لما كذبوا عليه .

أما العقل السليم فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحى، والكون على سواء.

ومن ثم فمادمت مستقيمًا مع عقلى، فأنا متشبث بدينى، سائر على الفطرة، بعيد عن الانحراف!

وأمر آخر لا غنى عنه، أشعر بالفخر وأنا أستحضره!

أقول لنفسى: إننى وراء محمد ﷺ - الإنسان الكامل - عندما يقول الله له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

نعم أنا من أتباع محمد ﷺ فى الدعوة على بصيرة.

وقد شاء الله أن يجرد سيرة نبيه الخاتم ﷺ من كل شائبة للكهانة، وتجاوز للإنسانية المجردة.

فإذا عربى من أعماق الجزيرة المعزولة عن التاريخ يخرج على الناس بكتاب مبين، ومسلك فى بناء النفس والجماعة لم يعرف التاريخ ولن يعرف أزكى منه ولا أرقى.

سلاح العدو وسلاحنا فى هذه المعركة الطويلة

فى هذا الجزء المنكود المنتزع من وطننا الكبير يحاول اليهود ترسيخ أقدامهم ومضاعفة قواهم، وإنهم ليقبعون وراء الحدود الموهومة التى أحاطوا بها دولتهم لا ينقصهم جد ولا عبوس يتأهبون ليوم آخر قد تنكمش فيه هذه الحدود التى تتلاشى، وقد تتسع حتى ترضى أمانى المغيرين، وطالب الملك لايأسى على مغرم ولا ينكص عن تضحية، وكما قال امرؤ القيس قديمًا لصاحبه :

فقلتُ له: لا تبكِ عينُك إنما
نحاولُ مُلكًا أو نموتَ فنُعذَرا

وعلى أطراف الأراضى التى اقتطعها اليهود والتى لاتزال الدماء تقطر من حز السيف فى تمزيقها، على هذه الأطراف المحزونة يسكن العرب اللاجئون، أصحاب البلاد المطرودون، وقد بلوا بأشياء كثيرة من الجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، إننى عشت معهم ليالى وأيامًا، عرفت فيها نفوسهم عن قرب، وسمعت أزيز البكاء الذى يغلى فى أجوافهم لغدر الأقارب والأباعد بهم، وخشونة الحياة التى سحقت كرامتهم وأكرهتهم أن يتسولوا الإعانات من قاتليهم، وكانوا قبلاً أهل جاه ومنعة.

فبينا نسوسُ الأمرَ والأمرُ أمرُنا
إذا نحن فيهم سُوقةٌ نتنصّفُ
فَأُفٍّ لدنيا لايدوم نعيمُها
تقلَّب تاراتٍ بنا وتُصرَّفُ

كنت بعيدًا عن أسرتى، فكلما أقبل ولد من بعيد تفرست فيه ملامح أولادى، وكلما انتحب طفل على ذراع أمه التى أنحفها الفقر وَجَفَ فؤادى، إن أولئك اللاجئين محبوسين فى مخيماتهم لا يدرون ما يأتى به الغد، فرب رجل جثا بعد مهابة، وأم تبذلت بعد احتشام، أما الأجيال النابتة فى هذا التيه المائج فإن الخطة المرسومة لها أن تنمو وليس لها صلة بأرض ولا ثقة بأهل، ولا رضا فى حاضر، ولا أمل فى مستقبل، وهل يدع سعار الحرمان فسحة فى قلب أو فسحة من

وقت لشىء من هذا، إننى لا أعجب لشىء عجبى لأن اللاجئين بقوا إلى اليوم أحياء مع أن الاستعمار الغربى هيأ كل شىء للإجهاز عليهم وإسلامهم لموت محقق.

وما عقبى التحسر وما جدواه؟ وإن اليهود ماضون فى إعدادهم الرتيب القوى للجولة المرتقبة، وسوف يدفعون فرقهم يومًا ما لتنازلنا فى موقف حاسم، وليس أمامنا إلا أن نلقاهم، فإما كشفنا السواد الذى صبغ وجوهنا بالعار، وإلا فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، والدول العربية التى تحدق بإسرائيل لن يعجزها أن تحمى ذمارها، وأن ترد الغزو الصهيونى من حيث جاء.

إن اليهود فى البقعة التى احتلوها لن يزيدوا عن عدة ملايين، فهم لا يضاهون أقل دولة عربية من حيث العدد، إلا إذا اعترفنا فى صراحة أن الجنس الإنسانى قد تحدر فى دمائنا وخصائصنا، إلى هاوية لا تغنى معها كثرة العدد واتساع الرقعة، وقرب الوسائل، وإمكان النجاح.

ومن الصدف العجيبة أن يقع فى يدى مقال رائع صادق كتبه الاستاذ «أحمد رمزى» قبل معارك فلسطين الأولى، وشرح فيه سياسة «الصهيونية» فى كفاحها ضد العرب، وأسباب الغلب التى استجمعتها قبل أن تسدد إلينا ضربتها.

إن اليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمة العروبة مجتمعة لأن ملائكة السماء نزلت تعينهم، أو لأن الخوارق القاهرة صنعت من أجلهم، فقد علمت أن انتصارهم جاء وفق سنن مطردة، وأن الوسائل التى رجحت كفتهم عادية بحتة، وأننا يوم نعمل مثلما يعملون ونجهد مثلما يجهدون فلن يقر لهم قرار.

والحرب فى هذه الأعصار نضال شامل تحشد فى سبيله طاقات الشعوب كلها مادية ومعنوية، ونظرة عجلى إلى ما لدى الصهيونيين من عناصر القوة ترينا ما ينقصنا قبل أن نتعرض لجولة أخرى، وما ينقصنا الآن يتصل بكياننا الاقتصادى، وإنتاجنا الصناعى ونهوضنا النفسى والعلمى.

وأجدنى منساقًا مع الكاتب الصادق إلى ترديد العبارات والمعانى التى هتف بها بضع سنين ولم تجد وعيًا صحيحًا يتلقفها ويجعل منها نبراسًا.

الفجوة السحيقة بيننا وبين اليهود في الإعداد والتخطيط

لم تكن غلبة اليهود علينا صدفة عارضة أو معجزة خارقة أو قدرًا قاهرًا، كلا، بل جاءت نتيجة متسقة مع مقدماتها كما يجيء حاصل الجمع أو باقى الطرح صحيحًا فى حساب الأرقام.

كان العكس - لو وقع - هو الأمر الذى يستحق التساؤل ويحتاج إلى ألف تفسير، وصحيح أن جمهور المسلمين خاض المعركة وهو واثق من كسبها، إنه فى طوفان الخطب الرنانة والمقالات الحالمة لم يحسن تقدير شيء مما عند خصومه، بيد أن قوانين الكون لا تلين مع من يجهلها، هب قرية فى الريف تركت الحقول من غير غرس وسقى، ثم اجتمعت في المسجد تبتهل إلى الله أن يمنحها ثمرًا طيبًا! أو هب جماعة من العزاب ترهبوا وانقطعوا فى صوامعهم وطلبوا من الله أن يرزقهم البنين والبنات!

إن هؤلاء وأولئك ستنشق حناجرهم بالدعاء ثم تعود أيديهم صفرًا! ولقد أحسست - بعد بلاء طويل - أن ما فاتنا فى مضمار الخلق الشخصى والتعاون الجماعى، يشبه ما فاتنا فى ميدان العلم المادى ووسائل الكشف والاختراع والصناعات والإنتاج.

ولندع علماء الحياة فى بلادنا يلهثون وراء أساتذتهم فى الغرب يقتبسون منهم ويتلقون عنهم، ويحاولون جاهدين أن يرقوا بأوطانهم فى نواحى المعرفة وآفاق الحضارة، لندع علماءنا هؤلاء فى جهادهم الحميد، ولنرقب يومًا تشاد فيه المصانع الخفيفة والثقيلة لتمدنا بحاجاتنا الماسة إلى ما يدعم جانبنا فى السلم والحرب على السواء، ولتغنى فقرنا الفاضح فى شئون العمران كله، ولتضع نهاية قول الشاعر:

إن الذين بنى «المسلةَ» جدُّهم
لا يُحسنون لإبرةٍ تشكيلا

نعم، لندع هؤلاء فى جهادهم، ولنتجه - نحن المربين - إلى ميدان آخر لانزال

نتعثر فى مقدمته أو مؤخرته، بينما ملك غيرنا الطليعة ومضى فى سباقه لا يلوى على شىء، يجب أن نصارح أمتنا بأن حصيلتها من أخلاق الحياة الصحيحة وتقاليد الجماعات الموفقة أتفه من حصيلتها من علوم الذرة.

وما بنا من عشق للإزراء على أمة نحن منها، يزيننا ما يزينها، ويشيننا ما يشينها، إنما هى رغبتنا فى الإصلاح، وفى علاج الأدواء الدفينة، تجعلنا نصبح محذرين أو نلكز النيام موقظين، خصوصًا إذا كان العليل مخدوعًا فى نفسه لا يجهل علته فحسب، بل يحسبها بعض ما أوتى من قوى، وقديمًا رأى العلماء أن الجهل المركب أغلظ من الجهل البسيط، وأن الأدعياء - من كل لون - لا يرجى لهم خير، إن الأمثال تضرب لفساد «الروتين» الحكومى عندنا، وهذه الكلمة غطاء لقصور أو تقصير جمهور الموظفين وتراخيهم المحزن فى أداء واجبهم، وذهولهم التام عما حملوا من أمانات، وجروا من تبعات، ومسلك كثير من الموظفين يُظْهِر تقطُّعَ الأواصر بين الأفراد والأمة التى نبتت فيها والدولة التى تشرف عليها، وقد تنقلت فى إدارات ومصالح شتى فوجدت العيب الأول فى الموظف نفسه، لا فى النظام المرسوم له مهما كان معقدًا، فهو يوم يريد إنجاز أمر بعينه، يوطئ له الطريق وييسره بسرعة البرق، وإلا أداره فى حلقة مفرغة لا يخرج منها أبدًا، أى أن المشكلة فى «الخُلق» و«الضمير» قبل كل شىء، ولما كانت أمعاء الدولة داخل هذه الدواوين الراكدة، بين أصابع مديرين وكتبة من هذا الطراز، فلا عجب إذا أزمن فيها «المغص» وتعفنت فيها حاجات الناس، ونعدو الأداة الحكومية إلى غيرها من نواحى مجتمعنا الأخرى، فيروعك فى القرية وفى المدينة جميعًا أن المسلمين صرعى تقاليد بالية وأفكار مريضة، فالغباوة فى فهم القدر كسرت الهمم وأقعدت الآمال، والغباوة فى فهم التوكل أشاعت الفوضى وأغرت بالكسل، ولما كانت الغرائز الدنيا أقوى من أن تكفها الأخطاء السائدة فى فهم الحياة، فقد انطلقت تخط لنفسها مجالاً بدائيًا يسر ارتكاب الجرائم واقتراف الدنايا حتى بلغ

عدد الجنايات عندنا حدًا مروعًا، وإنك - للنظرة الأولى - تلمح الانهيار والتفكك الغالبين على النفوس، مع أن ذلك - فى حكم القرآن - من أمارات الكفران والبعد عن الله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقد اضطررت - وأنا أعظ الناس أحيانًا - إلى أن أنفى القدر الذى يرادف فى أذهانهم الجبر، وأن أنفى التوكل الذى يعنى فى أفهامهم السكون، وأن أنفى الرجاء الذى يجعلهم يتوقعون رحمة الله بغير عمل، ونصره بغير جهاد.

إن تأخرنا الاجتماعى يجب أن ينتهى على عجل، وليقارن العقلاء بين أحوال اليهود وأحوالنا ليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا.

عصابـــات وحكومـــات

أسوق قصة حدثت لى ذات يوم فى أثناء تجوالى فى جنوب فلسطين قبل حدوث المحنة الكبرى للعرب والمسلمين فى فلسطين وليقارن العقلاء بين أحوال اليهود وأحوالنا، وليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا.

قال لى أحد رؤساء العشائر وقتها: خرب الدولاب الذى يستخرج الماء من البئر فى حقلنا، فذهبت إلى الإخصائى اليهودى فى المستعمرة القريبة كيما يأتى لإصلاحه.

وبكرت إليه أتعجله، فإذا هو يقوم بأعمال موكولة إليه فى المستعمرة فوقفت أحادثه وأتبسط معه وناولته (سيجارة) فأخذها ووضعها على أذنه ثم قال: إن الوقت إلى الساعة الثانية بعد الظهيرة من حق المستعمرة فلا أحب أن أشغله بشىء.

وعندما أنتهى منه أذهب إليك مساء.

وحسم الموقف ليستأنف خدمة أمته ورعاية شئونها.

ونزح يهودى من ألمانيا إلى فلسطين أثناء اضطهاد (هتلر) لقومه، وكان الرجل ذا ثروة كبيرة، تركها خلفه وهو هارب، فلما تغيرت حكومة ألمانيا، وعوض اليهود عما فقدوا، أرسلت لليهودى النازح أمواله، وكان آنئذ فقيرًا يشتغل خفيرًا فى إحدى المستعمرات.

فقال له عربى يعرفه: إن الثراء هبط عليك فجأة، فهل ستشترى المستعمرة كلها لتصبح مالكًا لها. فقال اليهودى الخفير: ما أفعل بالمال لنفسى، إن أولادى يتعلمون بالمجان فى المدرسة، وقد كبرت سنى، فسأهب هذا المال كله لشئون المستعمرة العامة، ولن أطلب من المسئولين إلا أن يغيروا الكلب الذى يساعدنى فى الحراسة فقد ضعف بصره.

أرأيت إلى ما تحلى به هؤلاء الناس من إيثار وإخلاص؟ ثم أرأيت إلى ما تخلينا نحن عنه من فضائل الكفاح وأدواته؟

من أجل أى شىء ينصر الله الجهل على العلم، والفوضى على النظام؟

لقد كان بعض المجاهدين أحسن من تصدى لقتال اليهود والدفاع عن الأرض المقدسة، ومع ذلك فلن أنسى أبدًا تفاصيل أول معركة دارت بين شبابهم ومستعمرات (ديروم)، وهي المعركة التى فقدوا فيها اثنى عشر شهيدًا من خيرة أهل الأرض إيمانًا وشجاعة، ولم تفقد فيها المستعمرة الصهيونية إلا الرصاصات القاتلة، ولم؟

لقد رسم خطة الهجوم طفل كبير، لا يدرى من فنون القتال إلا قراءة الأوراد وإطلاق المسدسات فكان ما كان.

يا عجبًا، تعوزنا أخلاق البذل والإقدام، فإن وجدناها فقدنا مواهب القيادة الصحيحة.

لقد أسمينا مقاتلى اليهود رجال العصابات، وكلمة عصابة تعنى نفرًا من اللصوص يشتغلون بالسلب والنهب، يسطون على الآمنين، ويتحينون الفرص للغدر والفرار، فهى على النقيض من كلمة (حكومة) التى ترمز إلى رياسة محترمة، وإدارة نابهة، ونظام واضح.

وعندما اشتبكت عصابات اليهود مع دول الجامعة العربية السبع لم يتوقع المسلمون إلا أن هذه الحكومات المهيبة ستؤدب العصابات الثائرة وتسترد منهم الأرضين والأموال التى أغاروا عليها وأخذوها.

فلما التقى الجمعان علم المخدوعون أن العناوين المزورة لا تغنى عن الحقائق الكريهة.

إن باعة البصل ينادون عليه فى أسواقه بالرمان، وباعة الترمس يصيحون عليه: يا لوز، وهيهات أن ينطلى هذا الدلال على أحد.

الوكالة اليهودية كانت حكومة مزودة بأذكى الخبراء وأقوى الجيوش وأعتى الساسة، فلو سألت الجهة المختصة فيها عن شبر من صحراء النقب: عن طبيعته وقيمته ومدى قربه أو بعده عن الماء، لاستخرجت لك مصورات جغرافية وجيولوجية تشرح كل شىء فيه، أما رؤساء اليهود فهم رسامو العقائد الصهيونية، وجامعو الشمل الممزق فى المشارق والمغارب.

وأما اليهود أنفسهم فقد جمعت بينهم أساليب حياة وصهرتهم خلقًا جديدًا. كانوا شعبًا فتيًا يطلب الحياة ويبنى مستقبله.. أما نحن فلا.



رذائلهم أخلاقنا

عندما قامت حرب فلسطين اشتركت بعض دول المسلمين فى القتال بقوى رمزية لأنها.. لا قوة لها، وقنع البعض الآخر بالدفاع عن حدوده وحسبه أن ينجو بجلده، والبعض الآخر كانت قيادته فى أيدى أعدائه المحتلين، أما مصر ـ كبيرة دول الجامعة العربية وقطب هذه الحرب ـ فقد كانت تحكمها عصابة تشتغل بالسلب والنهب والاغتيال. ففى ظل دستور لم تحترم منه مادة، يجعل الشعب سيد نفسه سلبت جميع السلطات ووضعت فى يد غلام عابث يسمى صاحب الجلالة الملك! ووصلت الألوف المؤلفة لتحرير فلسطين، فسرق شطرها وشرى بالشطر الآخر أسلحة لا جدوى منها. ودارت الحرب، فرسم خطتها رجال لو التحقوا بالجيوش الأخرى لجردوا من أوسمة القيادة؛ لأنهم لا يحسنون شيئًا أبدًا، ووقع ما لم يكن منه بد. طارت القشور التى صنعها الخداع، فإذا عصابات إسرائيل جيش محذور الفتك، وإذا كثير من حكوماتنا عصابات سطت على الحكم فسلبته وغررت بالأمة الحائرة فأهانتها وأذلتها، كيف تبارك السماء هذه المهازل؟ إن المسلمين أحوج أهل الأرض طُرًّا إلى أن تشخص لهم عيوبهم كى ينأوا عنها، فإن الذين يتجاهلون الحقائق ربما دفعوا ثمن هذا التجاهل اجتياح بقيتهم واستئصال شأفتهم، إذا كانت بضاعتنا الوهن والخلط والنكوص، وبضاعة أعدائنا الجرأة والأمل والحكمة، فأيان نربح؟ إن القرآن عاب اليهود قديمًا بأمور معينة، وصف تخوفهم من الناس وحذرهم من الخلق ـ مع جرأتهم على الله بالمعصية ـ فقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. ووصف تقطع أواصرهم بالهوى واختلاف قلوبهم بالضغائن فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾. ووصف طمعهم فى أموال الناس وحرصهم

على أكلها سحتًا، فلا يردونها إليهم إلا عن إلحاح ويقظة، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾. ووصف غرورهم بالانتساب إلى الله، وأمل عامتهم فى نيل النعيم المقيم دون عمل خطير وبذل جسيم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾. ووصف تحاسد العلماء وغمطهم لصاحب الكفاية وتحقيرهم لما آتاه الله فقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾. ووصف تحجر طبائعهم ونضوب الرحمة من قلوبهم ولعبهم بالنصوص التى نزلت لهدايتهم فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾. استقص هذه الرذائل التى أسقطت غيرنا، ثم سل نفسك: أليست لها نظائر بيننا؟ نظائر..؟ إنها هى بعينها! فر اليهود الأخلاف منها وتهاوينا نحن فيها! فإذا التقينا بهم فى صدام عنيف فكيف يديل الله لنا منهم؟ والغريب أننا لا نعترف بعللنا ونبدأ فى التخلص من شؤمها.. وقف خطيب يقول للمسلمين: إن الشرق والغرب يأخذان نظام الحياة منا ويقتبسان الدقة من أعمالنا، وحملق أحد العقلاء فى صاحبه كأنه يسأله عن عقبى هذا الهراء.. إن المسلمين يعدون جبهة مغايرة لكلتا الجبهتين المتخاصمتين فى الشرق والغرب، ذلك بلا ريب ما تقتضيه تعاليم الإسلام، وما توجبه آيات الكتاب والحكمة، فافرض جدلاً أن زمام العالم أفلت من يدى الروس والأمريكان لتتسلمه هذه الجبهة الثالثة، ترى ما يحدث ـ والحالة هذه ـ؟ إن حركة العلم والصناعة سيعروها توقف مباغت، والدنيا المائجة بفنون لا حصر لها من المشاعر النابضة والأفكار اليقظة ستشل! قد تقول: لكن الربانية والفضائل والطاعات ستنتعش وتشيع، وهنا لا أملك نفسى من الضحك، إن مسلمى بلادنا أمثلة حسنة ولا ريب لهذه المعانى، وإنى لأتخيل هذه الأقطار فى وضعها

الراهن، تحتل أماكن الصدارة فى العالم، فتأخذنى حيرة مظلمة! إن فاقد الشىء لا يعطيه، والذين عجزوا عن تحكيم الإسلام فى نفوسهم وبيوتهم وصفوفهم لهم أعجز من تحكيمه فى حدود دولة صغيرة بله حدود العالم الكبير، ألا فلنعرف أنفسنا، ولنصلح شئوننا، يغير الله ما بنا، وإلا فالأمر كما قال الله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾.

التـــربيـــة

التربية عمل يستغرق العمر كله منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل. ومن الخطأ تصور التربية بناء يتطلب بضعة أشهر أو بضع سنين ثم يعقبه استجمام واسترخاء، المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظًا طول الطريق، وإلا فقد يهلك في ساعة إغفاء.

وقد ألفنا في حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل، وأن نمنح الدارسين إجازات أو شهادات تدل على ما نالوا منه، فهل التربية كذلك؟ لا، إن الأقساط التي ننالها من الاكتمال النفسي لم توضع لها سلالم واضحة، ولم ترصد لها علامات، لأن علم ذلك عند الله وحده أولاً، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة، يقاس تحصيلنا فيها حينًا بعد حين.

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال، سائرًا إلى ربه بثبات، والسائر إلى الله يترضاه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولا يزال سائرًا يطوي مراحل حياته حتى إذا قارب النهاية قيل فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

لقد طابت نفسه كما يطيب الثمر على أغصانه، ثم يجيء الحصاد في إبانه، فإذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواحٍ، الأولى: شعوره بنفسه فالشعور الإيجابي بالذات - أعني عبادة الذات - يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء، وهو مصدر الحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنة.

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها، لا يصلح لشيء ولا يصلح به شيء، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال

الجوارح، وأن معاصى القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى، ولن ينجو المرء من هذا الداء إلا إذا وثق روابطه بالله وصفى نيته معه، وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده، وجعل هضم النفس واحتقار العاجلة أغلب على سيرته وأوضح فى شتى معاملاته.

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافًا واسعًا، نعم إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام، وهناك من يحب النساء، وهناك من يحب المال، وهناك من يحب الشهرة، وقد يضحى بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه!

والتربية الصحيحة تستبقى من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة، وتراقب بحذر ما فوق ذلك، وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة لهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب، الجامع بين الدين والفلسفة والأدب، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها النبى محمد عليه الصلاة والسلام.

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة، وهناك معالم سيرة إنسانية طهور، تسبح فى فلك لا يقف أبدًا، إن التربية ليست وضع البذور فى أرض على رجاء مطر يجىء أو لا يجىء، ولا جهد وراء ذلك، كلا، إنها بذر وسقى وتعهد، ومطاردة للحشرات والأوبئة ومتابعة صاحية حتى أوان النضج، والمربون هم البيت ـ وأساسه المرأة ـ والمدرسة والمسجد والشارع والدولة، بما ملكته فى العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية.

والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة، جعلت منهم الجيل الذى حول الحضارة الإنسانية من حال إلى حال.

وأشعر اليوم بشىء من الأسى واليأس لأننا لا نجمع من عناصر التربية ما يجعل أمتنا تنبت فى مغارسها، ذاك فى وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع.

واصطلـــح الجميــع

يستحيل أن تقوم حضارة إسلامية تخاصم الكون وتجهل مفاتيحه، أو تخاصم الإنسان وتجافى فطرته، لأن القرآن الكريم يبنى الإيمان على فهم الكون ودراسة الإنسان، ورجال محمد عندما بنوا لكتابهم دولة، كانوا يسبحون فى بحر الحياة ويتعاملون بذكاء مع تياراته ومده وجزره، أو بتعبير الدكتور «لويس عوض» كانوا علمانيين خبراء بالمادة والمجتمع وشئون الحياة كلها.

سئل الدكتور لويس: هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة؟ فأجاب: كلا، وإذا كان الإسلام قديمًا قد استطاع التغلب على بيزنطة فلأنه كان دينًا علمانيًا أكثر من الدين المسيحى فى القرن السابع، كان دينًا معنيًّا بأمور الحياة كما كان معنيًّا بالغيبيات والروحانيات، على حين كان نظام بيزنطة روحانيًا مغرقًا فى الغيبيات، ثم قال الدكتور: «ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية هو الإسلام البيزنطى»، ولست بصدد التعليق الموسع على كلام لويس عوض، وإنما تهمنى الإشارة إلى أن التربية الإسلامية الصحيحة تقوم على فقه واسع فى الحياة والأحياء، فى الأرض والسماء، فى كل ما يؤثر فينا ونؤثر فيه، حتى لكأن ذلك كله ديننا ودنيانا وأولانا وأخرانا، ثم تسخير ما بلغناه بعد ذلك لإرضاء ربنا وكسب آخرتنا وفق الآية المعروفة: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، يستحيل أن يكون الجهل بالحياة دينًا أو أن يكون الفشل فيها تقوى، املك الدنيا بذكاء واقتدار ثم وجهها لإعلاء كلمة الله وإعزاز الإيمان ورفع رايته، إن من يملك صفرًا فى شئون الدنيا لن يكون إلا صفرًا فى شئون الآخرة، وقد رأيت أقوامًا لا قدم لهم فى آفاق المعرفة يريدون الحديث عن الله ودينه فاستغربت جرأتهم وقلت: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ كيف يعرف الله أو يعرف الناس به جاهل بالعالم وما فيه، وبالتاريخ ومباهجه ومآسيه. إن القرآن كتاب لا يرتفع إلى مستوى رجل عادى، ومحمد لا يستطيع

التأسى به إلا إنسان فى عقله نور، وفى قلبه نور، لا يمكن بناء قاعدة للتربية حتى نحدد أولاً موقفنا من الدنيا، أنعيش لها أم للدار التى بعدها؟ أم للاثنتين معًا؟ إن الحضارة الحديثة انطلقت من قاعدة مهدها عصر الإحياء من خمسة قرون قاعدة بشرية عقلانية تدرس السموات والأرض وما بينهما، وتستكشف أسرار المادة، ثم تجعل ثمرات الدرس والكشف لخدمة الإنسان! هل للدين موضع فى هذه الدراسات الجادة الدءوبة؟ كلا، لقد وقعت عداوة دامية خسيسة بين العلم والكنيسة، جعلت العلماء يعتقدون أن الدين مرادف للجهالة والجمود، وأن رجاله أوثان حية رديئة ينبغى الخلاص منها، فأين الإسلام عندئذ؟ لقد انتحر المسلمون فى الأندلس، وقضى عليهم العفن السياسى والترف الاجتماعى، وانشغال العلماء بقضايا جزئية ومسائل جدلية، لم يكن الأندلسيون فى النصف الثانى من تاريخهم نماذج مقبولة للإسلام، بل كانوا ينفرون منه، وهذا البلاء انتقل من المشرق الإسلامى إلى المغرب، فإن فساد السياسة والاقتصاد والعمران تكاثرت جراثيمه، وتنامت نتائجه حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية فى الأندلس التى كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة، صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة، واستطاعوا فى زحف باهر أن يخترقوا شرق أوروبا حتى النمسا، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية ولم يكونوا فجرًا ثقافيًا جديدًا، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم والبلاغ المبين لكان لهم فى الأقطار المفتوحة شأن آخر، إنهم رفضوا أن يتعربوا، كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم وأن يتركوا السلطات لغيرهم، فكان التوسع الإسلامى خاليًا من بذور الحضارة الأولى، ومن أسباب الحياة الصحيحة، فسرعان ما انهار، وانهار العالم الإسلامى بعده، وأصبح أثرًا بعد عين! أما الأوروبيون، فبعيدًا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية، ووضعوا «الماجناكارتا» بعد قتل الملك المستبد. حدث ذلك فى إنجلترا، واشتعلت الثورة الفرنسية، وكانت هى الأخرى كافرة بالدين، ووضعت لأصحابها نظامًا آخر، وكانت ثورة تتسم

بالبطش وتسرف فى الفتك.. ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء، وألوان من الوحشية وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها، ومصاب الإسلام فى الاتحاد السوفيتى يحتاج إلى دراسات واسعة! المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله، وإن كانت قد انتفعت ببعض المخلفات الإسلامية والإنسانية فى نهوضها، بيد أن شيئًا مثيرًا قد حدث مع بدايات القرن الأخير، فإن الصليبية لعقت جراحها، وأخذت تقترب من المنتصر، تتودد إليه، وتعرض عونها عليه، وكذلك فعلت الصهيونية، واصطلح الجميع على إخراج الرسالة الخاتمة والاستيلاء على ميراثها الضخم، وقد بدا لكل عين أنه ميراث لا صاحب له، أو بتعبير آخر لا حارس له! وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم.. واستيقظت نوازع الحياة فى الأمة المنكوبة، وشرع المدافعون فى ميادين العلم والتربية والاقتصاد والعمران، يتنادون لإنقاذ الرسالة التى أحدق بها العدو من كل ناحية، إن البلاء شديد، ولكن طريق الخلاص منه واضح، وبقدر ما نثوب إلى رشدنا ونستمسك بكتابنا تقوى الحصون، ويتراجع العادون.

أزمـــة اللغـــة العربيـــة

عرف الناس خصائص الاستعمار الصليبى الذى أغار على أرضهم خلال الإعصار الأخير، كان غرضه الأهم والأوضح أن يمحو الشخصية الدينية لأمتنا، وأن يقطع حبالها على مر الأيام باللغة العربية، والمرء بعد فقدانه الإيمان واللسان، أو بعد فقدانه أصوله الروحية واللغوية، يمكن حسبانه مؤقتًا فى عداد المفقودين. بيد أن الاستعمار لا ينتهى به إلى هذه النتيجة ثم يتوقف.. كلا، إنه يعده سمادًا لجيل آخر، له عقيدة أخرى، ورطانة أخرى، كما تتحول الفضلات الحيوانية إلى تربة جديدة لكيان آخر مقطوع الصلات بالماضى القريب والبعيد معًا.

والسياسة التى اختطها هذا الاستعمار المكار تبعث على العجب، فالإنجليزى «سبنكس باشا» يعين قائدًا للجيش المصرى، والإنجليزى «رسل باشا» يقود شرطة القاهرة، والإنجليزى «دنلوب» يقود سياسة التعليم! ولا بأس فى طريق القضاء على اللغة العربية أن يستعان بأوربيين يعينون فى مؤسساتنا الثقافية، مثل المستشرق الألمانى «ولهلم سبيتا» الذى وظف بدار الكتب المصرية، وكان أول من دعا إلى نبذ اللغة العربية، وألف كتابًا عن قواعد اللهجة العامية فى مصر! وتبع هذا الموظف فى محاربة العربية موظف ألمانى آخر هو «كارل فولرس» الذى عين أمينًا للمكتبة الخديوية بالقاهرة!

وجاء بعدهما إنجليزى موغل فى التعصب، كان يشرف على مدرسة الهندسة العليا ـ كلية الهندسة الآن ـ اسمه «وليم ولكوكس» الذى منحته إنجلترا فيما بعد لقب «سير»، وتبنى أفكار الجميع عدد من اللبنانيين والمصريين الحاقدين على الإسلام، وكانت صيحاتهم لهدم المواريث الأولى لا ينقطع صداها. فتدبر ما قاله «سلامة موسى» فى كتابه اليوم والغد: «الرابطة الشرقية سخافة، والرابطة الدينية وقاحة، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا».

والذوبان المنشود فى أوربا يعنى بداهة طرح الإسلام والعربية، وإيجاد نبتة مهجنة تستخف بتكاليف الإيمان وأواصر الفصحى، وقد اتسعت هذه الدائرة، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادى وأدبى، وأزيحت من أمامها العوائق، بل



كثرت من ورائها الدوافع، حتى كادت تستولى على مقاليد الأمة فى كل ميدان، لولا أن الصحوة الإسلامية التى تتجدد بها أمتنا على امتداد القرون تيقظت للخطر الداهم، وردمت منابعه ما استطاعت.

ولاتزال المعركة سجالاً بين الإيمان والإلحاد، وبين العامية والفصحى، مع ملاحظة أن ذلك الصراع أخذ مسارات شتى، بين التقليد والتجديد، أو الرجعية والتقدم، أو الأصالة والمعاصرة، ثم رأى الماكرون بالإسلام أن يتركوا هذه الموازنة ليكون العنوان الأوحد: القومية، أو الاشتراكية، أو العلمانية، ولعل السر أن المسلم مهما بلغ عصيانه يعود إلى دينه فجأة، إذا خير بينه وبين غيره من مذاهب، ومن هنا حلت النزعة الواحدة الجديدة محل الموازنات المقلقة، على زعم أن هذه النزعة لا تخاصم الدين!

والحق أن الإسلام لحقت به خسائر جمة، عندما ارتفعت راية القومية، عربية كانت أو غير عربية، وعندما ارتفعت راية الاشتراكية، شيوعية أو غير شيوعية، ثم جاءت العلمانية أخيرًا فكانت ثالثة الأثافى؛ ففى ظلها هان الإيمان، وسقطت قيم خطيرة، كما أن فى ظلها هبط الأدب العربى، وانتصرت الكلمات الأعجمية، ولوحظ فى المسرح والإذاعة والجامعة والصحف، أن الأمة تنحدر إلى هاوية ليس لها قرار.. وحديثنا الآن عن الأدب العربى واللغة العربية بعامة.

يرى الأستاذ الكبير أحمد موسى سالم أن الضعف العام بدأ من عصر مبكر، وأن فساد الحكم من ورائه، فيقول: «لكن هذه اللغة مع بداية استرخاء الحكام العرب فى القصور، ومع غيبة المجاهدين المرابطين فى الثغور، ومع ما أصاب عامة العرب من زوار المدن أو المقيمين بأطرافها، من فتنة بالمعروض الشهى من المتاع، أو المبذول الطبع من الغواية.. بدأت تطرأ على تراكيب اللغة وعلى وظيفتها وأهدافها تغيرات تعكس ما وقع للناطقين بها، بعد أن فكوا أحزمة التشدد وبعد أن طافوا طويلاً باللمم، وبعد أن ساقهم اللمم إلى ألوان من الذنوب ما عرفها آباؤهم، فإذا هم قعود وعلى ألسنتهم كلمات جديدة معربة - أو غير معربة - فى مجالس الغناء واللهو والخمر والشذوذ والانحلال. بهذا الاسترخاء، والإقبال على المتع، تراجعت القدوة التى كان الأعاجم يجدونها فى العرب، ولم يعد العرب قادرين على استهواء غيرهم لينصر الدين واللغة! ومع أن الحكومات العربية أساءت إلى اللغة ولم تحسن نصرتها، وقعدت بالأدب العالى فلم تمنح رجاله ما يستحقون من

صدارة، إلا أنى أحسب أن المعاهد المتخصصة فى الدراسات اللغوية والبلاغية تحمل وزرًا أشد فى هذا المضمار.. وأن جمودها وفتورها وقصورها من أهم الأسباب فيما اعترى اللغة العربية فى هذا العصر من ضعف وانزواء.

وإنى لأحس غضبًا شديدًا عندما أرى علماء دين لا يحسنون ضبط الإعراب، أو عندما أرى رجال سياسة يخبطون خبط عشواء، ويقعون من دون حياء فى شر أنواع اللحن.

ماذا فعلت المعاهد العتيقة والمجامع الجديدة لخدمة العربية فى عصر نرى فيه الإنجليزية مثلاً تبتدع عشرات الأساليب للانتشار والسيطرة؟ ذلك بحث ينبغى - من دون حرج - أن نخوضه، لنعرف مدى تقصيرنا فى لغة الوحى، ولنستقبل الأيام القادمة بعمل نافع وجهد مثمر.

تضحية هناك وتخاذل هنا

لم يبخل اليهود بالمال لإنجاح قضيتهم، بل عرفوا كيف يكسبونه كثيرًا وفيرًا، وينفقونه كثيرًا وفيرًا كذلك لبلوغ مآربهم وتحقيق آمالهم، فعندما نهض زعيم الصهيونية الكبير (هرتزل) لينشر دعايته فى ربوع العالم، التقى بالبارون (دى هيرش) الذى أسس جمعية الاستعمار اليهودى، وغرضها إسكان مشردى إسرائيل فى بعض أقطار أمريكا، وكان قد رصد لذلك عشرة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص! رجل واحد ينخلع عن هذه القناطير المقنطرة كلها فى سبيل عشيرته، فى الوقت الذى يضن فيه أصحاب الثراء الواسع عندنا عن بذل عشر معشار ذلك فى سبيل ربهم وأمتهم! والعاطفة التى بعثت اليهود على أن يجودوا بأموالهم، جعلتهم يمتلكون الأرض عن طريق الشراء السهل، قبل أن يمتلكوها عن طريق الغصب المسلح، إنهم على البعد شرعوا يصوغون قصائد الغزل فى أرض فلسطين، ويقدسون خصبها وجدبها ويعلقون الأفئدة بحبها والفناء فيها، وانظر إلى أغانيهم فى عشق الوطن المفقود: «إن للحمامة البيضاء عشًّا صغيرًا، وللثعلب وكرًا، ولكل إنسان وطنه، إلا اليهود فلهم قبور»! وجاء على لسان البطل فى إحدى الروايات: «تسألينني عن أعز أمنية عندى؟ وجوابى هى أرض الميعاد، وتسألينني عما يداعب أحلامى؟ فأقول: أورشليم، وتسألينني عما يستهوى فؤادى؟ فأقول: إنه الكنيس، أجل، أريد كل ما فقدناه فى سالف الزمان، وما تهفو إليه نفوسنا، وما جاهد آباؤنا وأجدادنا فى سبيل استرجاعه.. بلادنا الجميلة، وعقيدتنا القدسية، وعاداتنا البسيطة، وتقاليدنا القديمة». هذه هى الحرارة التى نشأ عليها اليهود قبل هجومهم علينا، أين غابت عنا؟ وكيف يقاس بها الشعور البارد الميت الذى جعل أناسًا من العرب يفقدون إعزازهم للأرض التى عاشوا عليها دهورًا، فيتركونها لخصومهم بثمن بخس؟ عرفت أن الشيخ أمين الحسينى مفتى فلسطين ورجال الفقه، أصدروا أحكامًا مشددة بارتداد من يبيع أرضه. بيد أن تكوين الأمم لا يجىء عن طريق الفتاوى المخوِّفة. إن الأمم قبل كل شىء قلوب تهزها العواطف الجياشة، وعقول تقودها الأفكار السليمة، ويوم تجمد القلوب فلا تنبض بعاطفة، ويوم تقف العقول فلا تتحرك بفكرة، فما تراه موضع الفتوى منها؟ إن المسلمين فى تخلفهم الهائل عن قافلة العالم كانوا لا يدرون شيئًا عما يقع فى أقطار الدنيا

القريبة منهم، فكيف بالبعيدة عنهم؟ أكانوا يتابعون أنباء المؤتمرات التى يعقدها اليهود بين الحين والحين؟ والتى كانت مطامعهم تثب فيها إلى الأمام وثبًا؟ كم كنت أضحك محزونًا وأنا شاب أقرأ أن العمال العرب كانوا أحظى عند المزارعين اليهود من غيرهم، لرخص أجورهم! وفى صدر إحدى الصحف «الجنود المراكشيون يتمردون على ضباطهم الفرنسيين»، فصحت مرة أخرى أسفًا، إن هذا الخبر لا يدل على ميلاد الحرية فى شعب مسلم مستضعف قدر ما يدل - فى نظرى - على الهاوية التى انحدرنا إليها. إن هؤلاء المسلمين المسخرين فى بلادهم للأجانب الطارئين، والذين استؤنسوا فصاروا عمالاً لليهود، أو جنودًا للفرنسيين هم أشبه ما يكون بقطار من الجمال البلهاء يقودها طفل. لقد مرحوا فى بلادهم دهرًا وهم آمنون من مكر الله، ثم صحوا وقيود الهوان تغل أيديهم وأرجلهم، أما عن كثير من حكام المسلمين فى هذه الأعصر الكئيبة، فحدث ولا حرج، حدث عن قردة وخنازير، لا عن رجال أمناء مسئولين، وقبل أن نذكر ذلك المثل من قضية فلسطين نفسها، نذكر الحوار الذى دار بين زعيم إسرائيل ومندوب حكومة إنجلترا حين كان الزعيم اليهودى يسعى لإيجاد وطن لقومه وفى سبيل ذلك أسدى لإنجلترا خدمات جليلة تستحق المكافأة، فقال له لويد جورج: إنك أديت للدولة خدمات عظيمة، وأود أن أطلب إلى رئيس الحكومة أن يوصى بك عند صاحب الجلالة فينعم عليك بوسام رفيع. فأجابه قائلاً: إنى لا أريد شيئًا لنفسى. قال: ألا نستطيع أن نقدم لك شيئًا عرفانًا بجميلك وما قدمت يداك لهذا البلد؟ قال: بلى، أريد أن تعملوا شيئًا من أجل الشعب الذى أنا واحد من بنيه. كان هذا الحوار هو اللبنة الأولى فى إعطاء فلسطين لليهود، وبعد أن حدث بنيف وثلاثين سنة اجتمع برلمان إسرائيل فى أرض الميعاد ليختار (حاييم وايزمان) رئيسًا للدولة اليهودية الأولى بعد ألفى عام، والرجل لا ريب أهل لهذه المنزلة فى قومه. وليت حكامنا - نحن المسلمين - فى مثل هذا الإخلاص للأمم التى يرأسونها، إن الجبهة الإسلامية يوم استصدار (وايزمان) تصريح (بلفور) كانت تعسة سقيمة.

خاف الترك على العرب، وغدر العرب بالترك، وغدر الإنجليز والفرنسيون بالجميع لصالحهم ولصالح اليهود، وتحركت الدول العربية النزاعة للسيادة تحاول إقامة ملك عربى لها، ثم كان ما كان.

كانـــوا أنفســـهم يظلمـــون

عندما يتوهم الطائر أنه يحلق من ذاته لا من جناحيه، فيخلعهما عنه، فسوف يبقى فى مكانه لا يريم، ولن يرتفع عن الأرض قيد أنملة.

وقد حدث الله عن موسى عليه السلام فأبان أنه وهبه الحكم والعلم بعدما اكتملت قواه ونضجت ملكاته: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فكان إحسان موسى هو الذى رشحه لهذا الإكرام الأعلى، أفتراه ينال شيئًا من ذلك لو بدا عجزه وظهرت فجاجته؟ وقال الله عز وجل مبينًا سنته فى قيادة الأرض ووراثته خيرها: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾. فهل يعنى ذلك أن وراثة الأرض هى من حظوظ الصالحين وحدهم، وأن الذين فسدت عقولهم بالجهل وفسدت قلوبهم بالهوى لن يمكن لهم أدنى تمكين فى شبر ضيق من أقطار العالمين؟

والمحزن فى تاريخ الأفراد والجماعات أن العصاميين يظلون معتزين بفضائل الكفاح والعمل، صاعدين إلى القمة بأساليب التقدير الصادق والتفكير السليم، حتى إذا استقروا، تغير المنطق القديم، فإذا هم يكرمون المناصب والأنساب ولو كانت إلى جانب الصم البكم الذين لا يعقلون.

ولقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التى نالوا بها رضوان الله، وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم، فكان من عقابهم ما رأيت.

وكان رسول الله ﷺ خبيرًا بطبائع الأمم وأسرار المجتمعات يوم اخترق أسداف الغيب، ثم تصور أن أمته قد يعتريها ما اعترى غيرها فقال منفرًا محذرًا: «**ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيهم من يصنع ذلك**».

وقال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**».

فهل درنا فى الدوامة التى أغرقت الأولين؟ إن تمثال الخلافة الإسلامية فى الأستانة سقط، أما الأمة نفسها فهى - من قبل ومن بعد - قد قطعت أممًا يتنادى اللئام على أكلها، فإذا فتحت عينيك على مصير المسلمين الكالح لم تلبث أن تغمضهما على القذى، فكيف كان ذلك؟

هل يدرى المخمور ما يصنع عندما يفقد وعيه وتترنح خطاه ذات اليمين وذات الشمال؟ لا.. إن صوابه الضائع يخيل إليه الأمور معكوسة، فقد يغنى ويضحك حيث يجب أن يبكى ويحزن.

ولكن الذين يرقبون عن قرب أو بعدٍ ما يقع منه، ويبنون أحكامًا على مسلكه أدنى إلى الحق من أحكام هذا السكران على نفسه، ومن تصوره لما يفعل ويترك.

وحال المسلمين - من قرون - قريبة الشبه من حال هذا المخبول الذى دارت العُقَارُ برأسه؛ فقد انطفأت مصابيح الإسلام بأيديهم، وأمسوا يسيرون بلا خطة، ويحكمون بلا شرعة، ويفكرون بلا عقل، فلو قست مسافة ما بينهم وبين الرسالة التى آلت إليهم لكانت بُعْدَ ما بين المشرقين!

كانوا فى عالمهم الحالم لا يدركون ما انتهوا إليه من ضعف فى أفكارهم، وفى أعمالهم، وفى وسائلهم، وفى معايشهم!

ولكن أعداءهم الأيقاظ لم يغفلوا عن هذا المصير، فوقفوا يتربصون بهم، ومعهم المعاول التى يحفرون بها قبره.

وهل غفل أعداء الإسلام يومًا عن الكيد له؟! إن الغزو الصليبى الأول ظل طيلة قرنين عنيدًا فى محاولاته اليائسة يبغى أن يجتث أصوله، فلما ارتد مدحورًا عاد أدراجه ليتأهب لا ليستريح. فلما كر بعد إعداد طويل لم يكن فى المرة الأخيرة وحده، بل كانت معه الصهيونية الحانقة، وقد حشدت اليهود معها.. نعم! اليهود!

قد تقول: ومن أين جىء بهم بعدما مزقوا شر ممزق، وحاقت بهم لعنة الله فنبت بهم البلاد، وأوغرت عليهم صدور العباد؟!

والجواب أن اليهود لم يفكروا منذ كسر الصحابة شوكتهم فى القرن الأول، أن يدخلوا مع المسلمين فى حرب ما، ومر أحد عشر قرنًا من تاريخ الإسلام، واليهود لا يخطر بأنفسهم - ولو مع الأمانى الطائشة - أن يدخلوا مع المسلمين فى حرب أبدًا، وكيف وحسبهم النجاء حيث كانوا؟ حتى رأوا بأعينهم الأمة المرهوبة

تضمحل، وتذوى فضائلها، ويذل جانبها، وتهز الفتن الماحقة كيانها، فعلموا أن أمرها أدبر، وأن غضب السماء إذا كان قد نزل بهم مرة، فقد نزل بعدوهم مرة ومرة.

ومن ثم تحرشوا بالمسلمين، ومازالوا يناوشونهم حتى اغتصبوا منهم فلسطين، ثم تمادى الغرور بهم حتى صاروا يزعمون أن أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل!

أرأيت كيف كنا وإلى أين انتهينا؟ فهل ظلمنا ربك؟ كلا. ولكنه أنزلنا على سننه الخالدة، كما أنزل غيرنا من الأمم.

إن الله لم يكره من اليهود أنهم دم معين، وإنما كره منهم أخلاقًا إذا تحولت إلى غيرهم تحولت معها الكراهية إليهم.

لقد انتصر السابقون الأولون من المسلمين لأخذهم بأسباب النصر المادية والأدبية، أما نحن فقد هزمنا لتركنا هذه الأسباب.

فقر فى العقيدة والأخلاق والأعمال

يظن الكثيرون أن العالم الإسلامى أصابه فى العصر الحاضر ما أصابه من ضعف وتقهقر لأنه فقير إلى بأس الحديد وحشد الجنود، ولأن أعداءه أكثر منه مالاً وأعز نفرًا، وذلك خطأ فإن المسلمين قد هانوا حقًا، ولكن لأنهم فقراء إلى العقيدة والأخلاق والأعمال، وأعداؤهم قد عزوا حقًا، ولكن لأنهم - ولا نفتات عليهم - لا يقلون غنى فى قواهم المعنوية عن غناهم المفرط فى قواهم المادية القاهرة، فإن إيمان هؤلاء الناس بما عرفوا من أوهام كان أرسخ من إيماننا نحن بما اعتنقنا من إسلام، وتضحياتهم لما اطمأنوا إليه من باطل أعظم من تضحياتنا فى سبيل ما ورثنا نحن من حق، ومتى التقى الحق الضعيف بالباطل القوى فى ميادين الكفاح الإنسانى فإن النتيجة المحتومة لا تتغير، وسنة الله فى خلقه لا تجعل الإيمان الضعيف - وإن كان حقًا - يغلب الإيمان القوى وإن كان باطلاً، وإن أقوامًا اتحدت أهواؤهم على الضلال لا يغلبهم أقوام تفرقت آراؤهم ولم يزدهم الانتساب إلى الهدى إلا تشتتًا:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

ولقد كانت الكتلة الكبرى من عامة المسلمين إلى أمد قريب سليمة القلوب قويمة الإيمان، حتى جاءت النهضة الأخيرة منذ نصف قرن فمالت بالناس إلى حيث لا يعرفون ولا يألفون، ولم تبال وهى تهدم الأوضاع القويمة أن تسلط معاولها على الخبيث والطيب منها ثم هى فى ثورتها على تأخر العقول أتت على ما وقر فى القلوب من إيمان طيب، فلما أرادت البناء تركت الأفئدة خرابًا وشحنت العقول بما لا يجدى من المعارف الفارغة وما دامت العقيدة القوية قد فقدت أو مرضت فإن آثارها من الأعمال العظيمة والأخلاق الكريمة لن يتحقق لها

وجود أو هكذا تصبح الأمة فقيرة لا إلى غيرها من الأمم ولكن إلى العقيدة الدافعة والأعمال الكبيرة والأخلاق النبيلة، فقيرة إلى الله لأنها بحاجة إلى دينه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. علـى حـين تجـد الأجـانب عندمـا فقـدوا هيمنة دين صحيح على نفوسهم اتخذوا من المبادئ التى اصطنعوها أديانًا وجعلوا من الإخلاص لها رقابة على تصرفاتهم كلها فأصبح القيام بالواجب وإحسان العمل وإرضاء الضمير أمرًا مفروغًا منه فى حسابهم، وبذلك استقامت أحوالهم أكثر مما تستقيم فى ظلال الحق عندنا؛ لأننا لا نعرف من الحق إلا اسمه! وفى ديننا ثروة من الأخلاق طائلة، ولكنها حبيسة فى الأوراق لا يكاد المجتمع يسمع عنها إلا العنوان البعيد عن حسه، الغريب عن سلوكه، بينما تفرض المبادئ القومية على أصحابها ضروبًا من الأخلاق تعجب وتروع، إن المدنية فى أوربا ترجم بأثقال من المهلكات وتذر فيها الغارات من ألوان الفواجع ما يملأ النفوس كآبة وظلامًا، ولكن الابتسام لهذه الكوارث لا يفارق الشفاه، والصبر على تحملها يستحق كل إعجاب، فلو أن كل جنازة صحبها ما نألفه نحن من ولولة النساء وحفلات القراء وذكريات الخميس والأربعين والعام وطول التفجع والأسى على حوادث الأيام لكان لحروب هؤلاء الناس شأن آخر، ولكنهم يعرفون أكثر مما نعرف معنى القول الحـق: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. والنشاط فى هذه الحياة والحركة المستمرة بين أرجائها أخلاق نحن أفقر ما نكون إليها، يروى أن رجلاً ممن ولدوا بالمدينة مات فيها فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا ليته مات بغير مولده**». قالوا: ولم ذاك؟ **قال** ﷺ: «**إن العبد إذا مات بغير مولده قيس بين مولده وبين منقطع أثره فى الجنة**». فأى الفريقين من الناس عمل بهذه الوصاة العظيمة: نحن الذين قبعنا فى بلادنا حتى طرقنا غيرنا فى دورنا أم أولئك الشياطين ممن جابوا الأرض شرقًا وغربًا حتى كشفوا مجاهلها؟ إن المسلمين قد يكونون فى أزمات مالية شديدة وفى ضوائق مادية عنيفة، ولكن الشىء الذى لا مراء فى صدقه أنهم

يعانون أزمة مستحكمة الحلقات فى القلوب لا فى الجيوب، وفى الأرواح لا فى الأجسام، إننا نعانى ضيقًا فى العقائد والأخلاق لا فى الأموال والأرزاق، وما كان لمؤمن أن يضعف فى هذه الدنيا وإن قل نصيبه منها أو يتراجع أمام شدائدها لضآلة حظه فيها ورسول الله ﷺ يعلمه أن: «**من أصبح آمنًا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فإنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**». ومن ثم وجب عليه أن يكون سابقًا فى كل ميدان، نوّالاً لكل خير، جريئًا فى كل عمل، موقنًا بأن عدة النجاح ليست فى المال المذخور والجاه الموفور، بل فى العظمة النفسية الكامنة والطاقة على مواجهة الحياة: «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**». إننا فقراء إلى العقائد التى تعمر صدورنا باليقين، وإلى الأعمال التى تدل على بعد الهمة ومضاء العزم، وإلى الأخلاق التى تدل على أن المعانى العظيمة أصبحت لنا عادةً ودأبًا، وتاريخ سلفنا الصالح حافل بالأمثلة التى تنبئ عن ثراء عريض فى هذا كله جعلهم ملوك الحياة وسادة الأرض: إن عدة النصر قريبة ولكن أنى لنا بها إذا لم ننتصر على أنفسنا! إن الذئاب لا تأكل أمثالها جرأة وافتراسًا، ولكنها تهاجم القطعان الوديعة فقط، وهؤلاء الذين انسابوا من بلادهم بدوافع من الاستغلال الدنىء لن يجدوا الفرصة سانحة لهم أبدًا فى أمة غنية بالعقيدة والأخلاق والأعمال وإن كانت مقترة فى المال والذخيرة والسلاح.

التضحية بين الشباب والشيوخ

قالوا: إن فترة الشباب أخصب مراحل العمر، وأجدرها بحسن الإفادة وعظم الإجادة، فهى القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.. وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

ومن ثم كان على المرء أن يقدم حسابًا عامًا عن حياته كلها، وحسابًا خاصًا عن طور الشباب وحده، فهو طور له خطره وأثره.. «**لاتزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟**».

والحق أن أمجاد المتفوقين، وأشواط الصاعدين إنما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عرامة إقدامه فى السبق والانطلاق، على أن الشباب وإن اكتنفته من طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد، فهناك رجال تظل وقدة الشباب حارة فى دمهم وإن أنافوا على الستين، لا تنطفئ لهم بشاشة ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتر لهم همة.

وهناك شباب يحبون حبوًا على أوائل الطريق لا ترى فى عيونهم بريقًا ولا فى خطاهم عزمًا، شاخت أفئدتهم فى مقتبل العمر، وعاشوا فى ربيع الحياة لا زهر ولا ثمر.

ومن الأخطاء تصور الشباب قدرة جسد وفناء غريزة، إن الشباب توثب روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

فترة الشباب فى حياة الإنسان هى أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الفائرة، لكنها ليست عهد العافية المكتملة فى البدن الناضج فقط، بل إنها ـ كذلك ـ عهد النزعات النفسية الجياشة، يمدها الخيال الخصب، والرجاء البعيد.

والأمم تستغل فى شبانها هذه القوى المذخورة، وتجندها فى ميادين الحرب والسلم، لتذلل بها الصعب، وتقرب البعيد.

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم.

وقد راقبنا الثورات التى اشتعلت فى أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام، فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها، وحملوا عبئها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع يخطون مصارع الأعداء، ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء.

ولايزال الشباب من طلاب وعمال وقود الحركات الحرة، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد، وجهة المربين والمرشدين، والزعماء الذين ينشدون مستقبلاً أزكى. ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوى عليه من دلائل الإيثار والتفانى ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام، وما فقدت من أمجاد عظام، فلا ينتهى هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبى الذى أخزانا فى ديننا ودنيانا.

بيد أن هناك رجالاً تأخرت بهم السن، وذهبت عنهم صورة الشباب، وتكاثرت الصلات التى تربطهم بالدنيا، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد فى قلوبهم تمسك بالشباب عن جلودهم وعظامهم، وتبقيه، بل تضاعفه، فى قلوب تنبض بالحق وتدفعه فى العروق مع الدم، فإذا أنت ترى منها بأس الحديد وجرأة الأسود، وترى رجالاً تستهويهم المغامرة، ويطيرون إلى التضحية فى سبيل الله أخف من الشباب الغض.. قد يقبل الشباب على المخاطر وسبل البذل أمامه ميسرة، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها، وإن قتل لم تبكه امرأة أيم ولا ولد يتيم!!

وخفة حمله من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب، أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت فى دمه نوازع النجدة.

أما البطولة الفارعة فهى أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب فى مناكب الأرض لرعايتها، ويسير فى الحياة وهو موقر بأثقالها، غير أنه - وهو الزوج المحب والأب الرحيم، والراعى المسئول - مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله، مخلص للدين الذى اعتنقه، مقدر للحقوق التى ارتبطت به، فإذا أحس للإسلام طلبًا سارع إليه ولباه بروحه وماله ولم تشغله أعباء الحياة التى يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التى آمن بها.

لكل دوافعه

تحدث المؤرخ الإنجليزى «ويلز» عن الإسلام فى كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» فقال: «كان مليئًا بروح الرفق والسماحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم، كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية فى الصحراء، وكان يستهوى الغرائز الغالية فى تركيب الرجال المعتادين، وقد وقفت ضده اليهودية ـ وهى التى اتخذت من الرب كنزًا تدخره لجنسها ـ ثم المسيحية، وهى تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث والمبادئ والهرطقات التى لم يكن ليستطيع أى رجل عادى أن يميز فيها الرأس من الذَّنَبِ، لم يكن الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام يهتمون إلا بشىء واحد، هو أن ذلك الرب الذى يبشر به الرسول كان ـ بشهادة ضمائرهم ـ رب صلاح وبر، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته، يفتح الباب على مصراعيه على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة، وسط عالم ملىء بالتقلقل والخيانة والانقسامات الناضبة من التسامح، وقد أوصل محمد هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أى رمزية مبهمة، ودون أى تعتيم للهياكل، ولا ترتيل للقساوسة».

وفى حديثه عن الفاتحين يقول:

«التقوا بجيوش كبيرة منظمة، ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها ولم يحدث فى أى مكان ما يسمى بالمقاومة الشعبية، فإن سكان الأراضى الآهلة لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أن يدفعوا الضرائب إلى «بيزنطة» أو «برسيبوليس» أو «المدينة»، فإذا فاضل الناس بين البلاط الفارسى والعرب ـ يعنى السلف الأول ـ كان العرب أنظف الطرفين وأطهرهما، كانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة، وقد انضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة، وكذلك اليهود، وكما كان الحال فى الغرب ـ يعنى جبهة الروم ـ كان كذلك فى الشرق، إذ تحول الغزو إلى ثورة اجتماعية، ولكنها كانت هنا ثورة دينية لها «حيوية ذهنية جديدة متميزة»».

ثم عدت الليالى على الإسلام، فانكمش بعد امتداد، وأمسى أهله قليلى الفقه فيه، ضعفاء الأخذ به، فتراجعوا عن مراكز التوجيه التى احتلوها آنفًا، وفقدوا المزايا التى رجحت كفتهم على غيرهم من الدول الكبرى، والصلاحية لقياد

الأرض لا تنال بزعم ولا وهم، فهى - قبل كل شىء - قدرة ذاتية على السبق تدعمها ميزات فريدة عقلية وعاطفية. ولقد انتقلت هذه الصلاحية عن المسلمين منذ فترت علائقهم بدينهم، وبعد أن كانت الحياة تتدفق من بلادهم فتهب العافية للمرضى، أصبحوا هم أنفسهم فقراء إلى من يأخذ بأيديهم نحو القوة والعلم والثراء! وامتلك الغرب الزمام المهمل، وتهيأت له الأسباب، فبسط سيطرته على العالم ووقع المسلمون بقضهم وقضيضهم - كما وقع سائر أقطار الدنيا - فى براثن الاستعمار الغربى الجديد، وهناك ظاهرتان بارزتان فى صلة هذا الاستعمار بالأمم التى دانت له: أولاهما: أن دواعى الفتح والإخضاع والاستكشاف كانت مادية بحتة، لا مكان فيها إلا للنفع الشخصى أو الدولى، أما الباعث المثالى الذى اقترن به الفتح الإسلامى الأول فلا أثر له البتة فى هذا الغزو الحديث. البحث عن الثروة، أو الأمجاد الخاصة، أو بسط النفوذ المجرد على أوسع مساحة من الممتلكات، والعمل على تحويل البلاد المفتوحة أو المكتشفة إلى مزارع غاصة بالعبيد المسخرين لتصدير المواد الخام، تلك كلها طابع الفتح الأوربى الذى نجح فى إخضاع العالم له، نجح فى التهام خيراته، ونجح فى تحويل الجهد البشرى المبعثر فى القارات الكبرى إلى أداة تصدر له المغانم وهو هادئ ناعم، وقد تطاحن الفاتحون فيما بينهم على الاستئثار بهذه الأسلاب، ثم تهادنوا على اقتسامها، ثم هاجت بينهم المطامع فعاودوا الحرب.

ولاتزال دوافع الشر تثير الحروب العالمية بين المستعمرين، ما إن تهدأ حتى تندلع، وسرها ما علمت، هو عراك الوحوش على أشلاء الفريسة! والظاهرة الثانية فى الفتح الأوربى: أنه إذا دخل بلدًا ما فوجد فيه شعبًا مظلومًا، ونظامًا فاسدًا، وطبقة حاكمة باغية، دعم جانب البغاة وأبقى أسباب الفساد، وأوصد الأبواب على الجماهير المضطهدة، على عكس السيرة التى انتهجها الفتح الإسلامى الذى كان يقصى الطغاة أول ما يدخل، ويزيح العوائق أمام الشعوب لتتحرك وتتنفس وتنتعش، ويضع الخطة ليكون الفاتح أخًا فى الحقوق والواجبات مع صنوه الرومى أو الفارسى، والنزاع العنيف القائم بين البلاد المحتلة والمستعمرين الأجانب يرجع إلى نزعات الأثرة الفاحشة التى يصدر عنها أولئك المستعمرون.

فالشعوب تريد أن تصلح شأنها وتستعيد حرياتها، وتنتفع من خيراتها، إنها تتلوى وتتأبى على القيود التى كبلت بها، وتحاول بشق الأنفس أن تنال قسطًا



أكبر من الكرامة والهناءة التى حرمتها. بيد أن الفاتحين الأوربيين حرصوا كل الحرص على تأخير البلاد، وتحقير أهلها وإبقائها أبدًا فى منزلة التابع الذليل المحتاج من سيده المعتز بقوته، المُدِلِّ بجاهه ومعرفته، ولو ألقينا نظرة عجلى على الأحوال التى تسود العالم اليوم لرأينا الدول الكبرى والدول الضالعة معها تحارب التقدم والتحرر فى كل مكان، وتتضافر على إبقاء نصف العالم أو أكثر فى منزلة مهينة.

تـــاريـــخ مـلـــوث

حرب الأفيون شنتها إنجلترا لاستعمار الصين، واستطاعت بتفوقها العسكرى أن تقهر هذه الأمة الكثيفة، وأن ترغمها على فتح بلادها لاستقبال الأفيون الإنجليزى، ينقله القراصنة إلى المستضعفين المنكوبين من أهل تلك البلاد.. قالوا:

«وقد أتاح امتلاك جزيرة «هونج كونج» للبريطانيين مركزًا ملائمًا لجمع الأفيون وتهريبه تحت الراية الإنجليزية، وبذلت جهود فى الوقت نفسه لكى توافق حكومة الصين على أن يكون استيراد الأفيون عملاً تجاريًا مشروعًا، فكتب «لورد بالمرستون» إلى المندوب البريطانى فى الصين يأمره بالسعى إلى عقد اتفاق مع السلطات الصينية تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة من السلع التجارية، وعرض هذا الاقتراح فعلاً على الإمبراطور وطلب منه - على سبيل الإغراء - أن يفرض رسومًا جمركية عالية على الأفيون المستورد.

فرد الإمبراطور بقوله: «لقد أكون عاجزًا عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى بالرغم منى، لأن فى الناس من تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى، ولكن ليس فى العالم قوة تستطيع أن تغرينى بأن أستمد للدولة إيرادًا من تسميم شعبى ونشر الرذيلة فيه».

هذا هو الرد النبيل الحاسم الذى أدلى به إمبراطور الصين، وما على القارئ إلا أن يقارن بين كلمات «لورد بالمرستون» الوزير المسيحى المتمدن وبين كلمات الحاكم الصينى المتأخر عن ركب الحضارة، لكى يدرك إلى أى درك ينزل الاستعمار بالنفوس التى تدعى النبل والصلاح.

ولماذا نذهب إلى تاريخ قديم ننبش فى رماده عن مآسى إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول التى بطرت فى الأرض من طول ما تشبعت وتوسعت؟

إن الصحائف التى سودها الماضى الغابر لايزال الحاضر القابض يشيع فى جوانبها الحداد والمآتم.

بيد أن المزاعم الموغلة فى الافتراء هى التى تستثيرنا، أو ليس مما يحملك على

أن تقلب يديك عجبًا أن تسمع مع هذا التاريخ الملوث أن أوربا تنشئ الحريات وتنشرها حيث ذهبت؟

ذلكم ما يثرثر به الساسة الإنجليز والفرنسيون، ثم يجيء دور الغزو العلمي بعد الغزو الحربي، فلا يكتفي بنشر هذه الخرافة، بل يعمد إلى تاريخنا نحن المسلمين يبغي أن ينال منه.

عندما ذهب «سعد بن أبي وقاص» ليقود المسلمين وهم يغزون بلاد كسرى أوصاه «عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: «يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله وصاحبه! فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين».

ولما اشتبك سعد بجحافل الفرس وتكالبوا عليه وخشي بطشهم أرسل إليه عمر رضي الله عنه يقول: «لا يَهُولَنَّك كثرة عددهم وعدتهم فإنهم قوم خدعة مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم وأدّيتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لم يجتمع لهم شملهم أبدًا.. إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم».

فالأمر ليس أمر جيش يريد نشر الأفيون ليمرض به أمة، فيتمكن من احتلال أرضها ومالها، بل إنه أمر قبيل من الناس لهم حظ من الخلق الرفيع لن ينزلوا عنه أبدًا، همّهم الأول والأخير أن يؤسسوا حضارة تحفظ بها الأمانات، تكفل الحقوق وتتكافأ الدماء والألوان، فلا يفضل أحد أحدًا إلا بالتقوى، ولو كان الفاضل زنجيًا والمفضول أمس الناس رحمًا بصاحب الرسالة نفسه.

ويفسر هذا ما روى من أن قائد الفرس بعث إلى «سعد» يطلب منه رجلاً عاقلاً ليفاوضه في مطالب العرب، فبعث إليه «المغيرة بن شعبة»، فلما قدم عليه قال رستم: «إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول في بلادنا».

فقال المغيرة: «إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله

إلينا رسولاً قال له: إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم لهم منهم، واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز». فقال له رستم: «فما هو؟».

فقال المغيرة: «أما عموده الذى لا يصلح شىء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله».

فقال: «ما أحسن هذا.. وأى شىء أيضًا».

قال: «وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله؟».

قال: «وحسن أيضًا، وأى شىء بعد؟».

قال: «والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم».

قال: «وحسن أيضًا» ثم استأنف رستم: «أرأيت إن دخلنا فى دينكم أترجعون عن بلادنا؟».

قال: «أى والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة».

قال: «وحسن أيضًا».

ويبدو أن الإسلام ومبادئه الجميلة وجدت قبولاً من نفس القائد الفارسى إلا أن رؤساء الدولة أنفوا من متابعة هذه الدعوة وهم الملوك المترفون والسادة المرموقون، وكانت الأخرى، وكتب الله النصر للمؤمنين والحرية للمستضعفين والخزى على الجبارين.

سَلْ ملوكَ الأرضِ عن دنيا الغُرورْ
فى الملاهى خلفَ أستارِ الحريرْ!
زَلْزَلَتْهمْ بينَ أبراجِ القُصورْ
ضربةٌ من سهمِ عريانٍ فقيرْ!

أين هذه الصحائف المشرقة بالمبادئ، والتجرد والإخلاص لله، مما صنع ويصنع المستعمرون الغربيون وأمريكا!

سياسة التدليس والنفاق

إن الحضارة الأوربية فى ميدان الكشوف المادية، والبحوث العقلية، وصلت إلى حد لا يتجاهل خطره، ولا يغمط قدره، وهى من هذه الناحية تعتبر ارتقاء إنسانيًا كبيرًا، ويجب أن نسجل لها هذا التقدم الذى بزت به القرون الأولى قاطبة. لكن أتراها بلغت عشر هذه المنزلة فى صلاح الضمير ونصاعة الخلق؟ كلا كلا.. إن الوحشية والقساوة التى اقتربت بزحف التتار والرومان لم تفارق الاستعمار الغربى الجديد، غاية ما تبدل أن الغزاة المحدثين نظموا وسائل السطو وزينوها وخدروا مواضع الألم بقدر كبير من المباذل والشهوات الوضيعة، ولم يعرف العالم فتحًا أنظف يدًا وأنبل سلوكًا، وأسلم عقبى، من الفتح الإسلامى القديم، إن الاستعمار الحديث بدأ سطوًا واسع النطاق على بلادنا، واللص الصغير إذا ضبط متلبسًا بجريمته لم يجد بدًا من الاعتراف بها، والانتظار ـ فى خزى ـ للعقوبة المترتبة عليها، أما دول الغرب التى دفعت بعصاباتها لاحتلال أرضنا، واستلاب حقنا، فهى تجد من القحة ما يجعلها تمارى فيما اقترفت من نكر، بل إنها قد تبرر فعلتها بما يقلب الأخذ عطاء، والباطل حقًا، ولا عجب فكلمة الاستعمار نفسها لا تعنى إلا التخريب والدمار، وإن كان بناء الكلمة على نقيض مدلولها الذى نكبت به أقطار شتى، وقد نشأ عن ذلك أن الدول الغالبة بنت سياستها على التدليس والنفاق، وأقامت علائقها ـ بين بعضها والبعض الآخر، ثم بينها جميعًا وبيننا نحن المكافحين ضد العدوان ـ أقامتها على أسلوب طويل من التصنع والتمويه والدجل يريد ليلبس مخالب الوحش قفازًا من الحرير الناعم! ثم سخرت لبلوغ هذه المآرب جيشًا من المستشرقين والمبشرين ورجال القلم واللسان، مكن للغزو العسكرى بالغزو العلمى، ومن ثم استطاع الغرب القاهر أن يحتل البلاد والأجساد والأفكار. والغزو العلمى أخطر من الغزو العسكرى، فإن الغزو العسكرى يقيد جسمك وأنت ساخط تحتال للخلاص! أما الغزو العلمى فهو يملك البدن، ويجتاح الروح، ويجعل المهزوم عبدًا ودودًا للمنتصر الماكر، إنه يخلعه عن الإعجاب ببلاده ودينها وتقاليدها، إلى الإعجاب بالفاتح ودينه وتقاليده، إنه يزلزل الثقة فى حاضر الوطن ومستقبله، ويغرى بالركون إلى الغاصبين والارتباط بهم فى حاضرهم ومستقبلهم، ودول الغرب دائبة على هذا الغزو اللئيم تبريرًا لآثامها

وتمكينًا لأقدامها، وقد أغراها النجاح الذى استحوذت به على بعض الهمل، فمضت فى خطتها تحاول أن تجعل من وجودها فى بلادنا أمرًا مألوفًا، وكأنها بهذه اللجاجة تظن أن جرائمها الفاحشة نسيت أو يمكن أن تنسى. وينبغى أن نضع أمام أعيننا صورًا كئيبة دامية للطريقة القذرة التى سار عليها الغرب وأمريكا وغيرهم فى استعمار نصف العالم أو يزيد، وكيف يصرون إلى هذه الساعة على استئناف ما بدأوا به من سلب ونهب. ذكر الدكتور محمد عوض فى كتابه «الاستعمار» كلمة للكاتب الفرنسى الشهير «مونتسكيو» جاء فيها: «إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدًا فإنى أقول إن شعوب «أوربا» بعد أن أفنت سكان «أمريكا» الأصليين لم ترَ بدًّا من أن تستعبد شعوب «إفريقيا» لكى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة كلها. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطسًا شنيعًا، ويكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها فإنه لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى، وهو ذو الحكمة السامية، قد وضع روحًا أو على الأخص روحًا طيبة داخل جسم حالك السواد»! ثم يقول الدكتور: «ومن المفيد ألا نمر بعبارة «مونتسكيو» هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على السخرية المجردة، فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها كانت مظهرًا من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده، ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات، بل لقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل، وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين مناعة منها، ومن أهمها مرض الحصباء، فكانوا يوصون بأن يمكن الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغطية التى كان يستعملها المرضى بهذه الحمى، ويرون هذا الإجراء متفقًا كل الاتفاق مع الدين». ولا ريب أن عيسى بن مريم وأمه بريئان من هذا العمل الدنىء، وأن الله لم ينزل فى دين من الأديان وصاة بإهلاك الحيوان بل الإنسان على هذا النحو السافل، ولكن «أوربا» تستغل دينها ورجاله فى محاربة الشعوب وتجريعها الغصص.

تـاريــخ قــريــب

إن هناك تقدمًا كبيرًا فى أقطار الغرب ما يستطيع عاقل نكرانه، وهو تقدم أحرزته هذه الأقطار رويدًا رويدًا، لم تبلغه طفرة، بل لم تكسبه إلا ثمرة جهد شاق، وقد بدأت كفاحها لتحصيله منذ خمسة قرون تقريبًا، ومهما عبنا الحضارة التى أثمرها عصر النهضة الحديثة فى بلاد الغرب ـ لأن ما أصابنا من شرها سبق ما لنا من خيرها ـ فإننا لن ننكر الأصول العقلية الجليلة التى مهدت لهذه الحضارة، ومشت معها شوطًا بعد شوط، وقد تكون حضارة الغرب فقدت فى هذه الأيام عناصر كثيرة من أسباب نموها وازدهارها، إلا أنها ـ والحق يقال ـ لاتزال سيدة الموقف، لا لشىء إلا لأنه لم يوجد بعد من ينافسها على قيادة العالم، ومن يثبت جدارته على أخذ الزمام منها، والسير بالقافلة فى سبيل أقوم، وإلى غاية أسلم، ويوم يوجد هذا العوض الطيب، فإن الحياة سوف تتحول إليه طوعًا أو كرهًا، أما قبل ذلك، فإن الطامحين إلى القيادة دون حمل مؤهلاتها لن يجدوا مكانهم إلا فى المؤخرة. إننا ـ نحن مسلمى هذا العصر ـ قد برزنا إلى الوجود لنجد أمامنا تركة مثقلة. طويت راية الدولة الكبرى، وقسم ميراث الرجل المريض بعد موته على الغزاة، فأمست أمة الإسلام مزقًا مفرقة، يتشبع كل فاتح من استغلال نصيبه فيها. فلما حز الألم فى نفوس المأكولين، ورأوا أن يتخلصوا من هذا الموت البطىء المقنط، إما بموت مجهز، أو حياة صحيحة، شبت ثورات التحرر فى أنحاء الشرق المهزوم، وكانت ثورات شجاعة محنقة لا ترهب قوى العدو، ولا يردها عن التمرد الدائم ما تعلمه عن نفسها من ضعف الجانب، وقلة الناصر، وتفاهة السلاح، وشاء القدر أن يكافئ هذه الشعوب الساعية لكسر قيودها، فأعانها على تحقيق آمالها، والفكاك من قيده، وظلت تلك الشعوب تلعن العبودية، وتطوى الجوانح على غلٍّ مكين للغرب الذى قدر فقهر، وملك فسفك. أما عمل الإيمان الصحيح وراء المقاومة المستميتة ضد عدوان الغرب المسلح، فأمر لا مرية فيه، هى ثورات قومية فى عنوانها، وطنية بحتة فى شكلها البارز، لكن الحقيقة أن بقايا ضخمة من مواريث الإسلام فى العزة والإباء والتضحية والفداء، هى التى ساقت الجماهير الغفيرة إلى مقاتلة المحتلين الغاصبين وزودت بطاقات هائلة من المصابرة والثبات كانت وحدها مناط الأمل، وطريق النصر، وثورات التحرر التى أشعلها الشعب التركى

واستغلها مصطفى كمال استغلالاً سيئًا، أو التى أشعلها الشعب المصرى فى ذلك الحين واتجه بها سعد زغلول اتجاهه المعروف، هذه الثورات كان الإسلام مهادها وبناءها، بيد أنه حُرِم ثمارها حرمانًا مؤسفًا، ولعلنا نقرر الواقع الأليم حين نذكر أنها استحالت بلاء عليه. وقد تتساءل: ما سر هذا الانقلاب؟ والجواب أن الصورة التى ارتسمت فى أذهان بعض القادة عن الإسلام وتعاليمه، وعن الحضارة الغربية وأساليبها الجديدة خيلت لهم أن نبذ الماضى بما يحمل فى أطوائه أجدى عليهم، وأن تقليد الحضارة الجديدة والأخذ عنها جملة وتفصيلاً هو النهج الفذ للرقى والنجاح، وهم ضحايا خدعة مظلمة ظالمة، فقد قلنا: إن النهضة الحديثة فى الغرب بدأت سيرها من خمسة قرون كان الشرق الإسلامى إبانها يتدحرج هابطًا من مكانة إلى أخرى دونها حتى كأنه ينزلق من درج سلم، فلما كانت مطالع هذا القرن، بلغت حركات الصعود والنزول مداها، واستوى الغرب فى القمة، واستقر الشرق فى السفوح وأنشب الغالب أظافره فى عنق المغلوب، يريد إما أن يفترسه، وإما أن يهبه حياة الرقيق الذليل، إلا أن عناصر الشر فى دم الغالب أخذت تنزل به عن القمة التى بلغها، وعناصر الخير فى دم المغلوب أخذت ترفعه من وهدته قليلاً قليلاً، وليس بمستغرب أن يشرد قوم فى أثناء محنتهم فيطلبوا النجاة من مواطن العطب.

يُقضَى على المرءِ فى أيامِ مِحْنَتِهِ
حتى يَرَى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ

وذاك شأن نفر من القادة، هرعوا إلى الغرب يلتمسون من ربوعه الخير والبركة، وليت الأيام صدقت ظنونهم، فنحن نحب النفع من أيسر سبله.

إن الغرب يأخذ كثيرًا ويعطى قليلاً، يأخذ راغبًا ويعطى كارهًا، وعطاؤه الممنون ممزوج بالسم، قلما يفيد منه إلا رجل حاذق يمسك ما يجديه ويدع ما يضيره.

رجـــــال ملهـمــون

الحضارة التى تسود العالم اليوم اعتمدت فى منطقها العلمى على الخُلاصات الصحيحة من الفكر الإسلامى الناضج، وهو فكر انفرد بزمام العالم دهرًا طويلاً كما تنفرد حضارة أوربا اليوم بتوجيه الناس، والعلم لا وطن له ولا جنس، وهو يتنقل بين الأوطان والأجناس تنقلاً مطردًا، وهيهات أن يخلد فى بقعة من الأرض، أو يحتكره قبيل من الناس.

وربما استغلت النصرانية غَلَب أوربا، فاندفعت وراء جيوشها الغازية، وربما أوهمت أن هذا التفوق صنع يدها، وقطاف غرسها، غير أن شيئًا من هذا لا ينطلى على أحد، فإن أقطار الغرب لم تحسن المسير فى مضمار الحضارة حتى فصلت العلم والاقتصاد والحكم عن الكنيسة، ولو بقيت مرتبطة بها لظلت أوربا على أحوالها القديمة التى لازمتها خمسة عشر قرنًا، وهى أحوال لا يحمدها ذو حجا، ولا يطلب العودة إليها أحد.

وأشهد أن العقل الغربى أنظف جدًّا من الضمير الغربى، لقد اقتبس فأحسن، وقلد فأجاد، ثم أنمى وابتكر، واستكشف فبهر، وفتوحه فى استخدام قوى الكون لا تقل عنها براعته فى تنظيم شئون العمران.

والمشدوهون لهذا التفوق لا ينتظر منهم غير التسليم لنتائجه، فلا جرم أنهم مولعون باتباعها مُغْرَوْنَ بالانقياد لها، وكما يمدون قضبان السكك الحديدية ويركبون عرباتها من مصانع الغرب، ينقلون مناهج السياسة وأنظمة المجتمع وطرائق الحكم من تفكير الغرب أيضًا.

وأعان على ذلك، القصور الشائن الذى ران على الجبهة الإسلامية، فإن الرجال المتحدثين عن الإسلام فى القرن الماضى، وحين اندلاع ثورات التحرر من أربعين عامًا لم يكونوا على فهم يذكر بالكتاب والسنة، أهملوا خدمة الشريعة فهزمتها القوانين الموضوعة، وظل الإسلام يتقهقر فى ميدان الحياة العامة، حتى كاد يقضى عليه بالموت.

ولولا رجال قلائل من الملهمين الأحرار لدرست معالم الدين، نذكر منهم جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعبدالرحمن الكواكبى، وحسن البنا.

وقد أسائل نفسى: لو أن «جمال الدين» عاصر مصطفى كمال فى تركيا، أكانت نهضة القائد المنتصر تميل عن الإسلام هذا الميل؟ أو لو كان «محمد عبده» العالم الثائر أو «حسن البنا» المربى النابه، لو أن أحدهما صاحب الثورة الكبرى سنة ١٩١٩، أكانت تأخذ اتجاهها المدنى المحض مبتوتة الصلة بآلام الإسلام وآماله؟

إن القصور الشنيع فى أفكار علماء الدين ورؤساء الجماعات الإسلامية يومئذ جر على الإسلام هزائم متلاحقة، وجعل بضاعته أمام الأبصار المتطلعة مزهودة كاسدة.

ولم تقف الحياة حتى يستخلص الكسالى من تعاليم الإسلام تشريعًا جنائيًّا، أو تجاريًّا، ونظامًا اجتماعيًّا أو سياسيًّا، كلا.

لقد تطلعت إلى المورد المتاح حين عز عليها المورد الأصيل، ومن ثم تأخر الإسلام وتقدمت قوانين وتقاليد وأنظمة أخرى.

وظهر حسن البنا يقود بعثًا إسلاميًّا ناجحًا، واستطاع الرجل الكبير أن يسد مسد جيش من الدعاة الأذكياء والمربين المخلصين الأوفياء، وقد أفلح فى تبديد الغيوم الكثيفة التى تراكمت حول صلاحية الدين لقيادة الحياة، وكون جيلاً من الرجال الذين يؤمنون بهذه الحقيقة.

وقد قتل الرجل وهو - إلى الرمق الأخير - ينفخ فى المسلمين روح الحياة ويجدد فى نفوسهم عنوان الأمل والكفاح.

وإنى أعترف - رادًّا الفضل لأهله - بأنى واحد من التلامذة الذين جلسوا إلى حسن البنا، وانتصحوا بأدبه، واستقاموا بتوجيهه، واستفادوا من يقظاته ولمحاته.

ولكنى - وهذه طبيعتى - كنت آخذ منه وأدع، وأتبعه وأجادله، ويرى منى الرضا والنقد، على أنى يوم قتل كنت أعنف الناس غضبًا لمصرعه، حملة على خصومه، وسعيًا وراء القَوَد الواجب.

إن الذباب الذى يطن حول العظماء كثير، أما الرجال الذين يقدرون رسالاتهم نفسها فما تراهم إلا على ندرة.

وتهمة القصور التى رمى بها الإسلام احترقت فى حرارة الجهاد الذى تجشمه هؤلاء القادة وهم يكتبون ويخطبون ويعلمون ويؤدبون، ثم وقر فى الأذهان أن الإسلام ليس فقط صالحا كغيره لقيادة الحياة، بل إنه أصلح وأحق من سائر المذاهب والفلسفات الأخرى.

مـوت الأبطـال فـى الطريـق

مما رمتنا به عصور الطراوة والانحلال، هذه الفكرة السخيفة عن طرائق الموت، فالميتة بين جدران البيت وأحضان الأهل، من دلائل ستر الله، والميتة على قارعة الطريق أو فى حادثة دامية، من مظاهر سخط الله.

ومن أيام، قتل عالم كبير تحت عجلات قطار، فسمعت رجلاً من الدهماء يقول: الله يرحمه كان شيخًا صالحًا، وما كان أهلاً لهذا المصير المحزن.

فنظرت إلى القائل - فى استنكار - وأسفت لأن هذه السوأة الخلقية والعقلية تشيع فى زماننا هذا، وتنطق بأننا أجهل الناس فى فقه الرجولة، وفقه الإيمان معًا، ولو درينا لعلمنا أن مصرع المؤمن من أى صدام، مع الأشخاص أو مع الأشياء من آيات القبول وأمارات الصلاح.

وإن سلفنا الصالحين كانوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تثوى جثثهم ممزقة فى حواصل الطير وأجواف الوحوش، وهم هلكى، لا بين أحضان الأهل الباكين والأحباب المواسين، ولكن فى وحشة الصحراء ورحاب الميادين، أو فى أى أفق مبهم من أغمار الدنيا.

هكذا مضت سنة الإيمان منذ أُبرم عَقْدُ الجنة ووصف الله من وقَّعوا عليه بأنهم يَقتلون ويُقتلون.

وهكذا مضت سنة الرجولة من قديم الزمان، فاعتبرت موت الرجل بين أهله معرة.

الأحرار، وحملة العقائد وأصحاب المثل وسدنة الشرف والمكرمات مصارعهم تحمر بها صحائف التاريخ، ويلبس الشفق القانى ثوبه الأرجوانى منها، وبذلك المعنى هتف الشاعر القديم:

وإنّـا لَـقَـومٌ مـا نَـرَى الـقـتـلَ سُـبَّـةً
إذا مـا رأتـه عـامـرٌ وسَـلُـولُ

ومـا مـات مِـنّـا سَـيِّـدٌ حـتـفَ أنـفِـهِ
ولا طُـلَّ مـنـا حـيثُ كـان قَـتـيـلُ

أجل هذه شارات السيادة؛ لا يموت الرجل حتف أنفه، ولكن يموت فى عرصات الوغى.

لما قتل الأمويون مصعب بن الزبير، قام أخوه عبدالله فخطب الناس فكانت خطبته تعبيرًا لبنى أمية أنهم يموتون على فرشهم أما آل الزبير فقد كفنوا فى دمائهم بطلاً من بعد بطل.

وخطب أبو حمزة الخارجى يصف رجاله، وكيف جندلتهم المنايا واستهلكهم صدق الجهاد، فكان من كلامه فى لقائهم الحتوف: استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلف رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء.

فكم من عين فى مناقير طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله.

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله.

فانظر مصاير أولئك الشباب كيف خطها القدر؟

وكيف تذكر فى سياق الدلالة على حب الله والتفانى فيه؟

إن أولئك الشهداء المستميتين فى محاربة البغى، الذين رضوا أن تدق أعناقهم قبل أن تدق على أبواب الإسلام يد آثمة، وأن تمزق أعضاؤهم قبل أن يتمكن من الكيد لدين الله كافر سافر أو منافق خناس.

إن أولئك الشباب الهلكى، المبعثرة أحشاؤهم ومشاعرهم هنا وهناك، سوف تجمعهم القدرة العليا بكلمة واحدة، فإذا الجبين المشجوج ناصع مشرق، وإذا العين المفقوءة حوراء مبصرة، وإذا الجثة الممزعة بشر سوى.

وفى الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ كان «دريد بن الصمة» يفخر بأن لحم أسرته طعام السيوف، وأن القتل استهدفهم لأنهم استهدفوه، وتلك شيمة العظماء.

أرأيت سيماء الرجولة كيف برزت ملامحها المصقولة فى عهود الجاهلية؟ ثم كيف هيمن الإسلام على هذه الخلال القوية فجعل العقيدة سنادها، والإخلاص شعارها حتى استحالت تحت لوائه قذائف تنطلق من مكامنها لتنفجر فى مستقرها، فإذا هى تهد ما تعالى من حصون الكفر والطغيان وتقر ما طورد من عناصر الحق والإيمان؟

غيبــــة وبهتــان

التحريش بين المسلمين، وتعميق الجراح فى الجسم المثخن، عمل تقوم به الآن فئات كثيرة، وتسخر له أقلام شتى بأسلوب ماكر.

هناك من يقول: الفلسطينيون خونة .ومن يقول: أهل العراق أهل النفاق والشقاق. أو من يقول: الكويتيون خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. ومن يقول: المصريون فراعنة إذا قدروا، وعبيد إذا عجزوا. ومن ومن... إلخ.

وتلك كلها كلمات ماجنة، أحسب أن مروجيها مأجورون لجهات أجنبية تكيد لأمتنا وتود لها العنت، وسواء ألقيت كلمات عابرة أو نكات ساخرة فأثرها القريب والبعيد خطير على وحدتنا، وتماسكنا فى هذه الأيام العصيبة.

لقد حرم الإسلام البهتان والغيبة، وعدّ كليهما من الكبائر، والبهتان اختلاق العيوب ورمى الأبرياء بها، أما الغيبة فهى التحدث بعيب موجود مادى أو أدبى، على سبيل التنقُّص والفضيحة.

وعند التأمل فى نصوص الشريعة نجد التحريم يتناول ما يجرى على ألسنة الأفراد من إثم يراد به إساءة امرئ فى نفسه أو أسرته، لكن الذى يقع الآن يمكن تسميته غيبة جماعية أو افتراءً جماعيًّا، الغاية منه إهانة شعوب كبيرة وتوهين أواصر الوحدة الكبرى التى تلمها، وإعادة العرب إلى الجاهلية التى ردم الإسلام مآثرها ورفض منافراتها.

أى إنها غيبة مركبة، أو رذيلة مضاعفة، ونتائجها إيغار الصدور، وتقطيع الصفوف، وإظلام المستقبل.

ولن يستفيد من هذا العمل إلا أعداء الإسلام والحريصين على تمزيق أمته وإضاعة جماعته.

إن هذا السفه المنكر غيّر تاريخ الأمة العربية على نحو هائل مزعج، واليوم يراد أن يتحول الخصام الحكومى إلى عداوات شعبية، تضيع فيها قضية فلسطين، وينهار فيها البيت العربى الكبير، وترث أجيال كراهية أجيال، وتذهب وصايا الله

فى جمع الكلمة هباء «**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**».

عندما أصف واقعًا سيئًا لإنسان أو لجماعة على نحو طائش، فليس يغنى عنى أنى أقول الحق، ففضح البشر ليس كلأً مباحًا، نعم عندما أذكر أحدًا بما يكره، فلا يقبل عذرًا لى أن أقول: لقد قررت الحق.

ولا بأس أن أذكر هنا قصة ماعز الصحابى الذى قتل لارتكابه جريمة الزنى، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء ماعز الأسلمى إلى رسول الله ﷺ، فشهد على نفسه بالزنى أربع شهادات يقول: أتيت امرأة حرامًا. وفى كل ذلك يعرض عنه رسول الله ﷺ. فذكر الحديث إلى أن قال الراوى: قال رسول الله لماعز: «**فما تريد بهذا القول؟**». قال: أريد أن تطهرنى. فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم، فرجم، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه، فلم يدع نفسه حتى رجم رجم الكلب.

قال الراوى: فسكت رسول الله ﷺ ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار، فقال: «**أين فلان وفلان؟**» فقالا: نحن ذا يا رسول الله. فقال لهما: «**كُلا من جيفة هذا الحمار**». فقالا: يا رسول الله، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، من يأكل من هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: «**ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفًا أشد من أكل هذه الجيفة، فوالذى نفسى بيده إنه الآن فى أنهار الجنة**».

يقول الله تعالى فيمن يختلقون المعايب ويرمون بها الناس: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

وأشعر أحيانًا أن الغيبة قد تكون أنكى من البهتان، فإن المفترى يمكن كشف كذبه وجره إلى القضاء ليلقى عقابه، أما الذى يعيب شخصًا أو قومًا بسيئة هى فيهم ليسقط مكانتهم فهذا هو الذى يخاف شره، ويتقى ضره.

والمطلوب من أهل الإيمان أن يستروا الزلل لا أن يشيعوه، وأن يعينوا العاثر ليقوم، بدل أن يزيدوا هاويته عمقًا لتبتلعه.

نعم الله الكبرى على اليهود

قد تكون نعمة الله على أمة ما بالتمكين والنصر، كفاء ما حملت من عناء وأبدت من صبر، وعندئذ تبقى هذه النعم ما بقيت الأعمال التى أهلت لها والأحوال التى قادت إليها، إن الرجل إذا حصل على منصب كبير بمواهب عرفت له وكفايات قدرت فيه فهو مقيم فى هذا المنصب ما ظل مطيقًا لأعبائه، قائمًا على حقوقه، موصول الماضى والمستقبل بالجد والإخلاص، أما إذا وصل المرء إلى القمة ثم فقد القدرة على الصعود فإنه سوف ينحدر عنها حتمًا ليعود من حيث أتى. إن المحافظة على المجد ليست أيسر من بلوغه، بل قد تكون استدامة النعمة أصعب من تحصيلها، ألا ترى الثمرة قبل بدوها تحتاج إلى جهود متلاحقة فى غرسها وسقيها وتعهدها، حتى إذا نضجت احتاجت إلى جهود أخرى فى المحافظة عليها من آفات العفن وأسباب التلف، وشر ما يعترى النعم بعد اكتمالها أن يحسب أصحابها أنها جاءتهم اتفاقًا من غير مبررات أكسبتها ولا مقدمات ساقتها، أو يحسبوا أنهم نالوها بمحاباة من الأقدار أو اختصاص مبهم أو بدعوى العظمة الكاذبة والاستحقاق الباطل، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.. هذا كله يجتث أصول الخير ويستعجل نقمة الملك الأعلى، لقد ذكر القرآن بنى إسرائيل فى آيات شتى فأبان أنهم بلغوا من منازل الفضل ومعارج الارتقاء ما سبقوا به أهل الأرض قاطبة، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾.. أى إن الله اصطفاهم لا محاباة، بل عن عدالة وحكمة، فلولا أن الشعوب الأخرى فى زمانهم كانت أبخس حظًا فى المعرفة والقدرة ما حملهم القدر رسالة ولا آتاهم من الآيات ما آتاهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.. وإن الإنسان لينظر إلى اليهود أيام محنتهم فيرى بقايا الاختيار القديم لائحة فى سيطرتهم - وهم قلة - على أموال العالم، واستمرار عنصرهم يغالب الحياة، ويتشبث بها برغم سياسة الاستئصال المنظم التى اتبعها العالم حيالهم، إن القرآن الكريم ليذكّر هؤلاء اليهود بأمجادهم الأولى، ويذكّرهم بإمكان العودة إليها لو اطرحوا الغدرات والأباطيل فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾. ثم يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ما الذى جعل أمور هذه الأمة تنقلب رأسًا على عقب؟ ما الذى جعلها بعد أن كانت النبوات تزحم ديارها وأنوار السماء تخط طريقها وبركات الله تنهمر فوقها وتحتها، تتحول إلى أمة أخرى تحذرها شعوب الأرض وتتربص بها الدوائر وتتواصى بالنيل منها والكيد لها؟ ذلك أن بنى إسرائيل ظنوا أن إكرام الله حق مكتسب لهم بحكم الجنس فهو مقرون بهم لا محالة مهما صنعوا، أجل لقد ظنوا إيثار الله لهم ضربة لازب كما يؤثر الرجل بنيه عن غريزة غالبة وعاطفة دافعة، ثم أدى بهم هذا الظن إلى التفريط والتكاسل، بل إلى الحيف والتحامل، فأمسوا يتفاسدون، ويتجاهلون، وهم مع ذلك موقنون بأن كفتهم على سائر الناس أرجح ودرجتهم عند الله أعلى وأغلى، والغريب أن هذا الوهم سرى من بعدهم ممن ورثهم، فنعى الله عليهم جميعًا هذا الغرور بالمعاصى وهذا الانتماء إليه بالزور: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾.. ورب العالمين يختبر عباده بالعسر واليسر ويبعث بالرخاء بعد الشدة لا ليخرج المروعون من اللجج المخوفة ويسيروا على شاطئ الأمان مرحين معربدين، كلا بل ليعتبروا بماضيهم ومستقبلهم معًا، وإلا فالأمر كما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ

﴿أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.. وربما ظن الناس أن أجل نعماء الله على بنى إسرائيل هذا الإغداق السمح الذى يسر لهم أطعمتهم من السماء موائد حافلة بالمن والسلوى، كلا. إن تأمين أمة على أرزاقها شىء عظيم حقًا، فكم تذل الأمم بالسنين العجاف، ولكن اليهود ظفروا بمكاسب روحية كبيرة إلى جانب ما نالوا من إشباع وتأمين، فإن الله تعهدهم بالأنبياء يعلمونهم بالوحى ويقودونهم بتوجيه السماء، وكان وعاظهم ومدرسوهم رجالاً معصومين يدعون إلى الله على بصيرة ويستعلون على أهواء الدنيا عن عصمة.

لقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التى نالوا بها رضوان الله، وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم، فكان بقدر جحودهم ما استوجب من عقاب الله لهم.

بيت المقدس قضية دينية لا قومية

هل يكفى ـ عقابًا لبنى إسرائيل ـ أن يطردوا من فلسطين؟ لا، إن الله عزلهم نهائيًّا عن القيادة الدينية التى كانت لهم، وحرمهم من الوحى وشرف إبلاغه، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة. وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول، فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل، وأصبحت الأمة العربية ـ لا العبرية ـ هى الوارثة لهدايات السماء.

إن قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر فى سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوى، ويرون الدفاع عنه جزءًا من الإيمان، ويعترضون باسم الله ورسوله ﷺ جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه، ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه، فكيف يتجاهل هذا؟

والنصارى يرون بيت المقدس قبلتهم، وبه قبر المسيح عليه السلام، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدى المسلمين لأنهم أمناء عليها، وحماة لها، ولرفع التنازع الطائفى بينهم على حيازتها. واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل عليه السلام وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية! وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لا يمنع من العودة إليها وطرد العرب منها!

فإذا كان الدين وراء كل دعوى، فكيف جاء من أسموا أنفسهم العروبيين، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامى، وأغروهم بجعل القضية صراعًا جنسيًّا أو نزاعًا «إمبرياليًّا» وغير ذلك من الأوصاف المكذوبة؟

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟

إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل، ويتآمرون على اغتصاب بقيته،

والأخبار تترى ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ أن مساجد شتى فى يافا وعكا نسفت، وأن ترويع الطلاب العرب فى مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية، وقطاع غزة، أو كما يعبر اليهود «يهوذا أو السامرة»؛ إحياء لعناوين التوراة.

إننى أتساءل: ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟

نحن نحتفى بالبقعة التى انتهى إليها الإسراء، وبدأ منها المعراج، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم: لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تعرف من الآيات التى أعقبت قصة الإسراء فى سورتها المباركة، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث.

فى هذه الأرض قامت رسالات وانتهت، وفيها نهضت دول وتلاشت، ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله، ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين فى هذه الأيام العجاف!

إن الصليبيين القدامى تقدموا فى فراغ!

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هى الأسلحة التى هزمنا بها أعداؤنا، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين فى أية معركة جادة ما سقطت فلسطين.

وكأن التاريخ يعيد نفسه، إن الصهيونيين تقدموا فى الفراغ نفسه.

أعانتهم الفرقة، والشهوات المطاعة، والعقائد المنحلة، والأنانية الطاغية، فكسبوا معركتهم بأيدينا.

أريد ـ عندما نتذكر الإسراء ـ أن نتجاوز الهامش إلى الصميم.

أن نترك السرد السطحى للقصة.

أن نعمق النظر فى الأسباب التى من أجلها كان الإسراء، ولأجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية، وتضع الموازين القسط بين الناس.

زبانيـــة الغــزو الثقــافــى

من الغريب أن الوساوس التى هجست فى أفئدة الجاهلين الأقدمين لا تزال تتردد فى بعض الأفئدة الشاكة، وتسطرها دون حياء أقلام ارتدت عن الإسلام وكفرت بشرائعه.

وماذا يبغى هؤلاء؟ إنهم يريدون أن يخلع العرب لباس التقوى، ويرفضوا البقاء على الدين الذى أتم الله به النعمة وكفل حرية النصر والمنعة. وتدبر قول أحدهم فى عرض تعليقه على سيرة المجاهد الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى: كانت دعوة جمال الدين لإحياء دولة الخلافة دعوة ساذجة بعيدة عن إدراك سير التاريخ! وكان إصراره على إقامة دولة إسلامية دعوة عاطفية ممعنة فى الخطأ والضلال (كذا) وإدراك مغزى الثورات الكبرى وأمانى الحياة الإنسانية(!) فالدولة الدينية ـ هكذا يقول الكاتب ـ أين ومتى كانت لا يمكن أن يقول بها إنسان عنده إدراك وسداد وفهم وحرية وضمير! ـ الله الله ـ ولسنا بذلك نعيب جمال الدين. إننا نزن آراءه وأعماله ونقومها التقويم العلمى والتاريخى!.. لكن لماذا أمعن جمال الدين فى الخطأ والضلال حسب تعبير الكاتب العظيم؟

يقول حضرته: مرد هذه الأخطاء فى إحياء الخلافة الإسلامية، هو عمق إيمانه بالإسلام وحرصه على أمجاد الخلافة العريقة.

هذا هو الدافع لاقتراف ذلكم المنكر الكبير! إن عمق الإيمان بالإسلام جرم شنيع!

والأشد غرابة أن كل معلول فى فكره، مختل فى وزنه للأمور وحكمه على الأشياء لا يجد مسرحًا لعلله وخلله إلا الإسلام ينال منه كيف شاء.

ولو كان هذا الكلام والعرب فى إقبال من أمرهم وانتصار على عدوهم لقلنا فى صاحبه: مفتون فاته التأديب. أما والعرب فى معركة بقاء أو فناء وخصومهم يستظهرون بأديانهم فى كسر شوكتنا وضرب أمتنا، فإن تلك الأفكار قرة عين لأعدائنا الذين يستهدفون محق رسالتنا ووجودنا وتاريخنا الماضى والآتى على حد سواء.

إن العرب لا يستغنون عن آية واحدة من كتاب ربهم، وهم فى الآونة العصيبة

التى يجتازونها أحوج أهل الأرض لمن يربطهم بكل دقيق جليل من رسالتهم، وإنى ـ إذ أسمع طنين الباطل هنا وهناك ـ أهيب بكل مسلم أن يعد هذا الأمر الإلهى خطابًا خاصًّا به، وهو قوله جل جلاله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

لقد كان جمال الدين الأفغانى وتيودور هرتزل متعاصرين، فأما الأول فجاهد ليدعم بتعاليم الإسلام الصحيح دولة مريضة رأى ذئاب الأرض تتهيأ لنهش لحمها وابتلاع كيانها، وأما الآخر فقد رأى الفرصة سانحة ليخلق من العدم دولة، ومن الوهم كيانًا، وكانت اليهودية ورؤى العهد القديم هى الدعائم التى بنى عليها أمله الهائل.

فأما جمال الدين فقد قتل دون غرضه، وأما هرتزل فنحن اليوم نعانى المر من غرسه.

والسبب فى فشل جمال الدين وعجزه عن بلوغ غايته أن الاستعمار الفكرى استطاع خلق عدد كبير من أمثال هذا الكاتب يكره الإسلام، ويرى عمق الإيمان به تهمة تشين صاحبها!

ولو كان جمال الدين من دعاة اليهودية أو النصرانية ما جرؤ أحد على تناوله بهذا الأسلوب!

ولكنه من دعاة الإسلام المهيض الجناح، الذى يستنسر بأرضه البغاث!

ولقد وصف لنا القرآن الكريم أعداء الحق وصفًا يستحق التدبر، فهنالك أناس يسخطون على الله، ويمقتون وحيه، ويأبون رؤيته نافذًا على الأرض: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وهناك أذناب لهؤلاء أو أبواق تردد دعاواهم وتصدق إفكهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وزبانية الغزو الثقافى من وراء الحدود وسماسرته الصغار بين ظهرانى العرب، هم أول من ينطبق عليهم هذا الهدى القرآنى المبين!

وآثام الفراغ الروحى والضياع الخلقى اللذين يشكو منهما المصلحون هما النتيجة الحتمية لهذا الغزو الخبيث، وهما كذلك العلة الأولى لما أصاب العرب من هزائم متتابعة، ومن هنا كانت نقمتنا على الأقلام التى توهن علاقتنا بالإسلام، وتهاجمه عقيدة تارة وشريعة تارة أخرى.

ومن هنا انبعثت صيحاتنا تنبه المؤمنين إلى ما يبيت لهم.

إذا احتوت قبضتك على شيء نفيس فحاول اللصوص انتزاعه منك قسرًا ثم أصخت إلى صوت الحارس المؤنس يهتف بك: استمسك بما معك. فمعنى ذلك: شدد قبضتك، وركز قوتك، وقاوم عداتك، وإياك أن تتراخى أو تفرط. وكذلك تنطلق آيات الله إلى أفئدة عباده، ففى ضمير كل مؤمن هاتف يصرخ فى أعماقه، كلما تكاثرت الفتن وحيكت المؤامرات وانتشر لصوص العقائد وسراقو المبادئ يقول: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

نعم. نحن على الصراط المستقيم، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى.. والعرب الذين يحملون رسالة الإسلام، وتتعلق بها جمهرتهم العظمى، لا يحملون خرافات ولا أوهامًا كما يزعم الأفاكون، وإنما يحملون من فيء لغتهم خلاصات الوحى الإلهى من الأزل إلى الأبد. فإذا ضاع هذا التراث بقى العالم كيانًا فاقد الرشد ضائع الخير، وسارت الإنسانية وهى قطعان عاوية جافية مهما تقدمت معارفها وتطورت علومها! ومهما بذل العملاء لتسويء سمعة الإسلام وتجريح حقائقه فلن ينالوا خيرًا، ولن يدركوا هدفًا، والله غالب على أمره.

التفريط والهزيمة

المسلم امرؤ يحيا وفق تعاليم دين، وهو ينتصر لدينه بالطرق التى يقرها وحدها وينأى عما عداها. إن طبيعة الطير أن تسبح فى الجو وأن تطوى المسافات صافة أجنحتها، وطبيعة الثعبان أن يزحف على الثرى وتتداعى أجزاؤه فوق التراب لكى ينتقل من مكان إلى مكان.

والإيمان نقلة هائلة من طبع إلى طبع ومن سلوك إلى سلوك وهو يكلف صاحبه أن يترفع لا أن يسف، وأن يشق طريقه محلقًا فى الجو لا مخلدًا إلى الأرض، والمشكلة أن بعض الناس يتصور أنه باسم الإيمان يستطيع أن يتحرك بخطى الثعبان.. وهيهات!

تأملت فى وصف القرآن لأولى الألباب فوجدتنى أمام مجموعتين من الخلال الزاكية تكمل إحداهما الأخرى، المجموعة الأولى فى سورة آل عمران والثانية فى سورة الرعد.

فأما التى فى سورة الرعد فقد أحصت الآثار العملية فى الأخلاق والسير وعدّتها الامتداد الطبيعى للعقل المؤمن: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾... الآية.

وأما التى فى سورة آل عمران، فقد تعرضت إلى منابع الإيمان من ذكر وفكر ودعاء، ولضوابطه من جهاد وهجرة وتضحية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. إلى أن قال:

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾... الآية.

والآيات الكريمة فى كلتا السورتين تصف ناسًا معينين، إنما تختلف الأوصاف باختلاف المواقف والمناسبات، وما يستغنى مؤمن فى حياته الخاصة والعامة عن كل ما ذكر الله جل شأنه هنا وهناك.

قد تقول: لكن هذا الالتزام الدقيق سيجعل أصحابه غرباء مستوحشين، بل قد يجعلهم ضعفاء مغلوبين!، فإن القافلة البشرية تسير تحت رايات وشارات غير ما تقرر هنا، وإذا لم يتهاون أهل الإيمان فى بعض مواريثهم هانوا وتنكرت لهم الدنيا!

وأقول: هذا هو الهراء الذى لا يثمر إلا خزى الحياتين والذى أنطق المفرّط القديم بهذا البيت النادم:

بعت دينى لهم بدنياى حتى

سلبونى دنياى من بعد دينى!

وإنى أحذر العرب والمسلمين فى كل قطر من مثل هذا المنطق الكفور الضعيف، إنهم يجب أن يتشبثوا بأرضهم شبرًا شبرًا وبدينهم حكمًا حكمًا، وليعلموا أن نية التفريط أولى بوادر الهزيمة، وأن النزول عن جزء من الحق إيذان بضياع الحق كله.

لقد بدأ الإسلام غريبًا مستضعفًا فلما ثبت عليه أهله أصبح قطب الوجود ومنارة الدهور، وما كلفهم ذلك إلا شيمًا واحدًا هو صدق الإيمان، وإن خفق القلب واضطرب القدم وقل الناصر وفجر الباغى وعمت الأفق الغيوم!

يقول سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾... الآية.

والشرط الفذ الذى نوه به القرآن ليتحقق هذا الرجاء هو قوله سبحانه: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾... الآية.

وبعد أن ألمع إلى أركان هذه العبادة المفروضة أومأ إلى قوى المبطلين بازدراء،

وبيّن أنها ستذوب فى حرارة الإيمان المنتصر آخر الأمر: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

إن النصر حليف دائم للإيمان الحق، لا يمكن أن يتخلف عنه أبدًا، ولقد ذاق المسلمون فى تاريخهم المديد حلاوة النصر وآلام الهزيمة، فهل كانت انكساراتهم لمتخلف فى مواعيد الله؟ كلا.. إنهم هم الذين أوهنوا علاقتهم بالله، فلما ارتابت قلوبهم وضعف إيمانهم تخلت عنهم العناية العليا.

قرأت هذا التعليق على جهاد نور الدين زنكى ضد الصليبيين القدامى أنقله بحروفه لعل فيه عبرة: «كان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوربا كلها بما يشد أزرهم ويضمن غلبهم، وحسب الناس أن هذه الغمة لن تزول، وما هو إلا أن ظهر الرجل الذى نشر راية القرآن وضرب بسيف محمد حتى عاد النصر يمشى فى ركاب المسلمين وعاد أمرهم إلى الزيادة وأمر الصليبيين إلى النقص وبذلك يكون لنا كلما شئنا النصر».

إن راية القرآن لم تهزم قط، ومن هزم من أمراء المسلمين فى هذا التاريخ الطويل إنما هزموا لأنهم كانوا يستظلون برايات المطامع والأهواء والعصيان والأحقاد وما استظلوا براية محمد.

وكانوا يضربون بسيف البغى والإثم والعدوان، وما ضربوا بسيف محمد، إنه ما ضرب أحد بسيف محمد ونبا فى يده سيف محمد، وهذا حق سجلته القرون وشهدت به الأرض والسماء، وعندما ينتضد العرب هذا السيف فستكون من ورائه قوة الله التى تدك العدوان وتؤدب المجرمين؛ إسرائيل ومن وراء إسرائيل.

المهم أن نوفى لله فيوفى الله لنا، وأن نذكره فيذكرنا، وأن نلوذ به فيكمل جهدنا ويسدد خطونا.

الفهرس



